أساطير من حياة الأمم

صدرت الترجمة العربية من هذا الكتاب عام ١٩٥٦

تأليف

فرنسيس فروست

ترجمة

محمد حسني

تقديم ومراجعة

د. جلال عبد الفتاح

الكتاب:أساطير من حياة الأمم

الكاتب:فرنسيس فروست

ترجمة : مُحَمَّد حسني

تقديم ومراجعة : د. جلال عبد الفتاح

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.com http://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

فروست ، فرنسيس

أساطير من حياة الأمم/ تأليف : فرنسيس فروست، ترجمة : مُحَمَّدحسني، تقديم و مراجعة : د. جلال عبد الفتاح– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٥١ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى:٢ – ٨٣١ – ٤٤٦ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوا ن رقم الإيداع :١٤٨٤٨ / ٢٠١٨

أساطير من حياة الأمم



هذه ترجمة كتاب

George G. Harrap & Co. Ltd.
London Sydney Toronto Bombay

BY

FRANCES FROST

تقديم

الأسطورة هي عبارة عن حكاية ذات أحداث عجيبة خارقة للعادة ، أو عن وقائع تاريخية قامت الذاكرة الجماعية بتغييرها وتحويلها وتزيينها ... والأسطورة كما يعرفها المتخصصون في الأدب الشعبي والفلكلور" هي شائعة أصبحت جزءاً من تُراث الشعب الشفهي، ومن الناحية اللغوية كثيراً ما نستخدم كلمة شائعة مكان أسطورة والعكس صحيح ".

ووفقاً لما نشرته دار المعارف البريطانية عن الانثروبولوجيا الاجتماعية عرضت للأحاديث المنقولة بأن قالت "أنها تعني حكايات الناس وأساطيرهم التي تنتقل شفاهاً من جيل إلى آخر وتُحفظ من الضياع بقوة ذاكرة الذين يتوارثونها طبقة بعد طبقة وأنها تخدم غرضين أساسيين، فهي من ناحية تُحدثنا بتاريخ الشعوب، ومن زاوية أخرى فهي ثقافة تصويرية تُحدد مكانة صاحبها في المُجتمع الذي يعيش فيه.

لذا فالأساطير (أو ميثولوجيا) هي حكايات خرافية نشأت منذ فجر التاريخ ، ويلعب فيها دور الأبطال صور خيالية كالآلهة والأبطال الأسطوريين وغريبي الأجسام وغير ذلك حيث تقوم بتوضيح وشرح الظواهر المُختلفة للطبيعة والمجتمعات بصورة غريبة ومُبهرة وغامضة...

والأُسْطُورة هي حكاية تقليدية تروي أحداثاً خارقة للعادة، أو تتحدث عن أعمال الآلهة والأبطال. وهي تُعبر عن مُعتقدات الشعوب، في عهودها البدائية، وتُمثل تصورها لظواهر الطبيعة والغيبيات. وفي عقائد الإغريق القديمة تحكي معظم الأساطير عن أُناس وأماكن وأحداث يُمكن إدراكها، وفي عهود أقرب، تقوم بعض الأساطير على أشخاص حقيقيين، أو أحداث حقيقية، ولكن الكثير منها يتعلق بشخصيات خيالية.

ولكل مُجتمع أساطيره الخاصة، ومُعظمها يعكس الاتجاهات والمُثل العليا للمجموعة التي أبدعتها. ويحمل أبطال الأساطير صفات يعتبرها جميعهم مُثيرة للإعجاب. فمثلاً تحكي كثير من الأساطير عن ريتشارد قلب الأسد، ملك إنجلترا في القرن الثاني عشر الميلادي. ومثل تلك الأساطير تؤكد على شجاعة وعدالة الملك. ومن ناحية أخرى توضح الشخصيات الشريرة في الأساطير الجُبن والجشع اللذين يعتبرهما المجتمع صفات غير مرغوبة.

وغالبية المجتمعات لها أساطير محلية وأخرى قومية، فالأساطير المحلية تحكي عن أبطال من مجموعة عرقية معينة أو مهنة أو منطقة ، فعلى سبيل المثال روبن هود هو البطل الأسطوري الإنجليزي في القرن الرابع عشر الميلادي. ويُشارك الشعب بأكمله في الأساطير القومية، فكثيرٌ من البريطانيين من الرجال والنساء والأطفال يفخرون بالإنجازات التي تصفها حكايات الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة.

والثقافة العربية حافلة بالأساطير والابطال الشعبيين ، كما في أسطورة أبو زيد الهلالي سلامة ، وهو أحد أمراء بني هلال بن عامر من هوازن وفرسانهم ... وهو بطل أشهر الملاحم الشعبية العربية المعروفة بسيرة بني هلال وقد صورت

الملحمة وقائع العرب في الفترة من مُنتصف القرن الرابع الهجري وحتى منتصف القرن الخامس الهجري إبان عصر الدولة الفاطمية. وعلى الرغم من شهرته لم يكن أبو زيد الهلالي محور هذه الملحمة وإنما واحد من أربعة انتهت إليهم الرئاسة في القبيلة وهم: حسن بن سرحان المعروف ب (أبي علي) الملقب بالسلطان؛ وذياب بن غانم الهلالي؛ والقاضي بدير بن فايد؛ وأبو زيد سلامة بن رزق الهلالي ... ولقد مهدت الملحمة ولادة هذا البطل بحادث فذ جعله يبدو كإنسان خارق. وترتكز بطولة أبي زيد على دعامتين الأولى الشجاعة وقد بالغ فيها الشعب العربي حتى أخرجها من المُمكن وتجاوز بها الطاقة البشرية وكاد يعتبرها من الخوارق؛ والثانية فهي الحيلة وقد أهله الشعب العربي لها بأن علمه مُختلف العلوم والفنون واللغات فهو يستطيع أن يتنكر في أي زي وأن يحترف أي مهنة وأن يتحدث بأي لغة ... ومن هنا جاء المثل العربي الشهير " سكة أبي زيد كلها مسالك "كناية عن قدرته الخارقة على اجتياز الصعاب.

وما بين يديك كتاب يزخر بالقصص الخيالية والأسطورية تُبهر كُل من يقرأها وتطلق للذهن العنان مما يجعلك تستمتع في الابحار لمعرفة بعض أساطير الشعوب .

د. جلال عبد الفتاح



مقدمة المؤلف

إن الغرض من اختيار هذه المجموعة من الأساطير وحكايات العامة وإعادة روايتها، هو تزويد الأطفال والكبار بفكرة عن الروح المتأصلة في هذه البلاد التي اتحدت في صراعها العنيف من أجل الحرية. وقد توخيت أن أعرض قصصا تمثل السمات القومية في كل منها. وسواء أكانت تلك الأساطير غرامية أم خيالية أم خلقية أم فكاهية أم من أساطير البطولة؛ فجميعها تراث قومي يتلقاه الأطفال جيلا بعد جيل، يمتزج بنفوسهم حتى يصبح جانبا حيويا في تكوينهم، ويلازمهم طابعه في حياتهم عندما يبلغون مبلغ الرجال والنساء.

وكل أسطورة من تلك الأساطير تعتبر مثالا حيا رائعا من القصص الشعبي في البلد الذي اختيرت منه، وتعين القارئ الصغير في كل شعب على فهم بقية الشعوب الأخرى.

فرنسيس فروست

بريطانيا العظمى

إنجلترا

دك ويتنجبتون وقطته

كان في إنجلترا، في غابر الأيام، فتى صغير يدعى "دك ويتنجبتون Dick Whittington "، مات أبواه، ولم يكن له من صديق في العالم سوى قطته الصغيرة السوداء التي سماها "خميس"، نسبة إلى اليوم الذي عثر عليها فيه وهي تموء عند حافة الغابة، وكانت مثله مهملة، منسية جائعة.

وكان "دك" يجوب أنحاء الريف بقطته الصغيرة، فيؤدي كل ما يكلفه إياه المزارعون من أعمال يسيرة، تقيم أوده. أما في المساء فكان ينزوي لينام هو وقطته فوق أكوام العشب اليابس، حتى أصبحت قطة جميلة ذيلها طويل وعيناها خضراوان، وعرفت كيف تصيد جرذان الحقول ومخازن الغلال والطيور البرية.

وكان "دك" يسميها "تابعه"، إذ كانت تتبعه أينما ذهب، وتموء خلفه لينتظرها إن أسرع الخطى، وكان يرى فيها أجمل قطة في إنجلترا بأسرها.

وذات يوم وهو واقف قرب عين على جانب الطريق ليشرب منها إذ وقفت عربة نقل، أراد صاحبها أن يسقي حصانه، فسأله دك عن وجهته. فأجاب الرجل: أنه ذاهب إلى مدينة لندن..

وسأله "دك"، وكله عيون وآذان: "تُرى.. ما شكلها؟"

قال السائق متبرما: "أوه.. إنها مدينة جميلة تغص بالأغنياء من الرجال والنساء الجميلات والبيوت الكبيرة، وهناك النهر بجسوره وقواربه، وبها المتاجر المكتظة بالسلع المعروضة للشراء". وسأله "دك"، وهو يرفع "خميس" التي بدأت ترسل موءاها حين ربت على رأسها وجرى بأصابعه خلف أذنيها: "وهل أستطيع أن أكسب هناك مالا كثيرا؟"

قال السائق: "ثق من ذلك"، ثم صاح بحصانه وهو يهز عنانه: "هوه.. لقد نلت كفايتك.."

وسأله "دك": "وهل لي أن أرافقك؟".. فضحك الرجل قائلا: "سأدعك تسير طول الطريق إلى جانب العربة، دون أن تدفع شيئا لقاء رحلتك".. ثم اعتلى عربته وشرع يهز عنان حصانه.

وقال "دك" وهو يدس قطته داخل سترته ويأخذ مكانه إلى جانب العربة: "هذا عطف منك".

ولبثت "خميس" برهة داخل سترة "دك" ورأسها الأسود باد تحت ذقنه، ثم أخذت تتلوى بغية النزول.. فوضعها "دك" على أرض الطريق، فجرت بين الحشائش، ثم كرت راجعة تتبعه عن كثب إلى أن تعبت وأخذت تموء في قلق فحملها "دك" ثانية. وكانت رجلاه قد تعبتا كذلك، فشعر بطول المسافة إلى مدينة لندن.

وأخيرا وصلا إلى المدينة، ومضى السائق في طريقه دون أن يودع "دك". وأحس هذا وهو يحدق في العربة المذهبة، بأن شعوره قد جرح، ولكنه عرف للرجل صنيعه، أن سمح له أن يسير إلى جانب العربة دون أن يتقاضاه شيئا نظير رحلته. على أن نفسه هدأت عندما أطلت "خميس" برأسها من بين ثنايا سترته وأخذت ترسل صوتها عاليا وتمسح على ذقنه في حب ومودة.

ومضى "دك"، وهو رث الثياب جائع، يطوف بأنحاء المدينة العظيمة وأخيرا تطلع إليها في غبطة إلى كنائسها ومنازلها الرائعة، وإلى ملايين الأشياء التي تلمع في واجهات المتاجر، وإلى الرجال الأثرياء يمرون به راجلين أو على صهوات جيادهم أو في مركباتهم الفارهة. وبين وقت وآخر، كان يحملق بعضهم في الفتى الريفي في ثيابه الرثة ويرون قطته السوداء ذات العينين الخضراوين، اللتين تماثلان عيني سيدها الصغير، اتساعا ودهشة.

واستجمع "دك" شجاعته وسأل رجلا طويل القامة أن يرشده إلى حيث يجد لنفسه عملا، إلا أن الرجل صاح به غاضبا: "إليك عني أيها الوغد الصغير، فإننا لا نريد نشالين هنا"، ورفع عصاه كأنما يهم بضربه وزمجرت "خميس" وأزبدت.

وتنحى "دك" عن طريقه، وطفق يجول في الطرقات، ويطرق أبواب البيوت بحثا عن عمل، ولكن النسوة قفلن الأبواب في وجهه، ونال منه البؤس والجوع، ووجد نفسه يضرب في أزقة ضيقة يسكنها المتسولون،

حيث لا محل لفتى صغير معدم. ووصلت إلى سمعه دقات أجراس المدينة الكثيرة الضباب مع ضوء الغسق، وأحب صوتها، ولكن معدته أصبحت كغار خاو متسع، وقلبه كأنه ليس بضعة منه. وقرب الليل عندما بلغ مخزنا كبيرا وجلس على درجة بابه، وقد شعر بالألم والإعياء يدبان فيه، على حين وثبت "خميس" في عصبية إلى إفريز الشارع تستكشف ما حولها. وفي النهاية غلب النعاس "دك" فنام منزويا على درجة الباب، وخده القذر على كمه البالي.

أما قطته "خميس" فقد مضت على أطراف أكفها، دون أن تحدث صوتا، واستغلت الوقت في إجراء استكشافات بارعة؛ فأسرعت إلى الشارع حيث عثرت على حانوت قصاب سرقت منه قطعة من لحم الضأن، وعادت بها إلى درج المخزن وأكلتها بشهية. ثم مسحت وجهها وشاربها فشعرت بالقوة والثقة في نفسها أكثر من ذي قبل. ثم تسللت إلى المخزن، وأمسكت بفأر رمادي حملته إلى "دك" إذ كانت تعلم أنه جوعان كذلك، ووضعت الفأر بحيث يكون أول شئ يراه في الصباح ثم تمطت وعطست ونامت.

وفي صباح اليوم التالي، نزل صاحب المخزن فوجد على درجة بابه فتى قذر الوجه نائما وبجانبه قطة سوداء، وعلى مقربة منهما جرذ ميت. ولما كان التاجر يحب الأولاد والقطط، فقد أغرب في الضحك وأخذ يهز كتف "دك" في رفق قائلا: "هيا انهض يا فتى". وفتحت "خميس" عينا خضراء، ثم فتحت الأخرى. أما "دك" فقد اعتدل فجأة، حتى كاد يلقي بـ

"خميس" من فوق الدرجة، ثم تمتم والنعاس يغالبه وهو يفرك عينيه: "طاب يومك يا سيدي". وعندئذ تذكر المسلك الذي يجب عليه أن يسلكه فقام لساعته وقال "عفوا يا سيدي.... أهذا مخزنك؟"؛ فأمن التاجر على قوله، وسأله من أين أتى، وكان في صوته حنو جعل "دك" يروي له قصته بدون تردد. وكان يترنح وهو يحدث التاجر وكاد يغمى عليه جوعا وهو يروي كيف لم يوفق إلى عمل.

وسأله التاجر: "وما قولك لو عملت هنا، في مخزني، فإن لدي الكثير مما يستطيع فتى مثلك أن يعمله، ثم قطتك هذه، أراها صائدة ماهرة، وستجد هنا من الجرذان ما يشغلها". ثم سأله: "كم يوما قضيت دون طعام يا بني؟"

وأجاب "دك" بصوت خافت: "ثلاثة أيام"؛ فقال التاجر: "هذا لا يصح، وسنسوي ذلك أولا ثم نبدأ العمل بعد ذلك".. وهكذا عمل "دك" لدى التاجر، وتعهد بخدمته سبع سنوات. ومضى وقت طويل و"دك" سعيد في المخزن، أما "خميس"، فقد زادت ملاسة شعرها وحسن طعامها.

وكان "دك" يتناول طعامه في مطبخ سيده، فإذا أمسى تمدد على حشية في أحد أركان المخزن الواسع، مصغيا إلى صوت اضطراب مياه المد في الرصيف المقام عليه المخزن، وكانت "خميس" تصيد الفئران والجرذان في الظلام، وكان يصل إلى مسامع "دك" صوت الهرب والصرخات، ولكنه

على الرغم من رفقة "خميس" كان يشعر بالوحدة. وعندما حل الربيع اشتد به التبرم واشتد حنينه إلى الريف وأريج الغابات.

وفي إحدى الليالي المقمرة، نفد صبره، فدس "خميس" في سترته، وتسلل إلى خارج المخزن، ناسيا وعده للتاجر وما حباه به من عطف دائم، وأخذ يعدو عبر الشوارع مبتعدا عن رائحة الملح المنبعثة من النهر، وظل يخترق المدينة النائمة، وتوقف عن العدو بعد أن أتعبه المسير وأخيرا وصل خارج "لندن"

وجلس "دك" في الفجر المبكر، على الحشائش النضرة على سفح تل "هايجيت" ومضى يملأ رئتيه من الرائحة الطيبة المنبعثة من الأرض. وسرح طرفه فيما حوله من الأوراق الرقيقة الخضراء التي بزغت منذ قليل في الأشجار والشجيرات، ثم تنهد بغبطة. وأخذت "خميس" تجوس بخفة خلال العشب الرطب، ثم توقفت تلوك نبتة منه.. وكرت راجعة إلى "دك" تموء قلقة، وفي هذه اللحظة بدأت أجراس مدينة لندن ترسل دقاتها، وتناهت موسيقاها إلى مسمع "دك"، وهي تنساب في عذوبة من بعيد، تحملها إليه النسمات الباردة.

ذكر ذلك العهد الذي لم يوفه، فتبدلت صورة الريف في نظره وخلت من روعتها السابقة، ومد يده إلى العشب فقطع عشبة منه أخذ يقضم جذرها الأبيض، وأصغى إلى الأجراس وكأنها تناديه لتنبئه بمستقبله كعمدة للندن ثلاث مرات.

ومسحت "خميس" خلف أذنيها بشدة ثم عمدت إلى "دك" فوضعت كفيها الأسودين على ركبته، وحملقت في وجهه، وفي عينيها الخضراوين تساؤل، وكأنما تعتب عليه إبعادها عن قنصها الجرذان الرمادية الناعمة في المخزن المظلم. وربت "دك" على رأسها ولكنها أبت أن تموء. ومرة أخرى سمع أجراس المدينة تناديه؛ وكأنها تنبئه بمستقبله كعمدة لندن ثلاث مرات.

وهنا بلغ عذاب الضمير مداه، فنهض واقفا وألقى نظرة أخيرة على الضبابة الرقيقة الخضراء التي تحيط بالغابات. وعاد إلى لندن و"خميس" تجري في عقبيه، وبلغ المخزن قبل أن يحضر سيده ليبدأ العمل، وبلغ من ارتياحه لعودته أن أدى من العمل أكثر مما أداه من قبل. أما "خميس" فقد بلغت غايتها في صيد الجرذان، وزاد جهدها في هذا المضمار باقي أيام الأسبوع، حتى أعياها الصيد، فركنت إلى النوم طوال يوم الأحد، لا تكاد تفتح عينا أو ترعش شاربا.

وفي يوم ما، دعا التاجر دك يسأله: "ما قولك في سفر ترى فيه العالم يا "دك"؟. وأجاب "دك" في لهفة: "إنني أتوق إلى ذلك يا سيدي"، قال التاجر: "حسنا جدا.. لقد خدمتني سنة بأمانة وإخلاص، ولي سفينة اسمها "اليونيكورن" ستبحر الأسبوع القادم إلى جزر الأنديز، فما قولك في السفر عليها كخادم "قمرة"؟.

قال "دك": إنه لجميل يا سيدي، ولكن ما مصير قطتي؟

قال التاجر وهو يبتسم: "لك أن تأخذها معك؛ ففي السفينة جرذان أيضا". وأبحرت "اليونيكورن" في المساء عندما علا المد وبدت مياه التيمس أرجوانية وفضية. واتكأ "دك" و"خميس" على حافة السفينة، وبصرهما عالق بإنجلترا. ومضى "دك" إلى عمله، وقد فاضت نفسه سرورا لمنظر البحر أمامه وما ينبعث من الصواري من صوت فوق رأسه.

وأمضت "خميس" وقتا طيبا في مطاردة جرذان السفينة. إن صيدها بالسفينة أصعب منه على البر؛ فقد كانت "اليونيكورن" تميل من جانب إلى آخر، وكان يحدث أحيانا في اللحظة التي تتأهب فيها "خميس" للانقضاض على الجرذ، أن تميل السفينة بشدة تجعل "خميس" تنزلق في اتجاه على حين يذهب الجرذ في الاتجاه الآخر.

وأخيرا بلغت السفينة جزيرة يحكمها رجل أسود قوي، وألقى البحارة بالمرساة، وفي اليوم التالي قصد الربان إلى الشاطئ ليتجر مع الملك الذي كانت لديه مخازن واسعة عامرة بالذهب والأحجار الكريمة والنقوش العاجية البارعة.

وعندما رجع الربان إلى "اليونيكورن" قال: "لم يسبق لنا أن رأينا جرذانا بهذه الكثرة، فالجزيرة تعج بها، حتى اضطر الملك إلى الاحتفاظ بخدم يحرسونه في أثناء نومه، خشية أن تعضه. وقد اختطفت الجرذان الطعام من المائدة تحت أبصارنا".. تردد "دك" لحظة، خطا بعدها إلى الأمام قائلا: "هلا أذنت لي، فأذهب بـ "خميس" إلى الشاطئ وأقابل الملك لعلها

تستطيع مساعدته؟" وأذن له الريان، فوضع "خميس" في غرارة، وجدف بهما أحد البحارة إلى الشاطئ، حيث تتمايل أشجار النخيل في الهواء.

وجد "دك" الملك نائما بعد الظهر على السرير الملكي في فسطاط أرجواني مذهب، وقد وقف خمسة من العبيد السود يذودون عنه ضد الفأر والجرذان بمراوح من ريش الطاووس، إلا أنها لم تأبه بالمراوح، وأخذت تروح وتغدو في كل ناحية طروبة مرحة، وبغتة وثب جرذ جرئ على كتف الملك وعضه عضة مؤلمة في أنفه جعلته يستيقظ، وهو يصرخ ألما، وحملق في "دك" وهو ممسك بأنفه، وصرخ بكلام لم يفهمه "دك". قال "دك" وهو يمد يده بالغرارة التي كانت "خميس" تقاتل جاهدة للتخلص منها، وكأنها عشرة قطط: "يا صاحب الجلالة، قد تعينك قطتي على التخلص من هذه المخلوقات".. ولم يفهم الملك مقطعا واحدا من عبارة "دك" ودعا طبيبه الساحر العجوز الذي أومأ برأسه الأبيض إلى "دك" ثم أخذ يفسر كلماته إلى الملك. ثم التفت إلى "دك" قائلا: "إن الملك يرغب في أن يرى ما في الغرارة"

وأطلق "دك" سراح "خميس" التي وثبت على الجرذان، وفي مدة قصيرة كانت قد قتلت إثنى عشر جرذا وسبعة عشر فأرا وتركتها ملقاة حول الملك الذي صفق بيديه جذلا، وتصايح العبيد، وأخذ الطبيب الساحر يثب في فرح وسرور..

كانت "خميس" تلهث قليلا؛ فجلست عند قدمي الملك، ومضت تنظر إليه مختالة. وفي هدوء مسحت وجهها، وابتسم لها "دك". وأرسل الملك، وهو دهش، في طلب الملكة لتشهد هذه القطة المدهشة التي أجبرت الفأر والجرذان على الهرب بهذه السرعة. وأفسح لها مكانا إلى جواره على السرير. ومسحت "خميس" بيدها خلف أذنيها ونظفت شواربها في عناية قبل أن تثب إلى حجر الملكة. وأخذت تموء بصوت مرتفع وهي تحك رأسها الأسود في يد الملكة السوداء. وراح "دك" يري الملكة كيف تربت على فروها الناعم. وراحت كلتاهما تهيمان معا.

ورغب الملك أن يشتري "خميس" في الحال. وهز "دك" رأسه رافضا. وأخذ الملك يلح في طلبه و"دك" يصر على رفضه. إلى أن قال "دك": "سأعيرك إياها لمدة سنة تكون خلالها قد طهرت جزيرتك من الفئران والجرذان جميعا".

وفرح الملك لذلك، وقال إنه سوف يعطي "دك" نظير إعارته قطته خمسة عشر صندوقا من اللؤلؤ والأحجار الكريمة، وثلاث حزم كبيرة من العاج. وتعهد بأن يعنى بـ "خميس" عناية فائقة، وأن يقدم لها لبن جوز الهند ثلاث مرات في اليوم. وودع "دك" "خميس" بحك خده في رأسها. وفرك أذنيها للمرة الأخيرة، وحمَل الملك السفينة بالصناديق والعاج، وعاد "دك" إلى "اليونيكورن" راضيا عن صفقته، وإن افتقد "خميس".

ولما بلغت "اليونيكورن" مدينة لندن ثانية. فرح التاجر لما أصاب "دك" من ثروة طيبة، وأراد "دك" أن يتنازل لسيده عن الصناديق والعاج، ولكن التاجر أبى عليه ذلك. وبدلا من ذلك اصطحبه إلى بيته حيث اغتسل وصفف شعره في عناية، واشترى له حلة ثمينة مصنوعة من قماش فاخر، واستحال "دك" إلى شاب جميل مهذب، يغشاه قليل من الخجل. وقدمه التاجر إلى ابنته الفاتنة "أليس" وسرعان ما شغفه حبها.

اشترك "دك" والتاجر في التجارة معا ونمت ثروة "دك"، وفي السنة التالية، عندما عادت "اليونيكورن" من رحلتها إلى جزر الإنديز عادت عليها "خميس" ومعها عشرون صندوقا من الأحجار الثمينة والذهب واللؤلؤ وتسع حزم من العاج أرسلها الملك الشكور. وبلغ من سرور "دك" بعودة "خميس" أن رفعها ووضعها داخل سترته الفاخرة وسار مبتعدا عن الرصيف، وهو يتحدث إليها غير مبال لثروته الجديدة، وأخذت "خميس" تموء بشدة حتى بح صوتها.

وقد حالف التوفيق التاجر و"دك" حتى غدا "دك" أعظم تجار لندن، وتزوج من "أليس" ابنة التاجر الفاتنة وعاشا معا تظللهما السعادة. ولم يمض وقت طويل، حتى ولي "دك" منصب عمدة لندن. وكان موضع الحب والاحترام من الجميع. وقد ولي هذا المنصب ثلاث مرات. ولما تقدمت السن بـ "خميس"، وقعدت بها عن مباشرة الصيد، كان "دك" و"أليس" يتعهدانها بأنواع من المأكولات تعد خصيصا لها، كدجاجة مشوية بلا عظام، أو ذيل جرذ لذيذ في صفحة ذهبية. وكانت "خميس" تعبر عن

امتنانها وشكرها بمواء مفعم بالحب ونظرة طويلة من عينيها الخضراوين قبل أن تمسح وجهها، وتتمطى فوق طنفسة المدفأة في قصر عمدة لندن، وتذهب لتنام وقد طوت مخالبها.

أسكتلندا

ثور "نورو واي" الأسود

كانت في " نورو واي Norrowayفي قديم الزمان، سيدة لها ثلاث بنات جميلات، وفي يوم من أيام الربيع، قالت لها أكبرهن: "هلا أعددت لي يا أماه كعكة، وشواءً؛ فإني راحلة وراء حظي"

فقالت لها العرافة: "أقيمي اليوم هنا، ثم اذهبي إلى الباب الخلفي، وانظري من خلاله وخبريني بما ترين"

ومضى اليوم الأول والثاني ولم تر فيهما الفتاة شيئا، إلا أنها في اليوم الثالث أبصرت مركبة ذات جياد مقبلة، فجرت إلى داخل المنزل تخبر العرافة بما شاهدت، وقالت لها العرافة: "حسنا.. هذا حظك.. وتفسيره أنك ستوفقين في زواجك وتصيبين ثراءً عظيما".

ثم ركبت العربة وانطلقت بها الجياد، وتلتها البنت الثانية فقالت لأمها: "هلا أعددت لي يا أماه كعكة وشواءً فإني راحلة وراء حظي في الحياة".

وأعدت لها أمها ما طلبت، ومضت البنت إلى العرافة العجوز تستخبرها. وقالت لها العرافة : "أقيمي اليوم هنا، ثم اذهبي إلى الباب الخلفي وخبريني بما ترين"

ولم تر الفتاة الثانية شيئا في اليومين الأول والثاني، فإذا كان اليوم الثالث شاهدت مركبة ذات أربعة جياد قادمة تتهادى على الطريق. وقالت العرافة: "حسنا.. هذا لك.. وتأويله أنك ستزفين إلى رجل كريم وتقضين حياة مرحة طروب" ثم ذهبت إلى المركبة وعادت بها الجياد.

وقالت البنت الثالثة لأمها: "هلا تفضلت يا أماه، فأعددت لي فطيرة وشريحة لحم، فإني ساعية وراء حظي".

وأعدت لها أمها ما طلبت، ومضت البنت الصغيرة إلى العرافة العجوز، وفي حياء طلبت إليها أن تحدثها عن طالعها. وقالت العرافة العجوز: "ابقي اليوم هنا، ثم اذهبي إلى الباب الخلفي، فانظري منه ما ترين".

فأطاعتها، ولكنها لم تشهد شيئا في اليومين الأول والثاني، وفي اليوم الثالث جرت إلى العرافة قائلة: "ما أرى سوى ثور أسود جميل يخور في الطريق".

وقالت العرافة العجوز: "حسنا.. إنه لك، ولا يمكنني أن أزيدك إيضاحا".

وشحب لون الفتاة من الذعر، ولكنها علت ظهر الثور الأسود الذي مضى بها حتى طال بهما السفر، وشعرت الفتاة بحاجة ملحة إلى الطعام فأشار عليها الثور الأسود بأن تتناول طعامها من أذنه اليمنى

وشرابها من أذنه اليسرى، وأطاعته؛ فأحست براحة عجيبة. ثم استأنفا السير إلى أن أشرفا على قصر جميل، فقال الثور الأسود: "هناك سنقضي ليلتنا حيث يقيم أخي الأكبر".

وعند القصر رفعوها عن ظهر الثور، ونقلوها إلى الداخل، أما الثور فأخذوه إلى حقل ليمضي فيه ليلته.

وفي الصباح أعطوا الفتاة تفاحة جميلة، وأوصوها بألا تكسرها حتى تجد نفسها في ضيق لم يسبق لإنسان أن صادفه. وعندئذ تنقذها التفاحة منه، ثم حملوها إلى ظهر الثور الأسود.

وعاودا الرحيل بعيدا، حتى أشرفا على قصر أعظم وأجمل من القصر الأول، وقال الثور: "سنمكث الليلة هناك، حيث يقيم أخي الثاني". وعند القصر، أنزلوها وحملوها إلى الداخل، أما الثور الأسود فبعثوا به إلى حقل يقضي فيه ليلته. وفي الصباح أعطوها كمثراة شهية، وأوصوها بألا تكسرها إلا في وقت تشعر فيه بكرب لم يصادفه إنسان في العالم، فتنقذها الكمثراة منه، ثم رفعوها إلى ظهر الثور واستأنفا المسير حتى أشرفا على أروع وأعظم قصر صادفاه في رحلتهما، وقال الثور الأسود: "سنمضي الليلة هنا حيث يقيم أخي الأصغر".

وأنزلوها عن ظهره ومضوا بها الداخل، أما الثور فأرسلوه إلى حقل يبيت به. وفي الصباح أعطوها خوخه جميلة، وطلبوا إليها ألا تكسرها إلا أن تقع في مأزق لا قبل لإنسان به، فتنقذها الخوخة منه، ثم رفعوها إلى

ظهر الأسود، وعاودا المسير حتى بلغا واديا صغيرا مظلما، فتوقف الثور الأسود وسألها أن تهبط عن ظهره وتنتظره حتى ينازل الشيطان، وطلب إليها أن تجلس على حجر قريب، وحذرها من أن تحرك يدا أو قدما حتى يعود.. وإلا فلن يعثر عليها. وتطلع إليها بعينيه السوداوين الرقيقتين قائلا: "ولا تنسى ما سأقول.. لو تبدل لون ما حولك إلى الزرقة أكون قد صرعت الشيطان، أما لو استحال كل شئ إلى اللون الأحمر، فيكون قد غلبني".

وجلست الفتاة على الحجر، وصاحت في أثره: "لن أحرك ساكنا، وسأرتقب تحول الأشياء إلى الزرقة".

ومضى الثور الأسود إلى الغابة المظلمة دون أن ينظر خلفه، وبقيت الفتاة في جلستها ساكنة تماما مدة طويلة. وفجأة تحولت الأشجار والحشائش البرية والأزهار، وحتى أشعة الشمس فوق ورق الأشجار، تحولت كلها إلى الزرقة؛ فاستخفتها الفرحة بغلبة الثور الأسود على الشيطان، فأنستها وعدها وحركت قدميها، ورفعت كاحلا فوق الآخر.

ورجع الثور الأسود، وطفق يبحث عنها، ولكنه لم يستطع أن يعثر عليها.

وطال جلوسها، واشتد قلقها في ارتقاب الثور، ولكنها لم تره، وأخيرا نهضت من مكانها، وسارت على غير هدى، وإلى غير غاية، وقد أثقل الحزن قلبها، ومضت تجول في الوادي حتى أتت تلا هائلا من الزجاج،

حاولت أن تصعده فلم توفق، فسارت حول سفحه باكية حتى بلغت منزل حداد، فأخبرته بسبب ما ألم بها من حزن.

فقال لها الحداد: "لو قمت بخدمتي سبع سنوات، صنعت لك حذاءً من حديد بعينك على تسلق هذا التل".

وقبلت الفتاة هذا العرض، وأمضت في خدمة الحداد سبع سنوات، تمكنت في نهايتها من تسلق التل فوجدت نفسها قرب بيت الساحرة العجوز. وحدثها خادم الساحرة عن فارس شاب مقدام سلمها بضعة جوارب ملطخة بالدماء، ووعد بزواج من تقوم بتنظيفها، وإزالة الدماء عنها كائنة من كانت. وحاولت العرافة ذلك بنفسها حتى تعبت دون جدوى؛ فأرسلت الجوارب لابنتها التي أخذت تنظفها جاهدة بمساعدة أمها، ولكن لم تصب إحداهما نجاحا ما.

وقالت الفتاة للخادم "سأحاول هذا.."

وأخبر الخادم الساحرة بأمرها، فدعتها، وسلمتها الجوارب. وفي وقت وجيز وبقدر يسير من الماء أمكنها تنظيفها تماما. وعندما عاد الفارس الشهم، أبصرته الفتاة فأحبته، ولكن العرافة أخبرته بأن ابنتها هي التي غسلت الجوارب ونظفتها، فأجاب بأنه سيتزوج من ابنتها برا بوعده، وقد أذهل الفتاة ذلك، وذكرت التفاحة التي أعطاها أكبر إخوة الثور فكسرتها فإذا هي ملأى بالذهب والأحجار الكريمة. قالت لابنة العرافة: "أنزل لك عن هذا كله، لو تؤخرين زواجك يوما واحدا وتسمحين لي بالنظر إليه في

أثناء نومه". وقبلت الابنة، وأعدت الساحرة شرابا منوما قدمته للفارس الذي شربه غير عالم بما فيه، فلم يفق إلا صباح اليوم التالي، أمضت الفتاة الليل كله، باكية تغني:

من أجلك أنت خدمت سبع سنوات طوالا

ومن أجلك أنت تسلقت التل الزجاجي

ومن أجلك أنت غسلت الجوارب

فهلا استيقظت والتفت إليَّ.

واستبد الحزن بالفتاة في اليوم التالي، فكسرت الكمثراة التي قدمها إليها الأخ الثاني للثور فإذا هي ملأى بمجوهرات أثمن مما حوته التفاحة، وعرضتها لقاء ليلة ثانية في حجرة الفارس والشاب. وعادت العرافة فقدمت له السائل المنوم؛ فنام ثانية إلى الصباح، وأمضت الفتاة الليلة باكية تنشده نفس الكلمات، وكادت تفقد كل أمل.

وخرج الفارس للصيد في اليوم الثالث؛ فسأله أحد رجاله عن سبب ما ينبعث من حجرة نومه من بكاء وعويل، وأجاب الفارس بأنه لم يسمع أي صوت، وأصر الرجل على قوله، فعقد الفارس العزم على أن يظل ساهرا.

وفي هذا المساء، عندما قدمت له الساحرة شرابه، سألها أن تزيد من حلاوته، حتى إذا ما ذهبت لتحضر العسل، سكب الشراب، ولما رجعت إليه ادعى بأنه قد شربه.

وفي نفس الوقت كسرت الفتاة الخوخة التي أعطاها إياها أصغر إخوة الثور وكانت ملأى بأنفس ما رأت من جواهر، وقدمتها لابنة العرافة لقاء فرصة ثالثة تنظر فيها إلى الفارس وهو نائم، ودلفت إلى حجرته حيث كان يرقد في ضوء القمر متظاهرا بالنوم ، وعادت تنظر إليه باكية منشدة:

من أجلك أنت خدمت سبع سنوات طوالا

ومن أجلك أنت تسلقت التل الزجاجي

ومن أجلك انت غسلت الجوارب الملطخة بالدماء

فهلا استيقظت والتفت إليّ.

وسمع الفارس، والتفت إليها، وهب جالسا، وقص عليها أن العرافة العجوز كانت قد سحرته في هيئة "نورو واي" الأسود، وأخذ يحدثها بما وقع له، وحدثته هي بما وقع لها، ثم تزوجها، ومازالا يعيشان في سعادة إلى اليوم.

ويلز

آرثر في الكهف

في وقت متأخر من أصيل أحد الأيام، كان "مارتش" أحد رعاة مقاطعة "ويلز" في المملكة المتحدة، يسير على جسر لندن وهو يحمل عصا من شجر البندق، وكان قد نزل بمدينة لندن ليبيع قطيع من ماشية "ويلز" السوداء عهد سيده بها إليه. واستطاع الفتى أن يبيع الماشية بثمن طيب، وخبأ النقود التي قبضها لحساب سيده في طيات ملابسه بعناية تامة خشية ضياعها، ووضع ما يخصه من نقود في جيبه، فكان يسمع رنينها مع حركة ملابسه في أثناء السير، وكان سعيدا برؤية الحوانيت على الجسر، وبمنظر غروب الشمس في ماء النهر الجاري.

ثم وقف أمام محل من محلات بيع الفطائر، وقد أطبق بيديه على عصاه، يراود نفسه في شراء بعضها، وحين التفت رأى رجلا يطيل النظر إلى عصاه، فشد بقبضته ونسي الفطائر. وتوجه إليه الرجل وسأله: "من أين قدمت أيها الفتى؟" فأجاب "مارتش"، وقد توجس خيفة، وشاب صوته الغضب: "من بلدتي"، وبدا الرجل طامعا في العصا، وما كان ذلك بالأمر الهين. وقال الرجل: "أرجو ألا تغضب من أسئلتي. هل تذكر المكان الذي قطعت منه هذه العصا؟"

وسأل الفتى مرتابا: "وماذا يهمك من مكانها؟".. وقال الرجل: "لذلك أهمية عظيمة؛ فهناك كنز عظيم مدفون قرب المكان الذي قطعتها منه، ولو أنك أخذتني إليه لأريتك من الثراء ما يكفل لك الرخاء بقية عمرك".

وهنا أيقن أن الرجل ساحر؛ فاهتزت عصاه في يده، ورغم الأمل في الكنز والثراء، فإنه كان يخاف السحر وشياطين الظلام. وبعد جهد استطاع الرجل أن يغريه على مرافقته إلى المكان الذي قطع منه عصاه.

وقال "مارتش" على كره منه، وبوده لو بقي على جسر يأكل الفطائر ويمتع عينيه بنظر الحوانيت على جانبيه: "هيا بنا إذن". وسار الفتى والساحر إلى حيث الشجرة، وأشار إلى جذرها قائلا: "من هنا قطعت عصاي".

وأومأ الساحر برأسه ثلاث مرات وقال: "والآن علينا أن نحفر"، واستعار "مارتش" مجرفين من مخزن أدوات سيده، وأخذا يحفران بجوار الشجرة حتى بدت لهما قطعة من الحجر عريضة مستوية.

رفع الساحر الحجر، فظهرت درجات حجرية تؤدي إلى أسفل، وتبعه "مارتش"، وسارا في ممر طويل انتهى بهما إلى باب كبير. ووقف الساحر، وأخذ يمعن النظر في "مارتش" قائلا: "ألديك من الشجاعة ما يساعدك على متابعة السير معي؟".. وضغط "مارتش" على عصاه التي كانت ترتجف في هذه اللحظة لدرجة آلمت ساعده، وسرت في كيانه رعشة قصيرة ولكنه

قال: "سأسير معك".. وجذب الساحر الباب فانفتح وظهر أمامهما كهف فسيح يشيع في أرجائه بريق أحمر اللون، وبلغا في سيرهما "ناقوسا" ضخما. قال الساحر: "حذار أن تلمسه". قال "مارتش": "ولم لا؟".. قال الساحر: "أتود أن تموت؟" قال "مارتش": "لا".. قال الساحر: "إذن تابع السير"

ولما أوغلا في الكهف تبين "مارتش" أن به آلافا من الجند، وكان كل واحد منهم عليه درع لامع، وتغطي رأسه خوذة حديدية، وقد دس ذراعه في ترس ذي بريق يخطف الأبصار وفي يده سيف، وكلهم في سبات عميق!!.. وحملق "مارتش" متعجبا. وتوسطت الكهف مائدة كبيرة مستديرة، جلس حولها المحاربون الذين تنطق جسومهم الرائعة التكوين، وملامحم النبيلة، ودروعهم التي تحمل شارات الشرف، بأنهم ليسوا في الطبقة العادية، وكانوا جميعا مستغرقين في سبات عميق أيضا.

وعلى الجانب الآخر من المائدة المستديرة، استوى على عرش من الذهب، ملك قوي، ضخم الجسم، على ملامحه آيات من البطولة والرحمة، وبيده سيف رائع رصع مقبضه وغمده بالأحجار الكريمة، وعلى رأسه تاج مرصع بالجواهر اللامعة كالكواكب، وقد عقد النوم جفونه.

ولم يصدق الفتى عينيه وقال في دهشة بالغة: "إنهم نيام!!؟"، وأجاب الساحر: "نعم.. ولكن إن لمست الناقوس هبوا من نومهم".. وسأل "مارتش" وعينه تختلج: "وهل مضى وقت طويل على نومهم؟".. وأجاب

الساحر: "أكثر من ألف سنة"، وقال "مارتش" وهو يتعلق بعصاه: "ومن هم؟"

ونظر الساحر إلى الفتى مبتسما: "إنهم جند الملك آرثر يرتقبون اللحظة التي يدمرون فيها كل أعداء "سيمري" cymryويستعيدون الساحل، وينصبون ملكهم ثانية في كبيرليون "caerlleon"

وأرسل "مارتش" طرفه إلى وسط الكهف وسأل: "ومن الجالسون حول المائدة المستديرة؟"، وأجاب الساحر: "فرسان آرثر".. وقال "مارتش" في صوت خفيض: "والجالس على العرش الذهبي؟".. قال الساحر: "آرثر نفسه وذلك سيفه "أكسكاليبر Excalibur" وأحس "مارتش"، وهو يحدق في آرثر وفرسانه بقلبه يكبر في جوفه وبنفسه وكأنها رجعت آلاف السنين إلى الوراء.

ونفد صبر الساحر، فأسرع إلى الذهب الوافر الملقى على أرض الكهف، وجمع منه بقدر ما يستطيع أن يحمل، وطلب إلى "مارتش" أن يحذو حذره، فأخذ "مارتش" من الذهب ملء قبضة يده ودسه في جيبه، وتبعه إلى الباب.

وقد أخذ بمنظر هؤلاء المحاربين الذي لا يحصرهم العد، وهم نيام وبجوارهم عدتهم الحربية اللامعة، وتمنى لو رآهم أيقاظا، وما أن بلغ مكان الناقوس البرونزي، حتى تردد قليلا، ثم قرعه بعصاه وما كاد يفعل حتى دوى صوته في أرجاء الكهف، وشهق "مارتش" عندما رأى آلاف المحاربين

يهبون في الحال على أقدامهم ومادت الأرض تحتهم، وعلا صليل أسلحتهم. وانبعث صوت جهوري من وسطهم يسأل: "من يدق الناقوس؟. وهل حان اليوم؟".. وصاح الساحر وقد تملكه الفزع: "كلا.. لم يحن بعد.. استمروا في نومكم"

ومضى "مارتش" يرقب في دهشة، الجيش القوي، وقد دبت فيه الحركة، والتمعت أسلحته الفولاذية، وعاد الصوت يقول: "آرثر.. آرثر.. آرثر العظيم.. لقد دق الناقوس وبزغ ضوء النهار". وصاح الساحر: "كلا.. يا "آرثر" الأكبر فما زال الليل مخيما، فنم"

ونهض "آرثر" واقفا على عرشه الذهبي، ولآلئ تاجه ترسل أضواءها على جيشه وكأنها الكواكب اللامعة، وقال في صوت قوي عذب كأنه خرير آلاف الأمواج: "أي جنودي.. لم يحن بعد اليوم الذي يتقاتل فيه النسر الأسود والنسر الذهبي، لقد دق الناقوس أحد الباحثين عن الذهب، فاستمروا في نومكم، فإن فجر نهضة "ويلز" لم يبزغ بعد".

وسادت الكهف زفرة هادئة، ونام الجند، وعقد النوم جفون "آرثر" الأكبر مرة أخرى، وكان "مارتش" قد دس يده في جيبه وأخرج الذهب وتركه خلفه في كهف "آرثر" ولما أعاد الحجر ثانية إلى مكانه، كان الساحر قد اختفى، وعاد "مارتش" إلى سيده، وقلبه مأخوذ بما رأى، وفي يده عصاه التي استخدمها بقية عمره السعيد.

بولندا

القديس ستانيسلو والذئب

كانت الحيوانات في الزمن القديم تستطيع الكلام، وكان في بولندا – في ذلك الوقت – رجل ورع هو "القديس ستانيسلو st.stanislaw" كان يقيم في كوخ صغير بإحدى الغابات الكثيفة، وكان رقيق القلب، شديد العطف على المخلوقات جميعا، مما جعل حيوانات الغابة كلها: من الأسد والدب، إلى الأرنب والسنجاب، تأنس به، وكثيرا ما كانت تقف معه تبادله الحديث، فيصغي إليها في صبر وعطف، ويخلص لها النصح، فخصته بالكثير من حبها، ورأت فيه صديقها الصدوق.

وذات صباح مشرق، وهو يسير في الغابة مصغيا إلى الطيور في تغريدها، مرددا صلواته، قصد إليه ذئب أغبر كبير وقال وهو يعلق يده: "طاب صباحك أيها القديس"، وأجاب القديس: "وصباحك.. أيها الأخ الأغبر، ألا تراه صباحا جميلا؟".. وفال الذئب وقد شاب صوته شئ من الأسى: "نعم.. أظنه كذلك". فقال القديس: "يبدو صوتك حزينا.. فما بك؟"، وأجاب الذئب: "ليس من هم كبير، ومع ذلك فلا أكاد أكف عن التفكير فيه" فقال القديس: "في أي شئ؟".. قال الذئب: "في الطعام؛ فقد تذوقت في حياتي أنواعا كثيرة من اللحم، كالحمل والعنز والخراف، وعندما

كبرت وتوافرت لي القوة الكافية أكلت لحم الوعل والحصان، ولكني لم أذق إلى الآن لحما آدميا، على حين يصفه ابن آوي بأنه طري حلو؟"

قال القديس: "إن ابن آوي مخطئ، فاللحم الآدمي ذو مرارة وخشونة، وحري بك ألا تفكر في أن تقربه"

وهز الذئب رأسه الأغبر قائلا: "أنا واثق من أنك مخطئ أيها القديس العظيم، وإلا فلماذا يدعي ابن عمي، ابن آوي، أنه حلو إذا لم يكن كذلك؟ إنه يقول إن اللحم البشري لذيذ"

قال القديس ستانيسلو: "يجب أن تتحرى السبب، إن ابن عمك ذو دهاء، ويود أن يصرفك عن اصطياد الحملان والغزلان، فلا تعبأ بما يقول"؛ فقال الذئب: "يبدو قولك معقولا، ومع ذلك فأرجو أن يسمح لي هذه المرة فقط أن أتذوق لحم البشر". وقال القديس: "ستندم إن فعلت".. وأجاب الذئب: "لست أبالي شيئا؛ فإني أود إشباع شهوتي مرة واحدة في حياتي".. وأخيرا قال القديس: "فليكن ما تريد، إني آذن لك بأن تلتهم واحدا من البشر، ولكن بشرط ألا يكون صبيا صغيرا يتأبط كتبه في طريقه إلى مدرسته، أو شيخا ابيضت رأسه ولحيته مثلي، والإنسان الوحيد الذي أسمح لك بأن تأكله يجب أن يكون "حدادا" فاذكر ذلك"

فقال الذئب وهو يتلمظ بشفتيه: "سأذكر ذلك، أيها القديس العظيم"..

ومضى بين الأدغال حتى بلغ الطريق؛ فجلس عند حافته ينتظر الحداد، وظل يرسل طرفه في كل اتجاه، وينصت، ولاح له إنسان مقبل على الطريق، فراح يتشمم الهواء وصاح: "من أنت؟".. وكان طفلا يتأبط كتابه، فأجاب بقوله: "ألا تراني صبيا صغيرا أحمل كتاب هجاء في طريقي إلى المدرسة؟".. قال الذئب: "أسرع إذن وإلا تأخرت، فصبية المدارس لا يصلحون لشئ"، وعاد يرتكز على مؤخره مرتقبا، وقد أخذ منه الجوع كل مأخذ. ودار ببصره في كل اتجاه، وأخذ يصغي، ولاح له إنسان مقبل على الطريق، ومد الذئب أنفه، وصاح: "من أنت؟" وكان شيخا ابيض شعره ولحيته، فأجاب: "إنني رجل عجوز في طريقي إلى القرية المجاورة لأصلي بالكنيسة".. وقال الذئب: "يرعاك الله إذن ويبلغك الكنيسة سالما.. إنني أرتقب شخصا آخر"، وعاد يرقب ويصغي، وتبين إنسانا قادما على الطريق؛ فأخذ يحد من أسنانه ثم صاح: "من أنت؟" وكان حدادا شابا جريئا يرتدي سترة صغيرة من الجلد، ويمشي على الطريق مرسلا صفيرا من بين شفتيه؛ فأجاب "ألا ترى أنني حداد؟. ولكن ماذا ترتقب هنا؟" فكشر الذئب عن أنيابه وهو يقول: "أرتقبك لآكلك أيها الحداد".. وسأل الشاب: "ولماذا؟" فأجاب الذئب: "لأنني جوعان، وقد قال لي القديس "ستانيسلو" أنه ينبغي أن آكل حدادا"؛ فقال الحداد: "إذن فلتدعني يا صديقي الذئب أغتسل في هذه البركة وراء الأشجار قبل أن أموت، فقد سود "السناج" وجهي، وذراعاي وشعري يعلوها الرماد المتناثر من الكور"؛ فقال الذئب "هيا اذعب واغتسل، ولكني أرجوك أن تسرع لأنني جوعان جدا، وإياك أن تحاول الهرب، وإلا مزقتك إربا".. وأجاب الحداد وعلى

شفتيه ابتسامة صفراء: "لست أشك في ذلك، وسأسرع ما استطعت" واندفع إلى البحيرة خلال الأشجار، وفي سرعة اقتلع "هراوة" ضخمة خبأها تحت سترته، ومضى يضرب الماء بيديه الكبيرتين محدثا جلبة عالية، ثم يحك بهما وجهه الملوث المرة تلو المرة حتى نظفه تماما، ثم أسرع إلى الطريق قائلا: "يا صديقي الذئب.. إني مستعد.. ولكني أقطر ماء.. فهلا أذنت لي أن أجفف وجهي ويدي في شعرك الطويل؟"؛ فقال الذئب: "لشد ما يضايقني أن يبتل فروي.. وعلى أي حال فما دمت سألتهمك الآن؛ فلك أن تجفف نفسك مرة في فرو ذيلي"، واستدار له.

وما كاد الذئب يفعل ذلك، حتى أسرع الحداد إلى ذيله الغليظ فلفه بإحكام ثلاث مرات حول معصمه القوي، وأخرج "الهراوة" الثقيلة، وانهال بها على الذئب يضربه حتى رقد على الطريق وهو بين الحياة والموت، ثم ألقى بها بين الشجيرات ودس يده في جيبه وسار في طريقه مرسلا صفيره في مرح.

وبعد ساعات من ذلك أفاق الذئب، وأخذ يجر نفسه عائدا إلى الغابة، وهو يحس الألم في جميع مفاصله، وكان يعوي متألما وهو يعرج في طريقه، وكان يعاني من آلام الفكر والجسم معا. وتناهى إلى سمع القديس "ستانيسلو" في كوخه الصغير العاري عواء الذئب الجريح، فخرج لفوره يبحث عنه، ليمد له يد المساعدة؛ فوجده جالسا على بقعة يكسوها الطحلب، وهو يلعق فخذه اليسرى الخلفية، وينشج نشيجا خافتا. وسأله القديس في شفقة: "ماذا حدث أيها الذئب؟"، فقال الذئب وهو يبكي:

"أوه.. أيها القديس العظيم، إن اللحم الآدمي مرير لدرجة مفزعة، له مذاق الحنظل والشيح.. أوه.. إني جريح". وقال القديس وهو يخفي ابتسامته: "أله كل هذه المرارة؟"؛ فقال الذئب وهو يرتجف: "إنك لا تعرف.. بل ولا تستطيع أن تعرف.. فما أطيب لحم الحمل والغزال.. أما لحم الحداد!!"

وسأل القديس: "وما طعمه؟.. ادن مني لأضمد جراحك"، وقال الذئب في رجاء وهو يعرج ناحية القديس: "أوه.. لا تذكره ثانية أمامي". ومسح القديس بيده خلف أذن الذئب وهو يقول ضاحكا: "طب نفسا يا صديقي.. فلن أذكره ثانية".

المضحك الذي خدع الملك

يحكى أنه كان في سالف الزمان، عندما كان الملك "جان Jan" متربعا على عرش بولندا، كان يقيم بالقصر الملكي، مضحك "ماتنكو Matenko"، وكان "ماتنكو" قبل أن تعدو عليه عوادي الكبر، فتيبس أوصاله، وتذهب بحدة ذكائه – المضحك المحبوب في بيت الملك "جان"، وكان يدخل السرور دائما إلى قلب الملك والملكة والسادة والسيدات، بطرفه وفكاهاته، ولكنه بعد أن كبر فقد هذه الميزة، وصار النبلاء يقابلون أعماله بالملل، وتكررت شكاياهم منه، فأرسل إليه الملك يعفيه من خدمته.

ودنا هذا العجوز متثاقلا من الملك بسبب ما يحسه في عظامه من آلام وفي قلبه من حسرة، ومال بركبتيه ذاتي اللونين الأحمر الأرجواني، ولعظامه صريف ود معه لو أنه لفظ أنفاسه في هذه اللحظة هناك.

وتنهد الملك وقال في حزن: "يا مضحكي العجوز العزيز.. لقد قضيت عمرك وأنت المضحك المرح، ولكن الشيخوخة أدركتك في النهاية، فاخلع عنك أرديتك المضحكة، ولتعد مواطنا عاديا". وتنهد الملك للمرة الثانية وأصلح من وضع تاجه على رأسه، وعاد يقول: "لقد اشتريت منزلا صغيرا بالقرية لك ولزوجتك "إلزونيا"، ويؤسفني يا "ماتنكو" أن أقول أني لا

أستطيع أن أمدك إلا بالقليل لتعيش به، فالحفلة الراقصة التي أقيمت أخيرا بالبلاط تكلفت نفقات باهظة، وتكاد الخزانة تكون خاوية"

وأجاب "ماتنكو" بقوله: "إني مدرك ذلك يا صاحب الجلالة"، وحرص على أن ينحني وهو يبرح القاعة الملكية دون أن يسمع لعظامه صريف. وخلع ثياب المضحك الزاهية وقبعته الهزلية ذات أذني الحمار، وصديره اللامع، وقدم ذراعه لزوجته "إلزونيا" وأخذا طريقهما إلى القرية ليقضيا ما بقي لهما من حياة في الكوخ الصغير الذي منحهما إياه الملك. وبعد وقت قصير أصبح الزوجان معدمين إذ لم يكفهم القليل الذي أمدهم به الملك..

ولم يكن ثمة عمل يعمله الزوجان، وكان "ماتنكو" يود لو واتته فرصة للعمل، ولكن من يستخدم رجلا عجوزا لا يعرف شيئا سوى أن يتصرف كالحمقى. وعضهما الجوع بنابه، ولم يكن لديهما من النقود ما يشتريان به خبزا، فظلا آناء الليل وأطراف النهار يفكران في فقرهما حتى ملأ اليأس نفسيهما، وفي إحدى الليالي، التفت "ماتنكو" إلى زوجته قائلا: "إلزونيا يا عزيزتي.. هل أنت نائمة؟"؛ فأجابت: "كلا يا ماتنكو". قال لها: "لقد خطرت لي فكرة، تذهبين في الغد إلى الملكه فتخبريها بأنني قد مت، ولكن عليك قبل أن تذهبي أن تحمري عينيك ببصلة نيئة". قالت إلزونيا: "أوه.. إني فاهمة".

وفي الصباح التالي مثلت أمام الملكة بعينيها المتورمتين، كما لو كانت قد أمضت وقتا طويلا في بكاء مرير، وسألتها الملكة وقد استولى عليها القلق: "يا عزيزتي "إلزونيا" ماذا يحزنك إلى هذا الحد؟"، وأجابت "إلزونيا" وهي تنشج: "يا أرحم الملكات.. لقد مات زوجي في الساعة الحادية عشرة من مساء أمس؛ فكيف أقوى على الحياة بعده؟"

وقالت الملكة راثية حالها: "أوه.. يا لك من مسكينة.. إنني لشديدة الأسف.. وإنني لأدرك ما أشعر به لو حل بالملك أي مكروه.. خذي هذا.. فقد يعينك على أن تعدي لمضحكنا العجوز جنازة تليق به، وسيتبقى لك بعد ذلك شئ يعينك على الحياة" وناولتها كيسا صغيرا مطرزا أزرق اللون به خمسون قطعة ذهبية.

وعادت إلزونيا إلى البيت ضاحكة، وأعطت ماتنكو منحة الملكة وهي تقول: "لقد كان الأمر سهلا يا حبيبي.. ومما يؤسف له أنك لا تستطيع أن تموت كل يوم" وضحكت في خفة لما قبَّلها زوجها. وقال زوجها: "والآن.. إنه دورك لتموتي، ففي الغد أذهب إلى الملك فأخبره أنك تركتني وحيدا"، ثم قبَّل زوجته العجوز قبلة ثانية يتبارك بها.

وفي اليوم التالي تكلف سمات البؤس والحسرة، وخرج إلى القصر، وما أن انحنى أمام الملك حتى أن أنينا مؤلما، وأخذ كتفاه يهتزان وهو ينشج. وقال الملك في لهجة تذوب عطفا وحنانا: "أوه.. يا مضحكي العجوز.. أي مصيبة حلت بك؟" وأجاب "ماتنكو" وهو يمسح جبينه: "أيها الملك

الرحيم.. لقد استودعت زوجتي العزيزة الله روحها هذا الصباح وأنا وحيد في الدنيا.. ولا مال لدي" وقال الملك في رقة: "يا مضحكي المسكين.. خذ هذا الكيس، ولا تحزن على هذه الصورة اليائسة.. إني أدرك ما يمكن أن أحسه لو حل بالملكة مكروه".

ولما بلغ "ماتنكو" الكوخ، وأفرغ ما حواه الكيس من نقود على المائدة؛ تبين أن الملك قد أعطاه مائتي قطعة ذهبية. وقال وهو يطوق زوجته بذراعه: "يا زوجتي العزيزة.. إن عطف الملك كما ترين يساوي أكثر من عطف الملكة.. ولدينا الآن مائتان وخمسون قطعة ذهبية؛ فلن نحس الجوع بعد ذلك، ويحسن بنا أن نرقد على الأرض متظاهرين بالموت فيما لو جاء الملك والملكة ليتحققا من موتنا".

وراحا يضحكان وهما يغطيان وجهيهما بكيس من أكياس الدقيق، وتمددا على أرض الكوخ العارية، وسحبا على جسديهما ملاءة قطنية. وقال "ماتنكو" وهو يحاول أن يكسب ملامحه طابع الموت: "كفي عن الضحك"؛ فأجابت: "بل تكف أنت.. إنك تجعلني أنفض كل ما على وجهي من دقيق". ورقدا هادئين.. بعد أن ثبتا شمعة موقدة عند رأسيهما، وأخرى عند قدميهما.

وفي هذه الأثناء كانت تجري بالقصر مناقشة لطيفة؛ فقد أعلنت الملكة أن المضحك العجوز قد مات، وأصر الملك على أن الذي مات لم يكن المضحك، وإنما زوجته، واستمرت المناقشة بينهما في شد وجذب

دون أن يتفقا.. وأخيرا اقترح الملك أن يذهبا إلى الكوخ ليقفا على الحقيقة بنفسيهما، وقبلت الملكة، وأمرا بإعداد العربة الملكية.

ولما بلغا البيت، وجدا المضحك العجوز وزوجته ممددين على الأرض تحت ملاءة بيضاء وشموع الموت تضئ، عند رأسيهما وأقدامهما، وتبادل الملك والملكة النظرات وفاضت عيونهما بالدموع، وصليا من أجل روحي "ماتنكو وإلزونيا" الراحلين.. ومسحت الملكة عينيها، وسعل الملك بصوت مرتفع.. ولما هما بمبارحة المنزل الصغير قال الملك للملكة : "إني أعجب أي العجوزين مات أولا"، وانبعث صوت المضحك من الأرض يقول: "الحقيقة يا ملكي المحبوب أن زوجتي ماتت أولا، ولكني كنت ميتا من قبل".. وقال الملك ضاحكا: "أيها الوغدان.. انهضا في الحال وخبراني بما تقصدانه من هذا الخداع".

وتردد "ماتنكو" في البداية، في أن يطلع الملك على ما وصل إليه هو وزوجته من فاقة، ولكن الملك كان قد أدرك الحقيقة، وتحقق من أنه هو الملوم، وناول "ماتنكو" كيسا آخر به مائتا قطعة ذهبية، وطلب منه أن يعده بألا يستخدم ذكاءه مرة أخرى في أمور غير مشروعة، وقد وعده المضحك بذلك وهو يكتم ضحكه.

الصين

العلم عند الآلهة

كان الحصان المقدس (حرونا) في ساحة المعبد، وكان يحدق في فتاة صغيرة ذات وجه نحيل وعليها خرق بالية، وقفت ترمقه من بين القضبان. وقال الحصان في غضب: "لقد عاود الخادم الوغد سرقة كعكتي المصنوعة من الفول.. وأنا الحصان المقدس لست أدري أي مصير ينتظرني"!.

ومدت الفتاة يدا صغيرة قذرة من بين القضبان وهي تقول: "لك أن تأخذ خبزي، عساه يخفف من وطأة جوعك". فأدار الحصان المقدس عينيه في ارتياب في كسرة الخبز الخشن التي قدمتها الفتاة إليه، وقبلها، ووجدها لذيذة الطعم وابتسمت له عينا الفتاة السوداوان.

وفي تجهم ودون أن يوجه إليها كلمة شكر سألها: "من أنت"؟.. وأجابت الفتاة في رصانة "لست أدري.. وأحسبني هبطت من القمر". ولم يتمالك الحصان نفسه من الضحك وعاد يسألها: "ولكن.. من يرعاك؟". وأجابت الفتاة: "أنا". "كم تبلغين من العمر؟". "تسع سنوات.. وأنام في أي مكان.. في الحقول.. أو في ظل الأشجار.. أو في المعبد حين تمطر السماء.. وأحيانا أشعر بالوحدة حتى لأتمنى الموت".

ورأى الدموع تترقرق في عينيها الرقيقتين؛ فابتلع ما تبقى من الخبز واختلجت عيناه وقال في سرعة: "لا تبكي يا طفلتي؛ فقد كنت أفكر في هذه اللحظة.. كيف يختلف شعورنا.. أنت وأنا نحو هذه الحرية التي تنعمين بها؛ فمنذ خمسة عشر عاما وأنا حبيس هذا المعبد، ووددت لو أجوس خلال الديار متنقلا من مكان إلى آخر، وأنام في الحقول وفي ظلال الأشجار كما تفعلين".

ومسحت الفتاة عينيها بقبضة يدها القذرة، وحملقت فيه دهشة وقالت: "أتود ذلك"؟.. فقال الحصان: "بكل تأكيد أود ذلك؛ فها أنا حبيس في ساحة المعبد ليحدق فيّ الحمقى مؤمنين بقداستي". فقالت الفتاة: "ولكن ألست كذلك؟" وهز الحصان رأسه قائلا: "ليس لي من القداسة نصف ما لك يا عزيزتي. يا من أعطيتني كسرة خبزك".

واعترضت الفتاة بقولها: "حسبتك تطيب نفسا بذلك، وبرؤية الناس يعبدونك.. ويحرقون البخور لاسمك".

وقال الحصان مؤكدا "إني أكره ذلك، وإن كنت أقر بأن رأسي قد دار وأنا مهر صغير وداخلني الغرور برهة لمنظر الناس وهو يصلون لي وينحنون أمامي، ولكن لم ألبث أن بلغت من العمر ما يجعلني أمقت ذلك".

وهزت الفتاة رأسها في رزانة وقالت: "لا ينطوي الغرور على كثير من الإدراك".

وأمَّن الحصان على رأي الفتاة وهو يخفي ابتسامته، ثم تنهد قائلا: "ومن ثم نفد صبري ولم أطق البقاء حبيسا.. وقد حاولت الهرب مرتين، ولكن سجاني أمسكوا بي، فأضربت عن الطعام حتى ينتهي بي الجوع إلى الموت، ولكن بعد أن عضني الجوع بدا لي ما في ذلك من حماقة". ثم أضاف في عنف: "والآن.. اعتاد هذا الوغد سرقة كعكتي غير عارف أني أستطيع أن أركله".

واسترسلت الفتاة في حديثها قائلة: "وعلى الرغم من ذلك، فما زال لديك من الطعام أكثر مما لدينا نحن الفقراء، وإني ليسعدني أن أحصل في ثلاثة أيام على ما يقدمونه إليك في وجبة واحدة". وقال الحصان وقد استغرقه التفكير: "أوه.. حقا.. إذن سأخبرك بما نعمله، فلنتبادل مكانينا". "ماذا تقول؟"؛ فقال الحصان ضاحكا: "لا أقصد أن تصبحي حصانا وأصبح فتاة؛ فذلك مستحيل. ولكن لو أنك تأتين إليّ هنا الليلة وتدعينني أذهب، إذن لأمكنك أن تحلي محلي، فتتيسر لي الحرية التي أتوق إليها كثيرا، وتنعمين أنت بعبادة الناس لك وإطعامهم إياك".

وقالت الفتاة وهي تلهث: "ولكن ألا يقتلونني لتركي إياك تذهب وإدعائي القداسة؟"

قال الحصان: "سبق أن قلت لك أن لك من القداسة مثل ما لي، وعندما يرونك سيدعون أن معجزة من معجزات الآلهة قد حلت"، وسألت الفتاة وعيناها تلتمعان: "ومتى تريدني أن أحضر"؟

وقال الحصان، وقد أحس بالسعادة تغمره: "عند منتصف الليل، وعندئذ يكون في استطاعتي أن أبعد عن هذا المكان قبل الفجر، إلى حيث لا يعرف الناس أني الحصان المقدس، ومن ثم أسير وأواجه الحياة ومخاطرها".

وفي المساء، بعد أن بزغ القمر، واقترب منتصف الليل، أسرعت الفتاة إلى المعبد، وعثرت على مربط الحصان المقدس. وكان الحصان يرتقبها في قلق؛ فقال: "لقد خشيت ألا تحضري". "لقد وعدت بالحضور، ولكن ماذا أنا قائلة لو وجه إلى الكهنة والناس أسئلة ما؟". وأجاب الحصان: "رددي في بساطة "الآلهة تعلم".. ثم الزمي الصمت واظهري بمظهر التعقل.. وعندئذ سيوقنون بأن حصانهم المقدس قد استحال إلى آلهة، ثم هاك صندوق به أقمشة حريرية رائعة هي زينتي في المناسبات الرسمية.. ضعها حول جسمك حتى لا تظهر أسمالك البالية"

فقالت الفتاة الصغيرة: "إنك لكريم جدا، ومفكر" ثم أزاحت القضبان وأطلقت سراح الحصان وقالت له: "أينما ذهبت فاذكر أن لك صديقة وحيدة تفكر فيك دائما، وإذا تعبت فعد ثانية وسأعمل على راحتك"، ثم ربتت على عنق الحصان في رقة بقدر ما سمح لها طولها.

وحك الحصان أنفه في خدها النحيل مودعا، وانطلق يعدو من بوابة ساحة المعبد، وأعادت الفتاة القضبان إلى مكانها، وتدثرت بالأقمشة

الحريرية، وتمددت لتنام وهي تفكر بعمق في الحصان المقدس متمنية له السعادة في حله وترحاله.

ولم يمض غير قليل حتى أفاقت فجأة على صوتين غليظين يتحدثان خارج قضبان المربط المقدس. قال أولهما في خشونة: "لا يهمني إن كان هذا هو الحصان المقدس، فكل ما يعنيني من أمره أنه يستطيع العدو، فالمسروقات من بيت الحاكم ثقيلة.. علقها على الحصان فنجتاز به الوادي قبل أن يقبض علينا".

"ولكن ماذا يحل بنا إذا ضبطنا فوق الحصان المقدس؟"

قال صاحب الصوت الأول لصاحبه غاضبا: "لا تخش شيئا من هذه الناحية، فالحصان لا يتكلم، وقليل من العدو في الريف لا يضيره"، وسعل اللص ثم قال: "هيا بنا، ولنبدأ وعلى أي حال، فمن يعلم بالأمر؟"

وانطلق صوت واضح عذب يقول: "الآلهة تعلم" وفي ارتياع التفت اللصان فبصرا بشبح ضئيل يتشح بأردية الآلهة، ووجه جميل فيه عينان سوداوان تنفذان بنظراتهما إلى أعماق نفسيهما، فصاحا في فزع وألقيا بسليهما وفرا في الظلام.

وضحكت الفتاة الصغيرة فرحة بما فعلت. وأخذت تجذب وتجر حتى تمكنت من أن تسحب الصندوق الثقيل الذي يحوي كنز الحاكم، وفتحته ونثرت في ضوء القمر ما به من حلي من الفضة والذهب وحجر البشم

والعاج الثمين، وأخذت تتفرس في جمال لم تكن تحلم بمثله في حياتها القصيرة، ثم رقدت في ضوء القمر وهي تمتع عينيها بهذه العجائب، حتى غلبها النوم ثانية.

وعندما استيقظت كان الوقت ضحى، وكانت الساحة ملأى بأناس قد حملت أبصارهم فيها. وفي مقدمة هذا الحشد وقف الحاكم نفسه في كامل أرديته اللامعة يحملق فيما يرى من معجزة وجود هذه الطفلة حيث كان يجب أن يكون الحصان المقدس. ونقل بصره منها إلى كنزه المسروق المنشور على الأرض، ثم سألها في صوت تغلب عليه الرهبة: "من أين جئت يا طفلتي؟". وفي وقار أجابت الفتاة: "الآلهة تعلم". وسأل الحاكم: "ولكن أين الحصان المقدس؟"، وأجابت ثانية: "الآلهة تعلم". فشحب لون الجنود من حرس الحاكم، وخر كثير من القوم ساجدين وهم يرددون "آلهة!! إنها آلهة!!".

وأشار الحاكم إلى نفائسه بيده المرصعة بالجواهر قائلا: "لقد سرقت هذه من قصري في الليلة الماضية، فكيف وصلت إلى هنا؟" وعادت الفتاة تقول وهي تتفرس بإمعان عينيه "الآلهة تعلم".. صاح الحاكم: "حقا إن الآلهة بكل شئ عليمة، وما هذه إلا معجزة من صنعها"، وخرَّ هو وأتباعه من فورهم ساجدين، وعفروا الجباه على الأرض أمام الفتاة الصغيرة الجالسة في مربط الحصان المقدس.

ونادى بها القوم ربة للمحتاجين ترد المسروق والمفقود إلى أصحابه، وأخذوا يقصدون إليها ويصلون لها حتى ترد لهم ما سرق منهم أو فقد. وشيدوا لها قصرا عظيما منيفا، وسعوا إليها كل يوم ليتعبدوا، ولم تنس الفتاة الصغيرة الحصان وودت لو أنه كان بجانبها يشاركها عظمتها، ورجت أن يكون سعيدا بحريته في هذا العالم.

ومضت عشرة سنوات، وبلغت الفتاة مبلغ النساء، ولكنها كانت على الرغم من ثرائها وما يحيطها به الرجال، من ضروب الاحترام والتبجيل، وحيدة تعوزها السعادة؛ إذ لم يكن لها صديق.

وفي إحدى الأمسيات، بينما هي تتنزه في حديقتها الداخلية التي يغمرها القمر بضوئه، أتاها خادم فجاء بين يديها قائلا: "يا أرحم الربات.. لقد وقع أمر عجيب عند البوابة الخارجية؛ فمنذ ساعة سمعنا جلجلة، ولما فتح الحارس الباب، وجد حصانا عجوزا أبيض اللون بلا راكب يعلوه يحاول الدخول، فطرده بعيدا، ولكن الحصان عاود الطرق، وكلما اشتد الحارس في ضربه، عاد ثانية يريد الدخول"

قالت الفتاة: "دع الحصان يدخل، فحتى الحيوان يجب ألا يحرم مقابلتي له" وعاد الخادم ومعه حصان عجوز أبيض اللون وقد أمسك بمعرفته، وقد تدلى رأس الحصان واضطربت خطاه، وصرفت الفتاة الخادم ثم التفتت إلى الحصان المتعب. قالت له: "لقد عدت ثانية أيها الحصان المقدس.. إني لمدينة لك بكل هذا التكريم والجلال".

وفي صوت ينم عن قلب كسير أجاب الحصان: "نعم.. عدت، أتيت أسألك ركنا بإحدى حظائرك حيث أموت قريبا من السيدة الوحيدة التي أعبدها". فنظرت إليه في رثاء وقالت "ولكن.. ألم تستمتع بالحرية التي طالما تقت إليها؟". وفي حزن أجابها وهو يحملق فيها: "كلا؛ فالحرية هباء بغير الصداقة، والصداقة ليسب شيئا بغير حب. وعندما كنت أسيطر على المعبد، كنت سيد الرجال لأنهم كانوا يؤمنون بأني مقدس، ولكني في الخارج، حيث كنت حرا، أصبح كل رجل سيدا، ولم أحظ بالصداقة في أي الحالين، وأنت وحدك كفتاة صغيرة، كنت صديقتي، والآن قد عدت أسألك حمايتك إلى أن أموت"

وألقت الفتاة بذراعيها حول عنق الحصان وربتت عليه مرة أخرى، وأسندت رأسها إلى عنقه، وتساقطت من عينيها السوداوين دموع الشفقة والحنان. وسأل الحصان في تردد: "قد تكونين شقية أيضا. أليس كذلك؟" فأجابت بقولها: "الآلهة تعلم". وما إن نطقت بهذا حتى أحست برجفة عجيبة تسري في كيانها، وعندما رفعت رأسها، تبينت أن الحصان قد اختفى وأن ذراعيها كانتا تطوقان عنق شاب جميل.

قال لها في صوت خفيض وهو يضمها بذراعيه: "ألم أقل إن الحرية هباء بغير صداقة، وأن الصداقة ليست شيئا بغير حب؟". وأجابت بقولها: "الآلهة تعلم". وفي صوت تهزه عاطفة عميقة طاهرة أجاب: "نعم الآلهة تعلم"

الوردة الزرقاء

كان في الصين في سالف الزمان، عاهل حكيم، وكانت له ابنة واحدة، ولما كان ابنه قد رزق غلاما ذكرا، فلم يكن يشغله أمر وراثة العرش، وإنما كان يتمنى – وقد أدركته الشيخوخة – أن يرى ابنته في كنف زوج جدير بها.

وقد اشتهرت الابنة بجمالها، فعيناها العسليتان المائلتان، كانتا كمياه نمير صفا ماؤه، وتلألأت حصواته في ضوء الشمس، وكانت ضحكاتها كأنما تنبعث من جرس فضي مثبت حول جيدها الرقيق، أما قدماها فلم يكن في العالم أدق منهما. وفضلا عن هذا كله، فقد كان عقلها لا يقل روعة عن جمالها. وكانت تفوق أدباء الصين جميعا في التغني بأشعار كبار الشعراء.

وما أن ذاع أن العاهل يرغب في اختيار زوج لابنته، حتى وفد على القصر مائة وخمسون خاطبا، كل منهم يطلب يدها لنفسه، فقابلهم كبير الأمناء في الفناء الخارجي، وأبلغهم أنه لن يتزوج من الأميرة إلا من يأتيها بالوردة الزرقاء. ومضى الخاطبون في حيرة يسأل بعضهم عن ماهية هذه الوردة الزرقاء وأين مكانها، وفقد كثيرون منهم الأمل، وبدت لهم هذه الفكرة سخيفة ومستحيلة، وانصرفوا، يائسين، عن التفكير في الزواج من الأميرة، عدا ثلاثة منهم.

أما الأول، وكان تاجرا غنيا، فقصد إلى أكبر متجر في المدينة وطلب إلى صاحبه أن يأتيه بوردة زرقاء كبيرة، واعتذر الرجل في أدب، وقال إن لديه ورودا حمراء وبيضاء وصفراء، وأنه لم يسبق له أن سمع بوجود وردة زرقاء. وأصر التاجر على طلبه، بأن يؤتى بوردة زرقاء بصرف النظر عما يمكن أن يعترض ذلك من صعوبات، ووعد الرجل بأن يبذل قصارى جهده في هذا السبيل

وأما الثاني فكان محاربا لا يشق له غبار، فامتطى صهوة جواده، واصطحب معه مائة من الرماة وألف فارس، واقتحم بهم أرض "ملك الأنهار الخمسة" أوسع ملوك الأرض ثراء، ومالك أندر الكنوز، وطلب إليه أن يقدم له الوردة الزرقاء، مهددا إياه بالهلاك إذا رفض تسليمها إياه.

وكان ملك الأنهار "الخمسة" لا يطيق المحاربين، ويكره الجلبة والعنف والقلق، فأجال بصره في حراسه المسلحين بالمراوح والمظلات، ونهض عن أريكته الملكية، ودق جرسا صغيرا من الفضة، وأمر خادمه أن يأتيه بالوردة الزرقاء. وعاد الخادم يحمل وسادة حريرية وضعت عليها قطعة رائعة من الياقوت الأزرق، نحتت على هيئة وردة نضيرة كاملة الوريقات.

وشكر المحارب الملك بعبارة عسكرية مقتضبة، وحمل الياقوتة رأسا إلى قصر العاهل معلنا أنه أتى بالوردة الزرقاء.

ونادى العاهل فتاته، وقدم لها الوردة قائلا: "يدعي هذا المحارب الشجاع أنه جاءك بالوردة الزرقاء، فهل ترينه أنجز ما طلبت؟" وتناولت

الأميرة القطعة الرائعة بين يديها الصغيرتين، وقالت بعد لحظة: "ليست هذه بالوردة، وإنما هي ياقوتة زرقاء، وما بي من حاجة إلى الأحجار الكريمة". ثم أعادت الياقوتة إلى المحارب، وهي تردد عبارات الشكر مشوبة بالعطف. وانطلق المحارب إلى حروبه وقد غلبه الكدر.

وسمع التاجر بفشل المحارب، فأسرع إلى صاحب المتجر يطلب الوردة الزرقاء، مهددا إياه بقوله: "إذا لم تأتني بها فلا بد من إعدامك؛ فإني على صلة بجميع كبار موظفي الدولة" وأجاب التاجر وقد تملكه الخوف: "أمهلني ثلاثة أيام يا سيدي.. وسوف لا أخفق في الإتيان بها".. ومنحه التاجر هذه المهلة، وأمضى الرجل يومين يرتعد ويرتجف، إذ كان يعرف جيدا أن ليس لمثل هذه الوردة وجود، وفي اليوم الثالث ذهب إلى زوجته وأفضى إليها بما حدث، وأجابته زوجته قائلة: "ما هذا الهراء!!. سنصنع له الوردة الزرقاء. اذهب إلى الكيميائي واطلب منه أن يعطيك صبغة قوية تحيل الوردة البيضاء إلى وردة زرقاء" ثم قطبت في وجهه.

وهرع إلى الكيميائي الذي أعطاه قنينة بها صبغة حمراء، طلب إليه أن يغمس الوردة البيضاء في السائل، وهكذا فعل الرجل، وإذا بالوردة البيضاء تستحيل إلى وردة زرقاء، فحملها إلى التاجر الذي أسرع بها إلى القصر. ودعا العاهل ابنته، وقال لها: "يدعي هذا التاجر الغني أنه جاءك بالوردة الزرقاء، فهل ترينه أنجز ما طلبت؟"

وأمسكت الأميرة بالوردة بيديها الصغيرتين، وبعد لحظة قالت: "ما هذه سوى وردة بيضاء غمست ساقها في صبغة سامة أحالت لونها إلى الزرقة، ولو أن فراشة أو طائرا طنانا حط عليها لمات بفعل بخارها المشئوم. أيها التاجر، خذ الزهرة ثانية فلست بحاجة إلى وردة زرقاء زائفة" وأعادتها إلى التاجر شاكرة؛ فانصرف إلى تجارته في غضب شديد.

أما الثالث فكان كبير القضاة وكان سياسيا داهية، أرسل في طلب أمهر فنان في البلاد، وطلب إليه أن يصنع له كأسا من الخزف بالغة الإتقان، لها لون اللبن، ثم يصور عليها وردة زرقاء. وأتم الفنان الكأس في ثلاثة شهور، ولم تكن ثمة كأس أخرى تدانيها جمالا وشكلا ودقة تركيب، وكانت عليها وردة زرقاء يخالها الناظر إليها وردة حقيقية تنبض بالحياة متجهة إلى أعلى، وحولها بياض كبياض اللبن. وعندما نظرها كبير القضاة، وكان هاويا عظيما من هواة الخزف كافأ الفنان، وأسرع بها إلى قصر العاهل. ونادى العاهل ابنته وقال لها: "يدعي هذا السياسي اللامع أنه أحضر لك الوردة الزرقاء. فهل ترينه أنجز ما طلبت؟"

وتناولت الأميرة الكأس بيديها الصغيرتين، وقالت بعد قليل: "إنها أروع آنية خزفية رأيتها في حياتي.. وإذا أذنت لي بالاحتفاظ بها، فسأضعها في مكان أمين.. إذ ما من وردة تستحق أن توضع فيها سوى الوردة الزرقاء" وشكر كبير القضاة للأميرة بأدب قبولها الكأس، وانصرف إلى النظر في أمور الدولة وتصريفها، وهو في حنق شديد.

ومضى وقت قصير، ومر بمملكة العاهل مغن متجول شاب، لم يكن قد بلغه شئ عن الوردة الزرقاء، وراح يترنم في طريقه، وهو يجرى أصابعه على مزهر ذي وتر واحد بأي شئ يخطر بباله، وفي إحدى الأمسيات كان يستند إلى سور قاتم، وهو يملأ عينيه بجمال الغروب ولون الغسق البنفسجي الزاحف؛ فأحس بقلبه يفيض بشعور جميل، وشرع يغني أغنية قصيرة، ثم أخذ يعيدها ويعيدها مرات على أنغام مزهره، وهو يصغي إلى نقيق ضفادع الأشجار، وصوت اضطراب ماء النهر:

"إلى جانب شجر الصفاف وقفت..
أرقب السماء وقد أتى...
عبر النهر . وفي قلبي
لم أكن أدري اسم حبيبي...
ومن الحشائش المتشابكة هناك ارتفع عصفور طار فوق الماء،
وفي تيار النهر الفضي..
رأيت وميضا رقيقا أزرق اللون".

وما أن أعاد الأغنية للمرة الثالثة، حتى سمع حفيفا خافتا ينبعث من السور خلفه، ورفع رأسه فرأى شيئا أبيض يومئ إليه بإصبعه، وعلى مسافة من المكان الذي كان يقف فيه، عثر على باب في السور، وعلى إنسان ينتظر اقتاده في رفق إلى ظل شجرة أرز، وفي حلكة الليل وتحت أضواء النجوم أخذ كل من المغني والأميرة يهمس إلى الآخر بآلاف الأشياء.. ومضت الساعات في طيات الضباب الفضي، وبدأ النور يظهر من ناحية

الشرق، وقالت الأميرة إنها لا بد أن تذهب. وقال المغني: "سأحضر هذا الصباح إلى القصر وأطلب يدك من العاهل". قالت الأميرة: "وا أسفاه. لقد وضع أبي شرطا جنونيا.. هو ألا يزوجني إلا ممن يأتي بالوردة الزرقاء". وابتسم المغني، وهو يلمس يدها في رفق قائلا: "إنه أمر بسيط.. وسأجدها".

وفي الصباح قصد المغني إلى القصر، وقطف في طريقه وردة بيضاء نبتت على حافة ممشى الحديقة، ودعا العاهل ابنته وقال لها "إن هذا المغني المعدم جاءك بما يدعي أنه الوردة الزرقاء فانظري.. هل أنجز ما طلبت؟". وتناولت الأميرة الوردة العادية بين يديها الصغيرتين، وقالت في غير تردد: "نعم، ما من شك في أن هذه هي الوردة الزرقاء". واحتج قاضي القضاة وجميع أفراد الحاشية بأنها ليست وردة زرقاء وإنما هي وردة بيضاء عادية.

وقالت الأميرة في هدوء "أنا أعرف أن الوردة زرقاء" ثم أضافت في رثاء: "وربما كنتم جميعا مصابين بعمى الألوان". وقدر العاهل أنه ما دامت الأميرة تعتقد أنها الوردة الزرقاء فلا بد أن تكون كذلك، لما عرفت به من إدراك يفوق إدراك أي شخص آخر في المملكة، بما في ذلك السحرة والمنجمون والأدباء.

وتزوجت الأميرة من المغني، وعاشا سعيدين في منزل بعيد يطل على البحر وله حديقة ملأى بالورود البيضاء.. أما العاهل وقد اطمأن إلى سعادة ابنته وأحب أغاني صهره، فقد مات في سلام.

يوكنج والعفريت

كان عاهل الصين الثالث عشر، حاكما عاقلا طيبا، وكان مشهورا بحراسه، إذ كانوا نخبة المملكة يتميزون بالضخامة والقوة. وكان العاهل، في كل عام، عندما يكتمل القمر بدرا، يقيم مباراة رياضية يبيح الاشتراك فيها للجميع، حتى يختار من بينهم أحسن الرماة وأبرع لاعبي السيف وأسرع العدائين وأعظم المصارعين. وحدث في أحد الأعوام أن أعلن العاهل أن الفائز في المباراة سيقلد قيادة الحرس، وهي أسمى درجات الشرف في أنحاء المملكة المزهرة الوسطى.

واحتشد آلاف النظارة يرقبون الألعاب، وجلس العاهل في مقصورته الملكية، واشترك في المباراة المئات من أمهر الرياضيين، ولكن الذي أثار دهشة الجميع فتى نحيف اسمه "يوكنج" فاز في كل جولة، ولم يقو أحد على هزيمته في العدو والوثب والمصارعة وقذف الرمح واللعب بالسيف.

وكانت المرحلة الختامية في المباراة خاصة بإصابة الهدف بين حملة القوس والسهام، وكان الحماس قد تملك النظارة، حتى أن العاهل نفسه قد أحس بضربات قلبه تسرع بشكل غير عادي، وكان المتنافسون في هذه الجولة مائة من أحسن وأمهر النبالة، وقف بينهم الفتى "يوكنج". وضاقت

المباراة حتى انحصرت في ثلاثة: بطلي المملكة و"يوكنج"، وقد تحمس النظارة للفتى. وتقدم البطلان أولا، وكان تسديدهما محكما، فلم يخطئ أحدهما إصابة "القمر" أو مركز الهدف. وخطا "يوكنج" إلى الأمام، تملؤه الثقة، وهو يمر بإصبعه في رشاقة على الوتر.

وأطلق "يوكنج" سهامه متتابعة سريعة، كما لو كانت السهام الأربعة قد فارقت قوسه قبل أن ينفذ السهم الأول في الهدف. واجتمعت سهام الرماة الثلاثة في "القمر" أو وسط الهدف؛ فتعادلوا جميعا.

وأمر العاهل بهدف يدلى من أحد فروع شجرة عالية، بحيث يظل يتأرجح مع النسمات أماما وخلفا، وكان على كل منافس أن يطلق سهما واحدا، ثم يصدر العاهل قراره. وخطا أول البطلين إلى الأمام، وهبت نسمة خفيفة فاهتز الهدف الضخم في بطء ونفذ السهم في الدائرة الثانية، ثم جاء البطل الثاني فأصاب حافة الدائرة الداخلية.

وما أن خطا "يوكنج" إلى الأمام حتى هبت ريح سريعة أمالت الشجرة وجعلت الهدف يهتز ويدور حولها بشدة، وتقدم النبال الأول يعرض على "يوكنج" أن يتريث حتى تهدأ الريح، ولكن هذا شكره قائلا إنه يفضل أن يخسر على أن يخل بالقواعد التي وضعت. وسدد الفتى سهمه بعناية، وانطلق السهم إلى حيث نفذ في مركز "القمر" أو داخل الهدف تماما، فهلل النظارة فرحين، ونادى العاهل "يوكنج" بطلا "للمملكة المزهرة

الوسطى"، ولكن النبال الثاني صاح يطلب الإنصاف. والتفت إليه العاهل يسأله ماذا يريد.

وقطب (إ — شن) وهو يقول "يا صاحب الجلالة.. لقد كان الحظ مواتيا هذا الفتى في جميع الألعاب، وما كان ليستطيع إصابة الهدف في المرة الثانية لولا أن هبت ريح مواتية، وهو بعد كل هذا مازال صغيرا جدا ليتولى قيادتنا نحن الذين قضينا السنوات في الخدمة الشاقة تحت إمرة جلالتكم"

وانبعثت من الحشد زمجرة غاضبة، وداخل العاهل نفسه شئ من القلق، وتقدم "يوكنج" خطوة إلى الأمام، وقال في خضوع: "يا صاحب الجلالة، إنني على استعداد أن أرمي ثانية من أجل هذه الجائزة، ولكني أعرف أنني مازلت في حاجة إلى تدريب طويل بإرشاد جلالتكم، وإني لأرجو أن تسمحوا لي بمركز بين حاشيتكم"

وسر العاهل لهذا، وتوج "يوكنج" بتاج النصر، ولكنه احتفظ لنفسه بقيادة الحرس، ولم يكن في مدينة العاهل من حظي بقدر من الحب والإعجاب أوفر مما حظى به "يوكنج"..

ولكن (إ — شن) لم يكن إنسانا، وإنما كان روحا شريرا كره الفتى وراح يدبر للإيقاع به، ولم يلبث أن اختفى من المدينة كنبَال، ليعود إليها بعد حين عرافا، وأمضى الوقت متربصا يرتقب الفرصة أن تسنح لتدمير "يوكنج"، وعندما أصيب خادم "يوكنج" بمرض لم يكن معروفا في الصين من قبل وشارف الموت، سأله رفاقه أن يستشير (إ — شن)، وأجاب "يوكنج":

"إني لم أؤمن أبدا بمثل هذه القوى التي يدعيها لنفسه"، فقال أحد رفاقه: "ولكنه عالج ابنة الحاكم، وشفي على يديه عدد أكبر ممن شفوا على يدي أطباء المدينة". وأجاب "يوكنج": "لست أبالي بذلك؛ فأنا لا أثق به، وإن له عينين شريرتين". وأخيرا حدا به حبه لخادمه المشرف على الموت أن يأخذ طريقه إلى حيث يقيم (إ– شن).

وفي فرحة عظيمة راح (إ – شن) ينحني قائلا: "إنه لشرف لي يا سيدي، بالرغم من أنك تحتقر قواي، ولكني خادمك".. وسأله "يوكنج": "وماذا تعرف عني وعن خادمي؟".. قال (إ – شن) "هذا شأني، أما خادمك فيلفظ أنفاسه قبل أن تصل إلى بيتك، وأما أنت فستموت أيضا قبل أول مرة يبزغ فيها القمر التالي ما لم يذعن لرغباتي"

وصاح "يوكنج": "وما يعنيني منك ومن تهديداتك.. ولتحل لعنات الآلهة برأسك الزائف"

ولما عاد "يوكنج" إلى بيته كان خادمه قد مات، ولم يكن يفصله عن بزوع القمر سوى يومين، فما زال له يومان آخران في الحياة، لو صح ما يقوله العراف.

وفي اليوم التالي طاف "يوكنج" بجميع صانعي الأسلحة بالمدينة، وعاد إلى بيته بأمضى وأقوى سيف استطاع أن يبتاعه، ومضى لينام مبكرا، طلبا للراحة التي سيحتاج إليها في الغد، واستمر نائما إلى وقت متأخر، ثم نهض وأكل جيدا، وأمضى سحابة يومه مع أصدقائه في ضحك وحديث كأنما لا

يتوقع حدوث شئ، ولكن ما أن هبط الليل حتى آوى إلى حجرته. وفجأة علت ضوضاء، كأنها صوت هبوط عاصفة سريعة، واقتحم الحجرة غول عملاق يرسل صيحات الانتقام، ودون تردد وثب "يوكنج" على قدميه لمنازلته، وخطا خطوة سريعة إلى الأمام، ووجه بسيفه طعنة هائلة إلى المارد المفزع الذي هوى إلى الأرض.

وعندما نظر "يوكنج" إلى جسمه بدأ يضحك؛ إذ لم يكن سوى غول من الورق له رأس متجهم مخيف. ثم انبعثت ضجة ثانية تشبه الانفجار، ووثب من النافذة غول ثان أشد هولا من الأول، وكان في يده سيف، وكان هذا الشيطان أستاذا في استعمال السلاح؛ فطوح بسيفه إلى رأس "يوكنج"، ولكن هذا انتظر في هدوء وبرود إلى أن يلمح ثغرة في خصمه، حتى إذا فارق الغول حرصه لحظة، سدد إليه "يوكنج" طعنة نفذت من صدره.

وعاد "يوكنج" يضحك ثانية عندما تبين أن هذا الغول كان من الخزف، وعرف أن الشيطان (إ – شن) قد فر من هذا الجسم أيضا وأنه سيعاود الهجوم. وقال "يوكنج" لنفسه رغم أن جميع شياطين الليل تهاجمني فسأنازلها باليد المجردة لأثبت جدارتي بأبي وعاهلي.

ثم دوى هزيم كالرعد اهتز له البناء، وانسابت من النافذة أدخنة كبريتية، وبدا أمام "يوكنج" شكل مفزع يكفي لإخافة جيش بأكمله، وكان للغول هذه المرة سبعة رؤوس متجهمة وسبعة أذرع، وفي كل ذراع سيف يقطر دما. وأخذ يثب في أرجاء الحجرة، ومضى يضرب الهواء، حتى لكأن

كل بوصة من فضاء الحجرة قد قطعت ألف مرة، ولكن "يوكنج" كان من السرعة وصغر الحجم وصلابة العود بحيث تفادى طعنات السيوف، وفجأة نفذ إلى صميم قلب العدو، وكان قلب (إ – شن) الأسود ذلك الذي وصل إليه "يوكنج" أخيرا. وفي زمجرة مخيفة سقط الغول فاقد الحياة وملأت الأدخنة الكبريتية جو الحجرة بسحب كثيفة..

وما أن اقترب "يوكنج" من النافذة ليستنشق الهواء، حتى رأى الفناء أمامه يزدحم بحشد كبير من الناس الذين أطلقوا صيحات الفرح عندما رأوه سالما. وفي تواضع انحنى "يوكنج" شكرا واعترافا بالجميل، وفي هذه اللحظة وصل رسول يحمل رسالة من العاهل بتعيين "يوكنج" قائدا لحرس عاهل "المملكة المزدهرة الوسطى"..

النرويج

العصفور الذهبي

كان لأحد ملوك النرويج حديقة بها شجرة تفاح تظهر عليها كل عام تفاحة ذهبية، ثم لا يحين وقت القطاف حتى تكون التفاحة قد اختفت دون أن يدري أحد شيئا عن سارقها. وكان للملك ثلاثة أولاد، قال لهم ذات يوم: إن من يأتيه منهم بالتفاحة أو يمسك باللص الذي يسطو عليها يرث الملك من بعده.

وخرج الابن الأكبر إلى الحديقة، وجلس في ظل الشجرة متربصا باللص. وأقبل المساء، وأخذ الظلام يرخي سدوله، وإذا بعصفور ذهبي يطير إلى الشجرة، وكان له بريق يخطف الأبصار، فبهرت عيني الأمير، واستولى عليه الخوف، وجرى إلى المنزل بأسرع ما استطاع.

وفي الصباح كانت التفاحة قد اختفت، وعادت إلى الأمير شجاعته مع ضوء النهار، وخجل من أن يخيفه عصفور صغير، وقطع على نفسه عهدا بأن يعثر على العصفور الذهبي ويستعيد منه التفاحة الذهبية. وزوده الملك بالمال والملابس الجميلة، وانطلق في روح معنوية عالية. ولم يكد يقطع بعض الطريق حتى أحس بالجوع؛ فجلس بعدوة من الطريق، وأخرج طعامه وشرع يأكل..

وخرج ثعلب من الغابة، ومشى إليه حتى جلس قبالته وهو يقول: "ألا أعطيتني مضغة أتبلغ بها".

وقال الأمير غاضبا: "إليك عني؛ فإني في حاجة إلى ما معي من طعام، إذ لا يدري أحد إلى أي مدى تطول بي الرحلة". قال الثعلب: "حسن جدا" وكر عائدا إلى الغابة.

وانتهى الأمير من تناول الطعام، واستراح قليلا، ثم استأنف السير حتى بلغ مدينة كبيرة بها حانة يشيع فيها المرح لا تعرف الأحزان إليها سبيلا؛ فولجها، ولقي بها من ضروب الرقص والشراب والمرح ما أنساه نفسه، والعصفور الذهبي ورحلته، بل والمملكة بأسرها.

وفي العام التالي ظهرت التفاحة الذهبية على الشجرة من جديد، وعندما بدأت تنضج خرج الأمير الثاني حيث جلس في ظل الشجرة يرتقب اللص. وذات مساء أقبل فجأة عصفور ذهبي له بريق الشمس ولألاؤها فاستولى عليه الخوف، وهرع إلى داخل المنزل بأقصى ما استطاع من سرعة.

وفي الصباح كانت التفاحة قد اختفت، وأقسم الأمير وقد عاودته شجاعته، على أن يعثر على العصفور الذهبي ويسترد منه التفاحة الذهبية، وزوَّده الملك بالمال والملابس الجميلة ومضى في طريقه، وما أن قطع بعض الطريق حتى أحس بالجوع؛ فجلس إلى جانب الطريق وشرع يأكل.

وسعى إليه ثعلب من الغابة فجلس قبالته، وسأله أن يعطيه بعض الطعام فرفض الأمير أن ينزل له عن شئ، مدعيا أنه في حاجة إليه جميعه. وعاد الثعلب من حيث أتى، واستأنف الأمير السير حتى أتى المدينة العظيمة ذات الحانة، واحتوته الحانة هو الآخر فلقي بها أخاه ونسي كل شئ.

وفي العام الثالث، عندما حان الوقت الذي ينضج فيه التفاح، خرج الأمير الأصغر إلى الحديقة يرتقب اللص، وقد اصطحب زميلا يعينه على تسلق الشجرة، وحمل معه بعض الجعة وأوراق اللعب لتذود عنه النوم، وفجأة رأيا العصفور الذهبي مقبلا بما يشع من ضوء لامع، وتسلق الأمير الشجرة، وفي نفس اللحظة انقض العصفور على الشجرة واختطف التفاحة، وحاول الأمير أن يمسك به إلا أنه أخفق في ذلك؛ فطار العصفور مخلفا في يد الأمير ريشة ذهبية من ذيله.

وأسرع الأمير إلى مخدع الملك، وما أن دخل ومعه الريشة الذهبية حتى انتشر فيه ضوء يشبه ضوء النهار، وقال الأمير: "إني أرغب في الخروج يا أبت بحثا عن إخوتي وعن العصفور الذهبي الذي أستطيع الآن أن أتبينه في أي مكان". وأجاب الملك: "لست أحب يا ولدي أن أفقدك أنت الآخر، ومع ذلك فدعني أفكر بعض الوقت".

ولكن الأمير راح يرجوه في حرارة جعلت الملك يوافق في النهاية على ذهابه.

ومضى بعض الوقت وأحس الأمير الأصغر بالجوع؛ فجلس إلى جانب الطريق وأخرج طعامه، وأتاه ثعلب الغابة جلس قريبا منه وسأله أن يعطيه شيئا من الطعام. وقال الأمير: "مرحى.. مرحى.. أيها الأخ الأحمر.. إني في حاجة إلى طعامي كله فيسطول بس السفر، ومع ذلك فلدي ما يسمح لي بالنزول لك عن قليل منه"

وقال الثعلب وهو يتناول قطعة لحم: "شكرا لك، والآن حدثني عن وجهتك".

وروى له الأمير كل ما كان من أمر العصفور الذهبي والتفاحة الذهبية واختفاء أخويه. وقال الثعلب: "سأساعدك على ما تريد، لو أنك اتبعت ما أشير به عليك" ووعد الأمير بذلك، وسارا معا إلى أن بلغا المدينة ذات الحانة حيث السرور الدائم. وقال الثعلب: "سأنتظرك هنا في الخارج؛ إذ الكلاب مقلقة جدا، وإن أخويك بداخل الحانة، وإذا أنت دخلت إليها فلن تتم ما بدأت"

ووعد الأمير بألا يدخل الحانة، وتناول كف الثعلب في يده وشد عليها ومضى كل منهما في طريقه، وما إن اقترب الأمير من الحانة حتى تناهت إلى سمعه نغمات الموسيقى والأصوات المرحة، وأحس برغبة تدفعه إلى الدخول، وهناك لقي أخويه وفرح يلقائهما، ونسي الثعلب والرحلة والعصفور الذهبي وأباه. ولما طال مكثه بها، جازف الثعلب بدخول المدينة وقصد إلى الحانة حيث أشار إلى الأمير مؤذنا بأن الوقت قد حان

للانصراف؛ فترك الأمير الأصغر الحانة واستأنف الرحلة مع الثعلب. وبعد أن استمرت رحلتهما بعض الوقت شاهدا عن بعد جيلا عظيما.

وقال الثعلب: "على مسيرة ثلاثمائة ميل خلف هذا الجبل شجرة زيزفون ذهبية لها أوراق ذهبية، وعلى هذه الشجرة يجلس العصفور الذهبي" ومضيا إلى هناك معا..

وقال الثعلب: "هاك بعض الريش... حركه في يدك فسيطير العصفور ثم يحط عليها، ولكن عليك ألا تلمس الزيزفونة. إذ لو مست أصغر غصن منها، لخرج إليك الساحر الذي يعيش هناك وقتلك في الحال".

فقال الأمير: أعدك بألا ألمسها.

وهبط العصفور ووقف على إصبعه، ولكنه لم يستطع أن يقاوم إغراء الشجرة، وصمم على أن يحصل على أحد غصونها، وكانت متناهية الجمال، وأخذ بالفعل غصنا صغيرا جدا؛ فخرج الساحر يزمجر. وصرخ الساحر وهو ينفث شررا من نار: "من ذا الذي يسرق شجرتي وعصفوري؟" وأجاب الأمير الأصغر: "يعتقد اللصوص أن جميع الرجال يسرقون، وأنه لا يشنق منهم إلا من لا يجيد السرقة"

وكاد الساحر أن يقتله، ولكن الأمير مضى يسأله الإبقاء على حياته في منطق جميل رق له قلبه.. وقال الساحر: "أيها الشاب.. لو استطعت أن تعيد إليّ الحصان الذي سرقه مني أقرب جيراني إليَ، فإني أعدك بأن

أبقي على حياتك" وسأله الأمير: "وأين أجد الحصان؟" فقال الساحر: "إن جاري يقيم على بعد ثلاثمائة ميل خلف هذا الجبل الأزرق الكبير عند الأفق" فقال الأمير: "سأبذل ما وسعني من جهد".. ومضى يبحث عن الثعلب، ولكن الثعلب كان ثائرا فقال له: "ها أنت ورطت نفسك في المتاعب.. لم لم تصغ إليّ وتدع الشجرة وشأنها"

وسارا إلى الجبل الأزرق الكبير عند الأفق، وأخيرا بلغا بيت الساحر المجاور وقال الثعلب: "والآن اصغ إلي: عندما تصل إلى الحظيرة ستجد لجاما ذهبية وفضية معلقة على الحائط، فلا تمسها وإلا خرج إليك الساحر وقتلك على الفور عليك أن تأخذ أقبح وأحقر لجام تراه".

ووعد الأمير بأن يتصرف على هذا النحو، ولكنه عندما دخل الحظيرة، ورأى اللجم الرائعة انتقى أحسنها وأخذه، وأقبل الساحر مزمجرا، وبلغ به الغضب درجة جعلت الشرر يتطاير منه. وعوى الساحر قائلا: "من يسرق حصاني ولجامي" وقال الأمير: "يعتقد اللصوص أن جميع الرجال يسرقون، ولا يشنق منهم إلا من لا يجيد السرقة"

وصاح الساحر: "سأقتلك فورا" ولكن الأمير مضى يسأله الإبقاء على حياته في منطق عذب جميل لأن له قلبه.. وقال الساحر: "فليكن.. لو أعدت لي الصبية الجميلة التي اغتصبها مني أقرب جيراني لأبقيت عليك" وسأله الأمير: "وأين يقيم؟" فقال الساحر: "إنه يقيم على بعد ثلاثمائة ميل خلف هذا الجيل الأزرق الكبير عند الأفق" وقال الأمير إنه

سيبذل ما وسعه من جهد ومضى يبحث عن الثعلب، وكان الثعلب شديد الحنق، فقال له في حدة: "والآن وقد فعلتها، فسوف لا أذهب معك إلى أبعد من ذلك" ورجاه الأمير بقوله : "أوه.. أرجوك أن تأتي معي، وأعدك بأن أتصرف مستقبلا وفق ما تقول"؛ فقال الثعلب: "حسنا.. فليكن، وكن على يقين من الوفاء بوعدك"

وهكذا سارا ثانية حتى بلغا المكان الذي فيه الصبية الجميلة. وقال الثعلب: "اصغ إلي.. إنك وعدتني، ومع ذلك فلست أجرؤ على أن أدعك تدخل، وسوف أدخل بنفسي هذه المرة".. ومضى الثعلب إلى الداخل، وأخذ الفتاة بعيدا عن الساحر، وعادا من نفس الطريق الذي أتيا منه.

ولما بلغا مكان الساحر الذي لديه الحصان أخذ الحصان مع ألمع اللجم، واستمرا في السير حتى إذا بلغا مكان الساحر صاحب شجرة الزيزفون والعصفور الذهبي، أخذا الشجرة والعصفور ومضيا بهما. ووصلا إلى حقل جويدار، فقال الثعلب: "إنني أسمع ضخبا وزمجرة، ويحسن أن تستمر أنت في طريقك، وسأتخلف عنك بعض الوقت ثم ألحق بك فيما بعد" ثم اتخذ لنفسه لباسا من قش الجويدار بدا فيه كأحد الوعاظ..

وفجأة أقبل السحرة الثلاثة مرعدين محاولين اللحاق بالأمير، وصاحوا بالثعلب: "أرأيت أحدا يمر بك هنا، ومعه صبية جميلة وحصان له لجام من ذهب وعصفور ذهبي وشجرة زيزفون ذهبية؟"؛ فتوقف الثعلب

عن الوعظ وأجاب: "حسنا.. سمعت من جدة جدتي أن إنسانا كهذا مر من هذا الطريق، ولكن ذلك كان منذ مائة عام مضت، عندما كانت جدة جدتي تخبز كعكة بنصف بنس، ثم ترد النصف ثانية"

فانفجر السحرة الثلاثة ضاحكين، واستمروا يضحكون بشدة حتى صاروا يتعلق بعضهم ببعض، وقالوا: "إذا كنا قد نمنا هذه المدة الطويلة، فيحسن بنا أن نعود لننام أكثر من ذلك". وكروا راجعين من نفس الطريق الذي أتوا منه

وألقى الثعلب عن نفسه الثوب المصنوع من قش الجويدار وأسرع خلف الأمير حتى إذا بلغا المدينة ذات الحانة قال الثعلب: "لست أجرؤ على دخول المدينة خشية الكلاب، ولكن كن على حذر فلا يمسك بك أخواك"

ولكن عندما بلغ الحانة توقف ليحادث أخويه، فأمسكا بالصبية والحصان والعصفور وشجرة الزيزقون ثم وضعوه هو في "برميل" وقذفوا به إلى البحر، وخرجا متجهين إلى قصر الملك. وأمسكت الصبية عن الكلام واعتراها شحوب وشقاء، وصار الحصان هزيلا لا يقوى على التماسك، وأصبح العصفور صامتا وانطفأ لون ريشه ولم يعد يضئ، وذوت شجرة الزيزفون.

وفي نفس الوقت كان الثعلب ينتظر الأمير الأصغر والصبية خارج المدينة، ومضى هنا وهناك بحثا عنهما دون جدوى. وبعد وقت طويل،

ذهب إلى شاطئ البحر، فرأى "برميلا" يتقاذفه التيار فصاح به: "لم يتقاذفك التيار هنا أيها "البرميل" الفارغ؟" وصاح الأمير من البرميل: "إنه أنا".. وفي سرعة أخذ الثعلب يسبح في الماء، وسحب "البرميل" إلى الشاطئ، وأخذ يقرض أطواقه، وعندما استطاع أن يزيح بعضا منها قال للأمير: "اضرب بقدمك ما وسعك من شدة"، ومضى الأمير يضرب بقدميه حتى تهاوت أضلع البرميل، وقفز منه، ثم أسرع هو والثعلب إلى قصر الملك. وفي الحال استعادت الصبية جمالها وشرعت تتحدث، وعاد الحصان سمينا ناعما، والتمع العصفور الذهبي الذي بدأ يغرد، كما تفتحت شجرة الزيزفون وأخذت أوراقها تومض. وقالت الصبية للملك: "إنه هو الذي أنقذنا".. ومضت تقص عليه كيف اغتصبها الأخوان بعد أن أنقذها الأمير الأصغر من السحرة، وأصر الملك على أن يوضع كل من الأخوين في برميل ذي مسامير ويدلى من جبل شديد الانحدار.

وغرست شجرة الزيزفون في الحديقة، واتخذت الاستعدادات لزواج الأميرة – وهي هذه الصبية – من الأمير الأصغر. وطلب الثعلب إلى الأمير أن يضعه على كتلة من خشب ويضرب عنقه بالسيف، فصاح الأمير قائلا أنه لا يستطيع، ولا يمكن أن يفعل هذا بصديق قديم، ولكن الثعلب أصر على طلبه. وفي النهاية قبل الأمير، وفعل ما طلبه والأسف يملأ نفسه، وفي الحال انقلب الثعلب إلى أمير جميل، هو شقيق الأميرة التي أنقذها من السحرة.

واحتفل بالزواج في فخامة ومرح، وفي كل عام، في مثل ذلك الوقت يقطف العصفور الذهبي التفاحة الذهبية من شجرة التفاح ويحضرها إلى الأميرة وهو يغنيها أغنية ذهبية.

عروس الشريف

كان في بلد من بلاد النرويج، شريف له ضيعة واسعة، وكانت لديه الخزائن العامرة بالفضة، فضلا عن الذهب المودع باسمه بأحد البنوك.. ماتت زوجته فعاش بعدها سنوات طويلة وحيدا دون أنيس.

وفي ذات يوم، رأى ابنة مزارع من جيرانه، وهي تعمل في حقل للبرسيم، فأعجبه شكلها وتعلق بها قلبه، وراح يحدث نفسه بالزواج منها، ولما كان يداين أباها ببعض المال فقد اعتقد أنها لن تتردد لحظة في قبوله زوجا لها. وطلب منها الزواج فعلا قائلا: "إني أفكر في الزواج منك" فضحكت الفتاة وأجابته بقولها "لكل إنسان أن يفكر فيما يشاء" واستمرت فيما هي فيه من جمع البرسيم.

وأعاد الرجل الطلب، ورفضته للمرة الثانية، ولكنه أصر على الفوز بها، وقابلت إصراره بالسخرية؛ فثار غضبه ودعا والدها وقال له "اصغ إلي.. إنني أحب أن أتزوج من ابنتك، وإذا أنت حملتها على الرضا بي نزلت لك عن ديني لديك وعن قطعة الأرض الملاصقة لأرضك"، وقال الوالد: "دع لي هذا الأمر، فسأجعلها تثوب إلى رشدها؛ فهي لم تزل صغيرة جدا لا تستطيع التمييز بين النفع والضرر"

ومضى الوالد إلى ابنته، يأخذها تارة باللين وأخرى بالعنف، دون جدوى، وأعلنته بأنها لن تتزوج من الغني العجوز ولو غرق في الذهب إلى أذنيه.

وتتابعت الأيام، وطال انتظار الثري العجوز إلى أن نفد صبره وملكه الغضب، فأبلغ أباها أنه لم يعد يستطيع الانتظار أكثر من ذلك. وأشار عليه والدها بأن يشرع في إعداد معدات الزفاف، واتفق معه على أن يرسل في طلبها، بعد أن يحضر لديه القس ويكتمل عقد المدعوين، كما لو كان يطلبها لعمل عادي من أعمال المزرعة، حتى إذا وصلت إلى منزله رأت نفسها أمام الأمر الواقع، فتتزوج منه لفورها دون أن تتاح لها فرصة أخرى للمعارضة.

شرع العجوز يعد ما لذ وطاب من طعام وشراب، استعدادا لحفلة زفاف رائعة، وفي يوم الزفاف توافد على داره المدعوون. وبعث صبيا ممن يعملون بمزرعته إلى منزل جاره والد الفتاة ليرسل معه ما سبق أن وعده به، وقال للصبي وهو يلوح بقبضته: "وإذا لم تعد على جناح السرعة، ضربتك ضربا مبرحا"، وانطلق الصبي بسابق الريح إلى منزل الجار فقال له: "لقد أوفدني سيدي لأحمل إليه ما سبق أن وعدته به. وأرجوك أن تسرع فليس ثمة وقت نضيعه"، وقال الوالد: "طبعا.. أسرع إلى المرعى وخذها معك".. وأسرع الفتى إلى المرعى حيث وجد الفتاة مشتغلة بجمع البرسيم فقال لها: "لقد جئت لآخذ ما سبق أن وعد والدك سيدي به".. وقال الفتاة: "أهذا

ما دبرا.. حسنا.. أعتقد أنه يقصد فرسنا الصغيرة.. إنها في الحقل فاذهب بها"

وجرى الصبي إلى الحقل حيث وثب على ظهر الفرس وكر بها عائدا إلى منزل سيده، وسأل السيد: "هل أتيت بها؟" وقال الصبي: "إنها تنتظر لدى الباب"، وقال السيد: "اصعد بها إلى الغرفة التي كانت مخصصة لأمي"، وقاطعه الصبي: "ولكن كيف أستطيع ذلك يا سيدي؟"، قال السيد في انفعال وقد نفد صبره: "افعل ما آمرك به، وإذا لم تستطع ذلك وحدك فاستعن بالرجال الآخرين"

وأيقن الصبي ألا جدوى من المناقشة؛ فدعا جميع المزارعين لمساعدته، وأخذ البعض منهم يجذب الفرس من رأسها، على حين يدفعها الآخرون من الخلف. حتى تمكنوا في النهاية من الصعود بها إلى حجرة النوم، حيث تناثرت أدوات الزينة والحلي على الفراش.

وعاد الصبي إلى السيد يقول: "لقد تمت المهمة يا سيدي، وقد كانت مهمة متعبة".. وأجاب السيد: "لا بأس قل للنساء أن يصعدن إليها لإلباسها". وبدأ الصبي يقول: "ولكن يا سيدي... إنها.." وقال السيد: "لا تعلق على ما أقول.. قل لهن أن يلبسنها ولا ينسين وضع التاج على رأسها"

وهرول الصبي إلى المطبخ، وصاح: "أيتها الفتيات.. عليكن بالصعود لإلباس الفرس ملابس العروس"، وقد ظن أن السيد يريد أن يرفه عن

ضيوفه. وقد ألبسها النساء ملابس الزفاف الجميلة وثبتن الطرحة على أذنيها، وأبلغن السيد، وهن يغالبن الضحك بأنها على أهبة الاستعداد؛ فصاح بهن: "أنزلنها.. وسأتلقاها عند باب الحجرة..."

وانبعث من ناحية السلم، جلبة وضوضاء صاخبتان، فالعروس لم تكن تلبس حذاءً، بل كان لها حوافر، وعندما فتح باب الحجرة خطفت إلى داخلها عروس العجوز الغني، فانفجر المدعوون في عاصفة من الضحك حتى أمسك كل منهم بجنبه من شدة الضحك الذي استحال إلى ما يشبه الزئير.. أما السيد "العريس" فقد احمر وجهه حتى أصبح كعرف الديك، وتبين مدى ما احتمل من هذه العروس، وصحت عزيمته على أن يكف عن مضايقة ابنة جاره، ولا يعود إلى غزل المتصابي ما تبقى له من العمر.

اليونان

ديميتر و"برزيفون"

اليونان القديمة

كانت أعالي جبال صقلية، تحتضن واديا قديما جميلا اسمه وادي "إنا Enna"، تؤدي إليه ممرات وعرة شديدة الانحدار؛ فكان من النادر أن تصعد إليه الماشية وبعض الخنازير فتصيب شيئا من حشائشه الناعمة الحلوة، وتطعم من أزهاره النادرة؛ لم يكن له نظير بين أودية الجبال، وكان في مأمن من الرياح فلا تهب عليه سوى نسمات رقيقة وسريعة من الرياح الغربية، وكانت حشائشه وأزهاره متفتحة، وتنساب الغدران الباردة المتلألئة خلال أشجاره.

وكان وادي (إنا) مقرا لإلهة من أعقل الآلهة، هي "ديميتر Demeter" "أم الأرض" ربة كل ما تنبته الأرض من نبات وما يدب عليها من حيوان، وكانت تعلم ما تحويه حبات القمح الصغيرة، والفاكهة الناضجة، وكانت تحبو صغار الخراف والأطفال برعايتها.

وفي يوم ما كانت "برزيفون Persephone الصغيرة .. ابنة "ديميتر" تلعب في مروج "إنا"، كزهرة التفاح وخلعت هي وأترابها من أطفال حور الوادي نعالهن، وأخذن يعدون وأقدامهن عارية، على الحشائش الناعمة

ويتضاحكن كلما دغدغت الحشائش أصابع أقدامهن. وصاحت بهن "برزيفون" في مرح: "هيا بنا نقطف الأزهار"..

وهللت الصغيرات، وشرعن في جمع الزهور المتكاثفة في وادي "إنا"، فجمعن السنبل البري، وزهور البنفسج والزنبق والسوسن الأرجواني.. وفجأة أبصرت "برزيفون" زهرة ملكت عليها حواسها، وأنستها كل ما عداها، فبدت كما لو كانت نوعا جديدا وعجيبا من النرجس، وكان حجمها يختلف عن غيرها، وتحمل ساقها الوحيدة ما لا يقل عن مائة نوراة، وقد ملأ شذاها أرجاء الجزيرة، وجاوزها إلى البحر.

ودعت "برزيفون" رفيقاتها ليشاهدن هذه الزهرة الرائعة، ولكنها تبينت أنها وحيدة، إذ كانت قد خلفت زميلاتها وراءها وهي تنتقل من زهرة إلى أخرى. واندفعت لتقطف هذه الزهرة فوجدت ساقها كالحية الرقطاء، وخشيت أن يكون وخزها ساما. ولكنها لم تقو على مقاومة الرغبة في قطفها لشدة جمالها، ولم تقو على كسر ساقها؛ فحاولت اقتلاع جذورها. ولانت الطينة السوداء حول الساق فجأة، وسمعت الصبية فرقعة تنبعث من تحت الأرض التي انشقت في الحال عن مغارة سوداء فسيحة، وثبت من أعماقها أربعة جياد سوداء مسومة تجر مركبة ذهبية، وكان يجلس فيها ملك متوج لم يسبق لعين أن رأت وجها ارتسمت عليه آيات الحزن كهذا الوجه، وحملقت "برزيفون" فيه دهشة.

وعندما لحظ الملك الحزين الطفلة بجانب الزهرة، وقد ثبت الخوف قدميها، أوقف جياده لحظة، ومال إلى الأمام، ورفعها عن الأرض، وأجلسها بجواره بالمركبة ثم ألهب ظهور جياده، وانطلق يسابق الريح.

وصرخت "برزيفون" باسم أمها وأطبقت على زهورها.. ولم يدر أحد ما حدث، سوى "هليوس Helios" إله الشمس الذي شهد الملك ذا الوجه الحزين وهو يخطف "برزيفون" و"Hecate" التي سمعت صراخها وصوت العجلات أثناء وجودها في غارها.

وكانت "ديميتر" بعيدة عن هذا المكان، في بلدة أخرى في الجهة الأخرى من البحر تشرف على الحصاد، ورغم بعد المشقة سمعت صرخة "برزيفون" فاندفعت إلى بيتها كما تندفع طيور البحر عندما تسمع استغاثة صغارها تتناهى إليها. ودوى نداؤها مجلجلا في جنبات الوادي، ولكن ما من مجيب، أما الزهرة العجيبة فقد اختفت ولم يبق سوى بضعة زهور برية متناثرة على الحشائش. وبالقرب منها آثار قدمي الطفلة الصغيرة، وكانت "ديميتر" على يقين أنها آثار قدمي "برزيفون" العاريتين، ولكنها لم تستطع أن تقتفي أثرها، إذ ذهب بمعالمها قطيع من الخنازير كانت ترعى في هذا المكان وخلفت وراءها آثار حوافرها.

ولم تستطع "ديميتر" أن تقف على شئ من أخبار ابنتها من حور الوادي، وأطلقت رسولها الخاص، طائر الكوركي الأبيض العظيم الذي

يجلب الأمطار، ولكن على الرغم من السرعة التي طار بها والمسافات التي قطعها لم يعد بخبر عن "برزيفون".

ولما أقبل الظلام أوقدت "ديميتر" شعلتين على قمة جبل "أتنا" المشتعلة، وأخذت تطوف الفيافي والقفار والوديان، واستمرت على هذه الحال تسع ليال وتسعة أيام. ولما أقبل فجر اليوم العاشر التقت بـ "هيكيت" التي كانت تحمل ضوءا في يدها، كأنما تبحث هي الأخرى عن شئ . وقصت على "ديميتر" خبر ما سمعت من صراخ وقرقعة العجلات، دون أن ترى شيئا، ومضت بها إلى "هيلوس" إله الشمس تسأله عما شهد في ذلك اليوم.

وكان "هيلوس" جالسا في عجلته على استعداد لاستئناف رحلة اليوم عبر السماء؛ فأوقف جياده النارية لحظة، وأخبر "ديميتر" بأن "هادس Hades" ملك العالم السفلى هو الذي سرق ابنتها، واصطحبها لتقيم معه بقصره العظيم.

ولما سمعت "ديميتر" ذلك، أيقنت ألا أمل لها في استعادة ابنتها، ونأت عن الآلهة الآخرين، وحبست نفسها في الأماكن المظلمة من الأرض، وحتى الناس اعتزلتهم أيضا لأنها أينما ذهبت.. أبصرت الأمهات وحولهن أطفالهن، وما كانت تطيق أن تراهن متمتعات بالسعادة التي حرمت منها.

وهكذا أخذت تسعى في الأرض وحيدة حزينة على ابنتها التي فقدتها، وفي غمرة حزنها أهملت "ديميتر" الحب في الأرض، فلم ينم نبات

ولا زرع، وندر القمح حتى خلت منه الطواحين، وقل الخبز، وجاعت الناس، وافتقد الإنسان والحيوان النبات "ديميتر" فجفت الحشائش حتى أصبحت هشيما، وتجردت الأشجار في بساتين الزيتون من أوراقها، ورحلت الطيور إلى بلد بعيد، وهزلت الماشية وأصبح منظرها يثير الشفقة والرثاء لحالها.

ورأى "زيوس"Zeus أنه دون (ديميتر) – الأم العظمى – لن تكون هناك حياة على الأرض، وعلى مر الزمان سيهلك الإنسان والحيوان جميعا لحاجتهم إلى الطعام، وكلف "إيريس" Iris قنطرتها – قوس قزح – في السماء وتهبط عليها بسرعة إلى ذلك الكهف المظلم حيث كانت "ديميتر" تندب ابنتها حتى تنسيها حزنها لتعود إلى الحقول، حيث الحاجة الماسة إليها.

ووجدت "إيريس" "ديميتر" منزوية في أحد أركان الكهف، وقد اشتملت بأقمشة زرقاء داكنة، كادت تخفيها، وكان لقدوم "إيريس" بهجة، إذ أرسلت ألوانا جميلة في كل مكان، ولكن "ديميتر" لم تطرب لها.

وأرسل "زيوس" الآلهة الواحد بعد الآخر إلى ذلك الكهف، ولكنهم باءوا بالفشل وعجزوا عن إقناعها بالعودة إلى الأرض، وعندئذ أوفد "زيوس" "هرمز" "Hermes" إلى مملكة "هادس" ليقنع الملك ذا الوجه الأسود بأن يسمح لـ "برزيفون" بالعودة إلى أمها، ولما كاشف "هرمز" "هادس" بالغرض من زيارته استخف "برزيفون" الشوق إلى أمها.. فوثبت عن

عرشها، فقبل "هادس" وأمر بإعداد المركبة الذهبية والجياد السوداء، ولكن قبل أن تقفز إلى المركبة سألها أن تأكل رمانة من الشجرة التي نمت بالحديقة، وتناولت "برزيفون" أربع حبات منها فقط، ثم انطلقت المركبة بـ "هرمز" والطفلة إلى الكهف حيث جلست "ديميتر" عاكفة على أحزانها.

وما أن رأت "ديميتر" ابنتها حتى ضمتها في فرحة شديدة ثم سألتها في قلق: "خبريني يا طفلتي.. هل تناولت طعاما منذ انتقالك إلى تحت الأرض؟" وأجابت "برزيفون": "أربع حبات من رمان فقط". فاستولى على "ديميتر" اليأس، واتجهت إلى "زيوس" فأخبرها بأن "برزيفون" ستقضي كل سنة ثمانية شهور مع أمها، ثم تقضي الأربعة الباقية، شهرا لكل حبة من حبات الرمان في العالم السفلى مع "هادس".

وهكذا عادت "ديميتر" إلى واديها الجميل "إنا" ونبتت الحبوب الصغيرة ونمت، وأخضرت الحشائش، واكتست أشجار الزيتون والعنب بأوراق جديدة، وعادت أسراب العصافير الصغيرة جميعها، وفي مقدمتها "الكوركي" طائر "ديميتر".. ولكن ما أن يحين الوقت الذي تذهب فيه "برزيفون" إلى "هادس" حتى تختفي "ديميتر" وتعمد إلى الكهف حيث تجلس في زواياه، كما كانت تفعل من قبل، وتغفو الطبيعة كلها برهة، ولكن لم يعاود الفلاحين الخوف لأنهم على يقين من عودة "برزيفون"، وأن "ديميتر" أم الأرض ستعني ثانية بأطفالها.

الأسد والنمر والنسر

اليونان الحديثة

كان في غابر الزمان: ملك له ثلاثة أبناء وثلاث بنات، ولما أشرف على الموت، دعا أبناءه وقال لهم "أي أبنائي.. لقد دنت نهايتي، ووصيتي إليكم أن تزوجوا أخواتكم أولا قبل زواجكم". والتفت إلى أصغر أبنائه قائلا "أما أنت فقد احتفظت لك بجنية حبيسة في الحجرة البلورية، وبعد أن تتزوج أخواتك عليك بالزواج بها أنت الآخر".

وبعد مزيد من النصح لهم، لفظ أنفاسه، وبعد أيام لحقت به الملكة، وتركا أولادهما الستة من بعدهم أيتاما، ولم يمض وقت طويل، حتى أتى أسد إلى القصر يطرق الباب. وتصايح الأطفال "من بالباب؟" وأجاب الأسد "أنا الأسد جئت لأتزوج أختكم الكبرى". وسأله الأطفال: "وكم يبعد مسكنك؟". وأجاب الأسد: "على مسيرة خمسة أيام لمثلي، ومسيرة خمسة أعوام بالنسبة لكم"، وصاحوا: "خمسة أعوام.. لن ندع أختنا تذهب معك.. وإلا فكيف نعودها إذا مرضت؟"

ولكن الأخ الأصغر ذهب بأخته الكبرى إلى حيث يقف الأسد وقال لها: "اذهبي حيث يذهب بك حظك".

وما إن تبادلا الحب حتى حملها الأسد ومضى بها، وقد أسف الجميع لرحيلها، عدا الأخ الأصغر الذي كان يفكر في نصيحة والده وقد أخلد إلى الصمت. وفي اليوم التالي أتى نمر يطرق الباب، وسأله الأطفال: "ماذا تريد؟"؛ فأجاب: "جئت لأتزوج من أختكم الثانية". وسأله الأطفال وقد تملكهم الخوف: "وكم يبعد مسكنك؟". فأجاب: "على مسيرة عشرة أيام لمثلي، وعشرو سنوات لمثلكم". وصاح الأطفال: "عشرة سنوات!!.. لن تترك أختنا تذهب"، ولكن الأخ الأصغر ذهب بأخته الثانية إلى حيث يقف النمر الذي مضى بها مسرعا.

وفي اليوم التالي أتي نسر يطرق الباب، وسأل الأطفال "من بالباب؟". فأجاب النسر: "جئت للزواج بأختكم الصغرى". وسألوه: "وعلى أي مسافة يقع مسكنك؟". فأجاب: "على مسيرة خمسة عشر يوما لمثلي، أما لأمثالكم فخمسة عشر عاما". وصاح الأخوان الأكبر والأوسط: "لن نترك أختنا تذهب، فقد بعدت الأخت الأولى عنا بمسيرة خمسة أعوام، والثانية عشر سنوات.. وهذه أنرسل بها أيضا على مسيرة خمسة عشر عاما!!.. لا لن يكون ذلك". لكن الأخ الأصغر ذهب بأخته الصغرى إلى النسر.

وبعد زواج الفتيات الثلاث: تزوج الأخوان الأكبر والأوسط، وفي النهاية مضى أصغرهم إلى الحجرة البلورية ففتحها وأخرج منها الجنية، وفرت الجنية لفورها، وهي تصيح به: "إذا أردتني فعليك بصنع عكاز

وحذاء من الحديد وأت (إلى اللينيز والألاكوزيانز) فوق جبال المرمر خلال المروج البلورية".

وصنع الأخ الأصغر عصا وحذاءً من الحديد، وسعى يبحث عن الجنية، وبعد أن قضى خمس سنوات في الرحلة بلغ مسكن أخته الكبرى، وجلس بالفناء الخارجي على مقعد حجري، وبينما هو كذلك إذ خرجت خادمة لتملأ دلوا من الماء فسألها الشرب من الدلو فرفضت في البداية، ثم استجابت في النهاية إلى توسلاته وناولته الدلو، وفيما هو يشرب أسقط فيه خاتمه ، وحملت الخادمة الماء إلى سيدتها التي أدركت في الحال أن أخاها في الخارج. وسألت الخادمة "لمن قدمت الماء؟". فأجابت الخادمة "لم أقدمه لأحد"، وقالت السيدة: "لا تخشي شيئا.. خبريني عن الرجل"؛ فأجابت الخادمة: "إنه عابر سبيل.. كان يجلس على المقعد الحجري بالخارج، وسألني جرعة ماء فقدمتها له". وقالت الأخت الكبرى "اذهبي وائتني به"

ولما التقيا تعانقا، وسألته أخته: "ما الذي أتى بك إلى هنا؟".. فقص عليها ما وقع، وفيما هما يتحدثان تناهى إلى سمعهما صوت الأسد عائدا إلى المنزل، فقال له "فلأخبئك.. خشية أن يراك فيأكلك" ثم ربتت عليه فاستحال إلى مكنسة أسندتها إلى الباب. ودخل الأسد فقال "أشم رائحة دم ملكي" فأنكرت ابنة الملك وجود أحد، وفيما هما يأكلان سألته "ترى.. ماذا أنت فاعل بأخي الأكبر لو قدم هنا؟" فأجاب الأسد "أنهش أحشاءه"، وسألته: "وإذا حضر أخي الثاني؟"، قال: "أمزق لحمه إربا"، وعادت فسألته "وإذا جاء أخي الأصغر؟" أجاب الأسد: "إذن لقبلته بين

عينيه".. قالت "إذن فهو هنا".. قال الأسد: "وتخبئينه مني؟"، ثم تناولت المكنسة وربتت عليها فإذا هي أخوها الأصغر. وعانقه الأسد وقبله وسأله عما جاء به؛ فحدثه بكل ما حدث له، وسأله عما إذا كان يعرف أين يقع المكان الذي ذكرته الجنية قبل اختفائها. فأجاب الأسد "إنني لشديد الأسف؛ فأنا لا أعرف هذا المكان، ولكني سأجمع غدا كل الحيوانات فقد يعرفه أحدها"

وفي الغد، دعا الأسد إليه جميع الحيوانات فأتته ولكنه لم يجد بينها من يدله على المكان.

واستأنف الأخ الأصغر الرحلة باحثا عن الجنية البلورية، وبعد أن سلخ في رحلته خمسة أعوام أخرى بلغ منزل أخته الثانية، فجلس على مقعد حجري في الفناء الخارجي، ولما خرجت الخادمة لتحضر الماء سألها أن تسقيه من الدلو، وأسقط فيه خاتمه، فرأته أخته وأرسلت الخادمة تدعوه. وبعد أن تعانقا سألته عن سبب حضوره، وفيما هو جالس يروي لها ما وقع له، سمعا صوت النمر عائدا إلى المنزل، فربتت عليه وأحالته إلى صندوق قمامة حتى لا يأكله النمر. وما كاد النمر يدخل المنزل حتى قال "أشم رائحة دم ملكي" فأنكرت وجود أحد. وبينما هما يأكلان سألته "ترى ماذا أنت فاعل بأخي الأكبر لو أنه حضر إلى هنا؟". قال النمر: "إذن لبقرت بطنه". قالت: "وماذا لو حضر أخي الثاني؟". قال: "إذن لفريت لحمه". قالت: "فإذا كان أخي الأصغر؟". فأجابها: "إذن ألقاه بما يلقى به الأخ أخاه". قالت: "إنه جاء فعلا، وخشيت أن تأكله فخبأته". وربتت على

صندوق القمامة، وظهر أخوها الأصغر، فعانقه النمر وقبله وسأله عن سبب حضوره.

وقص الأخ الأصغر قصته كاملة وراح يسأل النمر عن تلك البلاد، وأظهر النمر أسفه لأنه لا يعرف مكانها، ووعده أن يجمع الحيوانات في الغد لعل بينها من يعرف، وفعلا جمع الحيوانات ولكن دون جدوى.

وعاود الأخ الأصغر المسير من جديد، وبعد خمس سنوات أخرى وصل إلى منزل الأخت الصغرى، وجلس ثانية على مقعد حجري أمام المنزل، وعاد يرجو الخادمة أن تسقيه، وأسقط خاتمه في الدلو، ولما رأته أخته الصغرى عرفت بوجود أخيها بالخارج فأرسلت تدعوه، وأقبل عليها وتعانقا وقبل كل منهما الآخر وسألته عما جاء به؛ فقص عليها ما وقع له.

وعندما أقبل النسر رحب به وسأله عن سبب حضوره فأعاد سرد قصته سائلا النسر عما إذا كان يعرف تلك البلاد. وأجاب النسر مبديا أسفه لعدم معرفته إياها، ووعد أن يجمع الطيور في الغد لعل بينها من يعرف. وفي الصباح جمع الطيور لديه وسألها، ولكن لم يكن من بينها من يعرف هذه البلاد، وقال واحد منها: "ومهما يكن من أمر، فهناك أنثى صقر عرجاء مازالت غائبة، وقد تكون على علم بالمكان". وأتت أنثى الصقر العرجاء، وأجابت بأنها تعرف المكان المنشود؛ فقال لها النسر: "إذن خذي هذا الأمير إليه حيث تشرف جبال المرمر على المروج البلورية". فأطاعته، ولما وصلت به إلى هناك كان الحذاء الحديدي قد ملأته الثقوب

والعصا الحديدية قد تآكلت، وكانت الجنية تنتظره بين جنيات أخريات، وتقدمت منه وعانقته وقبلته، وعاد بعروسه إلى قصر الملك حيث تزوجا في ظل السعادة والهناءة!!

تشيكوسلوفاكيا

صهر الشيطان

كان في تشيكوسلوفاكيا، منذ سنوات طويلة، فتى اسمه "بيتر Peter"، ماتت أمه ثم لحق بها أبوه، وكان مزارعا غنيا، فحرمته زوج أبيه نصيبه في الميرات، ودفعت به إلى عرض الطريق وهي تصيح به: "اذهب عني، فلست أحب أن أراك". وسألها "بيتر": "ولكن إلى أين أذهب؟". فصاحت غاضبة: "اذهب إلى الشيطان فأمرك لا يعنيني" وأغلقت الباب في وجهه.

ومشى "بيتر" إلى الطريق متثاقلا حزينا، وبين وقت وآخر كان يلتفت وراءه ليلقي نظرة وداع على المزرعة التي طالما أحبها. وكان "بيتر" فتى قويا لا يهاب العمل، وكان لا ثقة من قدرته على شق طريقة في الحياة، فسار وئيدا إلى القرية المجاورة، وتوجه إلى البيت الكبير الذي يسكنه مالك المزرعة، وكان واقفا بمدخل الباب يأكل خبزا وزبدا.

ورفع "بيتر" قبعته محييا وقال: "فلنحمد الله جميعا". وأجاب المزارع: "إلى يوم القيامة" ثم ازدرد ما بيده من خبز وسأله عما يبحث. فقال "بيتر": "أبحث عن عمل.. فهل أنت في حاجة إلى عامل يعمل بمزرعتك، فإني ملم تماما بشئون الفلاحة". فقال المزارع ساخرا: "أنت؟.. وبهذه الملابس الجميلة؟ اذهب إلى الشيطان"، وأغلق الباب في وجهه.

وسار "بيتر" إلى القرية التالية، وأخذ يطرق باب منزل الشريف، وفتحت زوجة الشريف الباب، وكانت سيدة كريمة. تحدثت إليه في صوت رقيق، فقالت له إن السيد يلعب الورق مع اثنين من أصدقائه، وطلبت منه أن ينتظر حتى تسأله ما إذا كان ثمة عمل له. ثم دخلت المنزل وتركت الباب مفتوحا.

وسمعها "بيتر" تتحدث إلى أحد الأشخاص، وسمع صوتا خشنا يصيح: "كلا.. كم مرة أشرت إليك ألا تزعجيني عندما أكون مشغولا.. أخبري هذا الوغد أن يذهب إلى الشيطان"

ولم ينتظر "بيتر" عودتها، وسار مبتعدا متعبا مثقل القلب، ومضى في طريقه يخترق الغابة، حتى إذا قطع مسافة بين الأشجار الخضراء، جلس على حجر هناك معتمدا بذقنه على راحتيه، وبدا له أن الدنيا قد ضاقت به، وأحس برغبة في البكاء، ولكنه استحى من البكاء لكبر سنه. وود لو عرف الطريق إلى الجحيم ليذهب دون تردد إلى الشيطان.

وفي هذه اللحظة مر به رجل أنيق الملبس يرتدي ملابس خضراء، ولمس "بيتر" قبعته في أدب تحية للرجل، وقال "فلنحمد الله جميعا". ولكن الرجل لم يرد التحية، ثم نظر خلفه وتوقف وسأل "بيتر": "لماذا تبدو يائسا إلى هذه الدرجة يا ولدي؟".. وأجاب "بيتر": "لأنني حيثما بحثت عن عمل، قال لي الناس أن أذهب إلى الشيطان، ولو عرفت الطريق إلى

الجحيم لأتبعت نصحهم؛ فمن المؤكد أني سأجد الشيطان أكثر عطفا من الناس"

ولاحت على شفتي الرجل ابتسامة عجيبة وسأله: "ولكن ألا تخشى الشيطان لو قابلته؟" وقال "بيتر": "كلا فأنا على يقين من أنه لن يكون أسوأ من زوج أبي أو المزارع أو الشريف". وفجأة تحول لون الرجل إلى سواد، وقال لبيتر: "هذا أنا.. أنا الشيطان". وفي غير خوف، أخذ "بيتر" يتفرس فيه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه في هدوء، ثم قال في اطمئنان: "إذن فأنت الشيطان؟".. وقال الشيطان: "نعم هو أنا.. وإن رغبت في العمل لدي فأمر جميل! وفي مقدوري أن أستخدم فتى كدودا غير هياب مثلك، وخاصة أن العمل هين وساعاته قليلة، وإذا أطعتني فستستمتع بوقت طيب"، وقال "بيتر": "إني راغب في العمل معك". قال الشيطان: "حسنا.. سأبقيك في خدمتي سبع سنوات.. أمنحك بعدها هدية وأسرحك.. فهل تقبل؟"، وقال "بيتر": "قبلت". وشد كل منهما على يد الآخر تأكيدا للاتفاق.

وطوق الشيطان "بيتر" بذراعه، وفي أقل من لمح البصر، كان قد انتقل إلى الجحيم، حيث أعطاه الشيطان مئزرا من الجلد، وأدخله إلى حجرة بها ثلاثة قدور ضخمة. وقال الشيطان موضحا: "إن عملك ينحصر في إبقاء النار مشتعلة تحت هذه القدور، فتمدها بالوقود.. أربع كتل من الخشب تحت القدر الأولى، وثمانية تحت الثانية، واثنى عشر تحت الثالثة،

وحذار يا "بيتر" أن تنظر ما بداخلها". ووعد بيتر بقوله: "سأذكر ذلك دائما"، وشرع على الفور في العمل تغمره السعادة.

ومضى الوقت سريعا، واستمتع "بيتر" بحياته في الجحيم، والواقع أنه كان يلقى معاملة طيبة، حتى لقد ظن نفسه يعيش في الجنة، فكان لديه الوافر من الطعام الشهي والشراب اللذيذ، ولم يكن هناك من ينهره، وكان يجد في صحبة صغار الشياطين مرحا، إذ كانوا يقصون عليه أحسن القصص، ويلعبون ألعابا مختلفة بعضهم مع بعض، وكان هو عند وعده للشيطان؛ فحافظ على عدد الكتل الخشبية المفروض وجودها تحت كل من القدور الثلاث، ولم يحدث مرة أن نظر إلى ما بداخلها، وكان الشيطان راضيا تماما عن عمله.

ولكنه بدأ في النهاية يحس بالحنين إلى الحياة على الأرض، وشعر بالشوق إلى رؤية العشب الأخضر والسير في الغابات والحديث ثانية إلى القرويين؛ فسأل الشيطان عن المدة الباقية له في خدمته، لأنه لم يكن يتبين مر الأيام.

وقال الشيطان: "غدا.. تكون أتممت السنوات السبع". وفي اليوم التالي، بينما كان "بيتر" يضع كتلا جديدة تحت القدور دخل الشيطان إلى الحجرة قائلا له: "أنت حر منذ اليوم يا بيتر.. لقد خدمتني بأمانة وإخلاص، ولما كانت النقود يثقلك حملها معك في عودتك إلى الأرض؛ فسأعطيك هذه الحافظة المسحورة، وإن فتحتها في أي وقت وطلبت منها

أي مبلغ من النقود أتتك به الحال، وإني أتمنى لك حظا طيبا؛ فقد أحببتك كما تعرف ولكني لا أعتقد أنك ستوفق كثيرا في البداية لأن الناس سيظنونك الشيطان فقد اسود لونك تماما لأنك لم تغتسل ولا مرة واحدة طوال تلك السنوات السبع، وكذلك لم تشذب شعرك أو تقلم أظافرك".

وقال بيتر: "هذا صحيح. فإنني لم أستحم منذ قدومي إلى هنا ويلزمني أن أغتسل وأقص شعري".

وقال الشيطان: "لا يا "بيتر" فلن يجديك حمام واحد نفعا، إذ الماء لا يزيل سوادنا، ولست بمخبرك عن السبيل لذلك فلتصعد إلى الأرض بحالتك هذه، وإذا سألك الناس من عساك تكون فخبرهم بأنك الصهر الصغير للشيطان.. وفي أي وقت تحس فيه بالحاجة إلي ناديني".

وودع "بيتر" الصبيان الصغار، وقد أحزنهم أن يغادرهم، وحمله الشيطان على ظهره، وانتفض به إلى ظاهر الأرض، حيث أنزله في نفس المكان الذي لقيه فيه أول مرة منذ سبع سنوات في الغابة.. ثم ودعه الشيطان واختفى عن ناظره، ومشى "بيتر" إلى أقرب قرية والمحفظة المسحورة في جيبه.

وما كاد الأطفال الذين يلعبون في الطريق يبصرونه حتى تعالى صراخهم، وطاروا إلى بيوتهم وهم يصيحون "الشيطان!! الشيطان قادم!!". وأسرعت الأمهات والآباء إلى الخارج ليتبينوا ما حدث، ولكنهم ما رأوه

حتى هرولوا إلى داخل بيوتهم محكمين غلق الأبواب والنوافذ، وأخذوا يصلون إلى الله يسألونه أن يحميهم منه.

وقد ضاق "بيتر" قليلا بما حدث، ولكنه أخذ طريقه إلى الفندق، ولما أشرف عليه رأى صاحبه وزوجته واقفين ببابه في ضوء الشمس؛ فيمم شطرهما في خطو وئيد، وهو يعجب: أهو من السواد بقدر ما يظنه الناس!!

وما كاد يبصر به صاحب الفندق وزوجته حتى أسرعا صارخين إلى الداخل، وصدم كل منهما الآخر فسقطا على الأرض، وضحك "بيتر" وخطا فوقهما إلى داخل الفندق، حيث جلس وصاح بصاحب الفندق، وهو مازال يغرب في الضحك أن يوافيه بشراب.

أما صاحب الفندق وزوجته، فقد خلصا نفسيهما ودخلا يرتجفان من الخوف.. وهرولت الزوجة إلى الحجرات الخلفية، وأسرع الزوج، وهو شاحب يرتعد إلى القبو يسحب منه جرة كبيرة من الجعة. ونادى الرجل غلاما صغيرا، كان يعمل لديه في حظيرة الخيل يدعى "ييريكYirik " وأتى الغلام مسرعا ملبيا العجلة البادية في صوت سيده، وقال: "ما الذي حدث.. يا سيدي؟". وقال الرجل: "أسرع بهذه الجرة إلى الفندق، فهناك سيد غريب ينتظرها، ولكن لا تخف منه فهو لن يؤذيك". ودخل "ييريك" إلى الفندق يحمل جرة الجعة، ولكنه ما كاد يرى "بيتر" حتى ألقى بها على الأرض وفر إلى الحظيرة.

ووقف صاحب الفندق بجسمه الضخم عند الحظيرة ليوقفه وأمسك بقميصه وصرخ في وجهه: "إلى أين تجري.. لم لم تقدم الجعة للسيد؟ وكسرت الجرة كذلك؟.. سيخصم ثمنها من راتبك.. هيا احمل جرة أخرى إلى السيد"، ودفعه دفعة قوية إلى حيث كان يجلس "بيتر".

كان "ييريك" شديد الخوف من "بيتر"، ولكنه كان من سيده أشد خوفا، فقد كان يعمل لديه لقاء المأوى وخمسة عشر شلنا في العام، ومضى بيدين مرتعدتين يحمل جرة أخرى، ثم حمل نفسه حملا على دخول الفندق.

قال له بيتر في صوت رقيق: "طاب يومك يا فتى.. لا تخف فلن أوذيك، فأنت تعرف أنني لست الشيطان".

وارتعد "ييريك"، ولكنه حمل الجرة بيد ثابتة، واستطرد "بيتر" وهو يبتسم: "إنما أنا الصهر الصغير للشيطان".

ووضع "ييريك" الجعة أمام "بيتر"، وظل واقفا هناك، دون أن يجرؤ على النظر إلى صهر الشيطان الصغير.

وسأله "بيتر": "من أنت؟.. إنها لجعة رائعة.. لم أكن أعرف أني على هذه الدرجة من الظمأ".

أجاب "ييريك" والخوف يمنعه من رفع عينيه إلى محدثه "أنا يتيم". وقال بيتر: "وكيف تأتى لك أن تعمل هنا؟"

أجاب "ييريك": "كان عليّ أن أجد عملا"، ثم تجاسر وأخذ يتحدث في عيني "بيتر" واستطرد قائلا: "لست أهاب العمل". وقال "بيتر": "ولا أنا.. ولكن يبدو مما رأيت أنك لا تلقى معامله حسنة".

وأخذ "ييريك" يتفرس في "بيتر" وزال عنه الخوف، وراح يحدثه كما لو كان صديقا، وقال في تواضع: "إن العمل لا يضايقني"، وأثارت "بيتر" قصة "بيريك" التي ذكرته بقصته هو؛ فأخرج الحافظة المسحورة وملأ قبعة "ييريك" بالدوكات الذهبية.. وبهت الفتى اليتيم في البداية ثم استخفته الفرحة فأخذ يقفز فرحا، وضم بيتر إلى صدره، وركض إلى الحظيرة حيث أرى سيده منحة السيد الغريب. وعرض على أهل القرية أيضا ما تحتويه قبعته من دوكات ذهبية. وكان يصيح: "ليس هو بالشيطان.. وإنما هو صهره الصغير"!!

ولما لم يكن لبيتر قرون في رأسه، فقد انقلب صاحب الفندق في لحظة، ولمجرد التفكير في الدوكات الذهبية، شجاعا، وأسرع إلى الفندق وهو يحمل جرة من الجعة يعلوها الزبد، فوضعها أمام "بيتر" وقال في صفاقة: "هلا جدت لي يا سيدي العزيز بمثل ما جدت به على خادمي من دوكات ذهبية؟".. فضحك "بيتر"، وقال: "أعتقد أني سأجد حجرة طيبة وفراشا وثيرا ما دمت سأمضي الليلة هنا". وقال الرجل: "لك كل شئ". وما أن نام "بيتر" حتى أحس بيد تهز كتفه، ففتح عينيه ورأى الشيطان واقفا بجانب فراشه. وهمس إليه الشيطان: "أسرع.. انهض.. أسرع إلى

الحظيرة.. فصاحب الفندق يوشك أن يقتل اليتيم من أجل تلك الدوكات التي منحته إياها".

وقفز "بيتر" من الفراش، وجرى إلى الحظيرة حيث ينام "ييريك"، وعندما دفع الباب رأى الرجل يهم بطعن الفتى الصغير بخنجر في يده. وصرخ "بيتر": "يا قاتل.. سأحملك فورا إلى الجحيم حيث تظل إلى الأبد يحمى عليك في الزيت المغلي". وأغمى على الرجل من فرط الهلع، وجره "بيتر" داخل الفندق وألقاه على الأرض، وعندما أفاق مضى وهو يرتجف رعبا.. يسأل "بيتر" الرحمة، ووعده بأن يتنازل له عن أملاكه إن عفا عنه، وعبس "بيتر" ومازال الرجل يرتجف كأنه ورقة شجر وسط العاصفة.

وقال بيتر "لست بحاجة إلى أملاكك، ولكن عليك أن تحسن معاملة "ييريك" كما لو كان ولدك، فكن به رحيما وارسله إلى المدرسة ليتعلم". وقال الرجل وهو يشهق: "أعدك بذلك..." وقال بيتر: "قف ولا تنس أنه في اللحظة التي تقسو فيها ييريك سأحملك إلى الجحيم". وأجاب الرجل "لن أنسى".

وكان الرجل عند وعده، ومنذ هذه الليلة انقلب الرجل شخصا آخر فأرسل ييريك إلى المدرسة، وقدم له أطيب الطعام، وصار كريما معه، كما تعلم كيف يكون، وأقلع عن شره وأصبح شريفا مستقيما.

ووجد "بيتر" الإقامة بالفندق مريحة فبقي به، وكان يخرج إلى الغابة عندما يشعر برغبة في ذلك، وذاع صيته وصيت دوكاته الذهبية. وفي أحد

الأيام أوفد إليه أمير المقاطعة رسولا يسأله أن يقابله بالقصر، وأجاب "بيتر" بأنه إذا كان الأمير يود أن يلقاه؛ ففي مقدوره أن يقابله بالفندق، وشحب لون الرسول قليلا ومضى مسرعا.

وسأل "بيتر" صاحب الفندق عن الدافع الذي حدا بالأمير إلى أن يطلبه، وقال الرجل إنه يحتمل أن يكون الأمير في حاجة إلى بعض المال، ثم قال: "إن للأمير بنتين شريرتين مسرفتين، لا يملك حيالهما شيئا، فهما تبعثران أموال البلاد كما لو كانت رمالا، حتى كاد الناس يثورون على الأمير. وهاتان البنتان هما ثمرة زواجه الأول، ولكن له ابنة ثالثة من زوجته الثانية اسمها "أنجيلينا". ففهمهم "بيتر" وهو يمد يده إلى قدح الجعة، وقد استغرقه التفكير..

واستطرد صاحب الفندق يقول: "وهي طيبة كالملاك، بل يحتمل أن تكون أوفر جمالا منه. رعاها الله، لم يسبق لي أن رأيت ملاكا، ومع ذلك فلا أكاد أتصور أن أي ملاك يمكن أن يفوق هذه الأميرة جمالا.. وأما الأخريان؛ فحري بهما أن تذهبا إلى الشيطان".. وتذكر فجأة إلى من يتحدث فغص بريقه وضرب بيده على فمه وهو يقول "يا إلهي"

وضحك "بيتر" قائلا: "لا تفكر فيَّ، فأنا لست الشيطان، وإنما أنا صهره الصغير".

قال الرجل: "ولو، فلست أرى فارقا كبيرا" ثم أسرع، وقد اشتدت ضربات قلبه فأحضر جرة جعة أخرى لبيتر.

وفي أصيل أحد الأيام، بعد زمن وجيز، بينما كان "بيتر" يهم بمغادرة الفندق إلى نزهة بالغابات، وصل الأمير على ظهر جواده. وتمتم "بيتر" قائلا: "يا للمضايقة"، ولكنه آثر أن يتريث ليرى ماذا يطلب الأمير. وارتعد الأمير عندما أبصر "بيتر"، ولكنه دعاه في عبارة مؤدبة إلى زيارة القصر في أي وقت يريد. ثم سأله أن يقرضه ملبغا كبيرا من المال.

قال "بيتر": "سأعطيك ما تريد من مال إذا وعدتني بالزواج من إحدى بناتك"، وسأله الأمير: "أيهن تريد؟" أجاب بيتر: " كلهن سواء.. أي واحدة منهن" وقدم للأمير بعض المال، وقبل دعوته لزيارة القصر في اليوم التالي ليرى عروسه المقبلة. وعندما عاد الأمير إلى قصره أخبر بناته بما كان من مقابلته لصهر الشيطان، وقال إنه لو اغتسل وقص شعره وقلم أظافره، لما بدا في صورته القبيحة.

وتحدث إليهن الأمير بعد ذلك، في لهجة جدية، عن الدولة والخزانة، وأوضح لهن أنه إذا لم يتمكن في وقت قصير من الحصول على مبلغ كبير من المال سرت الثورة بين الشعب، وطلب إليهن أن تتزوج إحداهن من "بيتر"إذ لم ير وسيلة أخرى يحصل بها على المال المطلوب ويحفظ السلام في الإقليم.

وضحكت الأميرتان الكبيرتان وسخرتا، وأعلنت كل منهما أنها لن تتزوج من مخلوق أسود كبير، ولو انتهى الأمر في إقليم إلى الانهيار والدمار. وقال الأمير في بأس: "إذا كان الأمر كذلك.. فلست أدري ما أفعل".

ولكن "لينكا" الصغيرة وضعت يدها على ذراع أبيها وهي تقول: "سأتزوجه أنا يا أبت.. مادام في ذلك سعادتك وسلام إقليمنا". وسخرت منها أختاها الكبيرتان قائلتين "صهرة الشيطان الصغيرة.. إذا كنت ستتزوجين الشيطان نفسه كان الأمر معقولا بعض الشئ لأنك تصبحين عندئذ الأميرة "لوسيفير" أما أن تكوني مجرد صهرته!! هو.. هو.. إن صغيرتنا "لينكا" لحمقاء"

وفي اليوم التالي قدم "بيتر" إلى القصر، ورأت الأختان الكبيرتان مبلغ سواده، ففرحتا برفضهما الزواج منه، ورأته لينكا فأغمي عليها، وشعر "بيتر" بالمرارة لهذا، ولما ثابت إلى وعيها قدمها الأمير إلى "بيتر"، وضع يدها بين يديه، وكانت ترتجف رعبا، وبدها الصغيرة في برودة الثلج.

همس بيتر إليها: "لا تخشي يا أميرتي الصغيرة.. أعرف أن منظري مخيف، ولكن لن أكون على هذه الصورة دائما، وإذا تزوجتني أقمت على حبك دائما". وارتاحت إلى صوته الرقيق، ولكنها ما أن نظرت إليه مرة إلا وسرت في كيانها رجفة من الخوف، ثم أسرع خارجا، وقد وعد بالعودة بعد ثمانية أيام لإتمام الزفاف.

وقصد "بيتر" إلى حيث قابل الشيطان أول مرة بالغابة، وناداه باسمه، فظهر أمامه في الحال وهو يقول: "أتطلب معونتي يا صهري الصغير؟". قال بيتر: "وددت لو عدت إلى صورتي الأولى، حتى لا أخيف الأميرة "لينكا" عندما تنظر إليَّ". قال الشيطان: "إذن هيا بنا.. مل على ظهري". وأطاعه

"بيتر"، وطارا محلقين فوق جبال وغابات وبلدان غريبة حتى بلغا غابة كثيفة إلى جوارها عين صافية. فقال الشيطان: "اغتسل في هذا الماء يا صهري العزيز تعد شابا جميلا".

ونضا "بيتر" ملابسه، وقفز إلى الماء، ولما غادره كان جلده نظيفا غضا كجلد الطفل، وحلقا ثانية فذهبا إلى مدينة عظيمة اشترى منها ملابس فخمة ولآلئ ومركبات وجيادا، واستأجر خدما وأتباعا ألبسهم الحلل الجميلة ثم توجه إلى عروسه في حاشية تليق بأمير.

وكانت الأميرة "لينكا" في ذلك الوقت في حجرتها شاحبة الوجه ترتجف، أما أختاها فكانتا تمعنان في السخرية بها والتفكه بحبيبها الأسود، وبعد قليل أقبل موكب طويل من العربات اللامعة بحوذييها ذوي الحلل الرائعة، وتوقفت العربات أمام بوابة القصر، وهبط منها شاب جميل أسرع إلى القصر متخذا طريقه رأسا إلى حجرة "لينكا" حيث أمسك بيدها المرتعشة. قال "بيتر": "لينكا.. انظري إلي فلن تخافي أبدا".

ورفعت إليه عينيها، وخالته أجمل شاب في العالم، وشعرت لفورها بحبه يطغى عليها، وكانت أختاها ترقبانها من النافذة في حسد ودهشة وأحستا فجأة بيد تمسك بهما من الخلف، كان هو الشيطان يضحك منهما.

قال لهما: "أنا الشيطان بعينه، والزواج بي لا يفقدكما المكانة المرموقة"، ثم ضحك قائلا: "انظر يا "بيتر" حقيقة إنك صهري، تتزوج أختا واحدة، وآخذ أنا الأختين الأخريين".

وما إن أتم كلامه حتى رفع الأختين الشريرتين، واختفى ثلاثتهم من النافذة. أما "بيتر" و"لينكا" فقد تزوجا، ولم يريا صهرهما الشيطان مرة ثانية طول حياتهما، وعاشا سعيدين.

الهند

القرد الذي لا يصفح

يحكى أنه كان في سالف الزمان ملك اسمه "قمر"، وكانت لديه مجموعة من القردة وقطيع من الخراف أعدها ليلهو بها ابنه الأمير. وكان أحد هذه الخراف نهما لا يشبع، وكان يقتحم المطبخ حين يحلو له ويلتهم كل ما يراه، وكان الطهاة ينالون عليه ضربا بعصا المكنسة أو بأي شئ آخر تصل إليه أيديهم، ولكن لم يكن في ذلك ما يردعه، بل بدا أن شهيته كانت تزداد بدلا من أن تقل.

ولاحظ زعيم القردة ذلك، ومضى يفكر ويقدر، فالمشادة المستمرة بين الكبش والطهاة ستنتهي بموت القرود، فالكبش نهم، وعندما يثير غضب الطهاة لاحقه هؤلاء، فيضربونه بأي شئ في متناول أيديهم، ولو حدث أن ضربوه مرة بجذوة مشتعلة فإن النار ستعلق بصرفه، فإذا جرى إلى الحظيرة المجاورة امتد اللهب إلى سقفها، وحرقت الجياد، وعندئذ يصف الأطباء البيطريون دهن القرود علاجا لحروق الجياد؛ فتصبح القرود بذلك جميعا عرضة للفناء.

واجتمع بالقردة، وتحدث إليهم بما انتهى إليه تفكيره، وختم حديثه بقوله: "فلتبرح المنزل إلى الغابات قبل أن نفنى عن آخرنا". وضحكت القردة منه، وقال له صغير منها: "إنك عجوز قد ذهبت الأعوام بعقلك،

ومن المؤكد أننا لن نترك ما يقدمه لنا الأمير بيديه من طعام طيب لذيذ لنستعيض عنه في الغابة الثمار غير الناضجة".

فاكفهر وجه زعيم القردة وقال: "أنتم حمقى، فقد تحلو حياتكم الآن هنا، ولكن بعد مدة وجيزة ستنقلب سما، وليس في نيتي أن أبقى لأشهد موت أصدقائي وعشيرتي، ولذلك فسأخرج توا إلى الغابة".

وفي ذات يوم، بعد أن رحل زعيم القردة، اقتحم الكبش النهم المطبخ وشرع يلتهم فخذا مشويا، فاستشاط الطاهي غضبا، ولم يجد في متناول يده شيئا يضربه به، سوى جذوة نار، لم تخمد نارها بعد، وضرب بها الكبش، فاشتعل صوفه، ووثب إلى الحظيرة، وهو يثغو بشدة، وأخذ يدور بها إلى أن علقت النار بجميع جوانبها، فنفقت بعض الجياد، وبقي بعضها الآخر وبه حروق مميتة، فراحت تضرب الأرض بحوافرها وترسل صهيلها مدويا لفرط ما بها من ألم.

وأسرع الملك فجمع أطباءه البيطريين، وطلب إليهم أن يعدوا دواءً لتخفيف آلام الجياد. وأجاب الأطباء بأن كبيرهم يصف في هذه الحالة دهن القردة، ورجوه بأن يأمر بإعداد هذا الدواء في الحال قبل أن تهلك الجياد متأثرة بحروقها. وأمر الملك بالقردة جميعها أن تذبح، وكان له ما أراد.

ولم يشهد زعيم القردة هذا الاعتداء، ولكنه سمع بالقصة تتناقل في الغابة، ولم يتقبلها بشماتة. وحدث أنه كان يجول في الغابة في أحد الأيام،

فأحس بالعطش وأتى بحيرة تفتحت فيها مجموعات من أزهار اللوتس الجميلة، ولاحظ وجود آثار أقدام ذاهبة في اتجاه البحيرة، ولم ير أثرا يدل على العودة منها؛ فأيقن أن بالماء عفريتا، ووقف على مسافة بعيدة واستعمل ساقا مجوفة من سيقان اللوتس ليشرب بها.. وما أن انتهى من الشرب، حتى انشق الماء عن عفريت من آكلي لحوم البشر، وحول عنقه قلادة من اللؤلؤ وصاح به: "أيها القرد.. إني آكل كل من يطأ هذا الماء، وإنك لداهية أريب، إذا أثرت أن تشرب من ساق اللوتس وقد أحببتك، فهل من أمنية لك أحققها؟"

وسأله زعيم القردة على الفور: "وكم رجلا تستطيع أن تلتهم دفعة واحدة؟" وأجاب العفريت وهو يتلمظ بشفتيه: "أوه.. مئات.. مئات.. آلاف.. ومئات الآلاف.. بشرط أن ينزلوا إلى الماء، أما خارج الماء فلا قوة لي لدرجة أن ابن آوي يستطيع أن يغلبني". وقال القرد: "جميل جدا.. هناك ملك اسمه "قمر" هو عدوي اللدود، فإن أعرتني قلادتك اللؤلؤية هذه، استطعت أن أثير طعمه، وأسوقه وحاشيته إلى ماء بحيرتك".

ورضي العفريت بذلك، وناول القرد قلادته. وشاهد الناس القرد يتنقل بين الأشجار وفوق سطح القصر، وحول عنقه قلادة من اللؤلؤ، وسألوه أين كان طوال هذه المدة، ومن أين له بهذه القلادة الرائعة.

وأخبرهم زعيم القردة بأن في الغابة بحيرة سرية في مكان غير ظاهر منها خلقها إله الثروة، وأنه إذا اغتسل فيها إنسان عند شروق الشمس

يوم الأحد ظهر له الإله وبيده قلادة مماثلة من اللؤلؤ يقدمها له. وسمع الملك بهذه القصة، نقلها إليه أحد رجال حاشيته، ودعا القرد يستوضحه حقيقة الأمر.

وقال زعيم القردة: "أيها الملك.. لديك الدليل المادي على صدق هذه الرواية، في قلادة اللؤلؤ هذه التي أضعها حول عنقي، وإذا كانت مثل هذه القلادة نافعة لك، أرسل معي أي إنسان أرشده إلى البحيرة".

قال الملك: "بل سأذهب بنفسي مع حاشيتي، حتى نحصل على قلادات كثيرة". وأجاب القرد وقد غمرته السعادة: "أيها الملك.. إن فكرتك رائعة". وخرج الملك وسط حاشيته يحدوهم الطمع في قلادات اللؤلؤ، وأمر بالقرد أن يركب إلى جانبه في المحفة، وأولاه الكثير من الشرف في أثناء الرحلة.

وأتوا البحيرة فجرا، فقال القرد: "أيها الملك.. يجب أن يندفع جميع أتباعك إلى ماء البحيرة بمجرد أن تشرق الشمس.. أما أنت فتأتي معي إلى حيث أريك حفرة احتفرتها وعثرت فيها على قلائد عديدة من اللؤلؤ".

وهرع جميع الأتباع إلى الماء بمجرد أن أشرقت الشمس، والتهمهم العفريت عن آخرهم. وبعد فترة من الانتظار قال الملك للقرد: "خبرني.. ترى لم لم يعد أتباعي؟" وأسرع القرد يتسلق شجرة قبل أن يجيب، وصاح من أعلى الشجرة: "أيها الملك الشرير.. لقد ذهب أتباعك طعاما لعفريت يسكن البحيرة، وقد زال الآن غضبي لموت أفراد أسرتي، ولم أدعك تنزل

الماء إذ ذكرت أنك الملك، فعد الآن إلى قصرك، أنت قد دبرت مقتل أسرتي وأصدقائي. وأنا دبرت بالمثل مقتل سرتك وأصدقائك"

وأسرع الملك عائدا إلى القصر وهو حزين، وبرز العفريت من الماء بعد ذهابه، وقد سرته هذه الوليمة الممتعة. وصاح بالقرد الذي كان يجلس على غصن الشجرة:

"جميل جدا يا قردي العزيز.. فقد كسبت صديقا، وآذيت عدوا! وحافظت على اللآلئ دون أن تشويها شائبة بشربك الماء من ساق اللوتس!!"

المصباح السحري

يحكى أنه كانت في سالف الزمان، أرملة فقيرة، وكان لها ابن صغير جمع بين جمال الشكل والخلق، وفي ذات يوم أتى منزلها تاجر من بلد سحيق، أخبرها بأنه الشقيق الأكبر لزوجها. ولما أفضت إليه بما كان من وفاة زوجها منذ سنوات طويلة حزن لفقده، وأقام بمنزلها بضعة أيام، قال لها بعدها: "سأخرج والغلام بحثا عن الأزهار الذهبية، فأعدي ما يلزمنا من طعام في أثناء الرحلة".. وأطاعته الأرملة، وأعدت الطعام..

وارتحلا في الصباح، وقطعا أميالا عدة حتى تعب الغلام، وقال لعمه: "لقد تعبت يا عماه، وما عدت أقوى على السير أكثر من ذلك".. وعنَّف التاجر الغلام لضعفه وخوره، واندفع يمشي بأقصى ما يستطيع من سرعة، وعاد الغلام بعد فترة أخرى يقول: "لقد تعبت ولا أستطيع مزيدا من السير". والتفت إليه العم، وسدد إليه ضربة، فمضى معه بدافع من الخوف، يجاهد كيما يسير بسرعة على الطريق.. وأمر التاجر الغلام أن يجمع حملا كبيرا من الحطب ورغم أنه لم يكن معهما نار، طلب إليه أن ينفخ بفمه كما لو كان يوقد نارا، وأخذ الغلام ينفخ حتى تعب فسأله: "وما جدوى النفخ، ولا نار؟" وقال التاجر: "انفخ.. وإلا ضربتك ثانية" وعاود الغلام النفخ، فنفخ، ونفخ ثم توقف قائلا: "لا نار.. فكيف يمكن

أن يشتعل الحطب؟".. وأوسعه التاجر ضربا، فعاد إلى النفخ أشد من ذي قبل، وأخيرا اشتعلت النار في الحطب، حتى إذا أتت عليه كله، ظهر باب سحري بين الرماد، وأمر العم الغلام أن يفتحه، فأخذ يجذب الباب الثقيل محاولا فتحه، ولكن دون جدوى، فقال: "إنه لن يفتح"؛ فقال العم: "اجذبه بشدة أكثر"

وراح الغلام يجذب بكل قوته، ولكن الباب أبى أن يتحرك فقال ثانية: "إنه لن يفتح"، وعاد التاجر يشتد في ضربه، صائحا: "افتح هذا الباب" وأخذ الغلام يجذب ويجذب، وأخيرا رفع الباب من مكانه، فرأى الغلام سردابا يضيئه مصباح تراكمت حوله كميات كبيرة من الأزهار الذهبية.

وأمر التاجر الغلام بأن يهبط في السرداب، وحذره من أن يمس الأزهار الذهبية عند دخوله، بل يذهب رأسا إلى المصباح فيطفئه، ثم يعود فيجمع أكثر ما يستطيع من الأزهار الذهبية على صحفة ذهبية أشار إليها، ويأتيه بها.

وفعل الغلام ما أمر، وعندما بلغ الباب في عودته سأل عمه أن يأخذ منه الأزهار الذهبية حتى يستطيع أن يتسلق خارجا. وزمجر التاجر قائلا: "اخرج إن استطعت". وسأله الغلام: "وكيف أستطيع، ويداي مملوءتان؟". وعند ذلك أغلق التاجر الباب الحديدي السحري، ومضى.

ووجد الغلام نفسه حبيسا في السرداب المظلم، فتملكه اليأس وبكى، ولم يكن معه طعام؛ فذوى وضعف بعد بضعة أيام، وجلس في أحد الأركان والمصباح في يده، ومن غير قصد أخذ يحك المصباح بيده، ولمس المصباح خاتمه الذي كان في إصبعه؛ فخرج منه في الحال جنى يسأله عما يريد منه. ودهش الغلام وأجاب: "أرجو أن تفتح الباب وتخرجني". وأطاع الجني؛ فأسرع الغلام إلى أمه ومعه المصباح، وطلب إليها أن تقدم له ما يأكله، إذ كان يعاني جوعا شديدا. وقالت الأم: "يا ولدي المسكين، ليس في المنزل شئ أقدمه لك". وقال الغلام: "سأنظف هذا المصباح وأبيعه.. ومن ثم نشتري طعاما بثمنه". وبدأ يحك المصباح، ولمسه الخاتم ثانية، وظهر الجني في الحال يسأله عما يريد.

قال الغلام: "أرجوك أن تأتيني بأرز مطهي وآخر غير مطهي". وعلى الفور أحضر الجني له ما أراد، فأتاه بكمية كبير من الأرز بنوعيه، وتناول وأمه عشاء طيبا. وبعد ذلك بزمن يسير، جلب بعض التجار جيادا يعرضونها للبيع. ورآها الغلام ورغب في شراء أحدها، ولكن لم يكن معه نقود، فضغط بخاتمه على المصباح وقال للجني: "هلا أحضرت لي جوادا"، فأتاه على الفور بقطيع من الجياد.

وكبر الغلام وبلغ مبلغ الشباب، وحدث في أحد الأيام أن شاهد ابنة "الراجا" في محفتها في الطريق إلى بحيرة تستحم فيها، وراقب موكبها وأتباعها يمرون به، وأسرع إلى أمه يخبرها بعزمه على الذهاب إلى حيث ينظر الأميرة

وهي تستحم. وحاولت أمه أن تثنيه عن عزمه، ثم اضطرت أمام إصراره أن تأذن له في الذهاب.

وذهب واختبأ قرب البحيرة، وأخذ يرقب الأميرة من مكمنه وهي تستحم، وشغف بها، وعاد إلى بيته يخبر أمه بأنه أحب الأميرة، ويرجوها أن تذهب إلى "الراجا" تطلب يدها. وأجابت أمه بقولها: "ولكننا فقراء يا ولدي، ولن يوافق "الراجا"...". ولكنه أخذ يلح عليها في الذهاب حتى تعبت من الحديث، وأخذت طريقها إلى القصر حيث وفقت إلى مقابلة "الراجا"، وقالت له إن ابنها أحب ابنته ويسأله أن يسمح بزواجه منها. واشترط "الراجا" للموافقة على الزواج أن يقدم له ابنها من المال ما يزيد على ما يملكه هو، وعادت الأم إلى ولدها فحدثته بما كان، ثم قالت له: "طبعا إنه لا يحب أن يزوّج الأميرة من شاب فقير مثلك".

وحك الشاب المصباح بخاتمه، وقدم له الجني من المال ما يربو على ما طلب "الراجا"، وحمله إلى "الراجا" الذي حملق دهشة لهذه الثروة الكبيرة. وبعد فترة مناسبة عادت الأم إلى "الراجا" تستنجزه وعده، ولكنه عمد إلى التهرب والتحلل من وعده، فطلب أن يعد ولدها قصرا واستراحة يليقان بمقام ابنته.

وحك الشاب المصباح بخاتمه، وشيد الجنى في أثناء الليل قصرا جميلا رائعا في مكان لم يسبق البناء فيه من قبل، وأسقط في يد "الراجا"، ولم يعد في مقدوره أن يرفض طلب يد ابنته، على الرغم من أن رئيس وزرائه حاول

أن يثنيه عن ذلك، وأحبت الأميرة الشاب حين رأته، وتزوجا بين معالم الأفراح الرئعة.

وبعد الزواج بمدة يسيرة خرج "الراجا" والشاب إلى الغابة للصيد، وبينما هما على مسافة بعيدة من القصر ظهر على بوابته "العم الشرير" الذي حبس الغلام في الظلام في سرداب الأزهار الذهبية، وكان يحمل مصباحا جديدا قدمه إلى الأميرة نظير أي مصباح قديم تعثر عليه في القصر، وتمت المبادلة، فأعطته المصباح القديم الذي يخص زوجها وأخذت مصباحه الجديد جاهلة بما فعلت.

وحك التاجر المصباح في الحال بخاتمه، وأمر الجني أن ينقل القصر والأميرة فيه إلى بلده. وعندما عاد "الراجا" والشاب استبد بهما كرب شديد لاختفاء الأميرة والقصر. وقال الوزير: "ألم أخبرك بأن مصيبة لا بد أن تعقب زواج ابنتك من هذا الشخص المجهول". وقال "الراجا" للشاب، وقد غلبه الحزن والغضب: "سأمهلك ثلاثة عشر يوما، فإن لم تعثر على ابنتي خلالها أعدمتك في صباح اليوم الرابع عشر".

ومضى الشاب في جنون، باحثا منقبا في كل مكان، ولكنه لم يعثر عليها، وحل اليوم الثالث عشر، فاستسلم لقدره، وحدثته نفسه بأن يذهب ليستريح ما دام سيقتل في صباح الغد، وصعد إلى قمة تل مرتفع لينام على الصخر، وحدث في أثناء نومه أن حك خاتمه الصخر فظهرت (جنية) أيقظته تسأله عما يريد منها.

أجابها قائلا: "أوه.. لقد فقدت زوجتي وقصري؛ فإذا كنت تعرفين مكانهما فأتوسل إليك أن تأخذيني إليه"

ونقلته الجنية لتوها إلى بوابة قصره في بلد التاجر، ودخل الشاب إلى القصر متخذا هيئة كلب، وعرفته الأميرة في الحال فعانقته وأخبرته بأن التاجر خرج في عمل له، ثم أضافت: "وقد أخذ المصباح معه إذ هو يحمله في سلسلة حول عنقه". وسألها الزوج الشاب: "وما عسانا نفعل؟" قالت: "أدس السم له في طعامه هذا المساء".

وعاد التاجر وأمر بعشائه أن يعد، ودست الأميرة السم في الأرز الذي قدم له، وأكل منه في نهم فمات لتوه وعندئذ تناول الزوج الشاب المصباح وحكه، وسأل الجني أن يعيد القصر، وهما فيه إلى مكانه الأول في بلد "الراجا"، وتم ذلك على الفور.

ولما كان فجر اليوم الرابع عشر، فرح "الراجا" بعودة ابنته وقسَّم ملكه بينه وبين الشاب، وحكما المملكة في أمن وسعادة زمنا طويلا.

الولايات المتحدة الأمريكية

جوني "حب التفاح"

كانت نجوم الخريف تتلألأ فوق قفار "أوهيو"، وقد انتصف الليل عندما نهض "چوني حب التفاح Jhonny Appleseed" مستندا على مرفقيه، وأجال بصره في مضرب خيام الهنود، فتبين أن نيران المجلس قد خمدت، ولم يتخلف منها سوى بضع جذوات ذهبت نارها، وكان الدخان مازال يتصاعد منها، وكان رفاقه المحاربون ينامون على أرض تغطيها أوراق الشجر، ولم يتنبه إليه أحد عندما وصل إلى حيث "حلته" وفأسه وغرارته الملأى بحب التفاح.

وكان حافي القدمين، فتسلل عبر الأرض المكشوفة إلى الغابات المظلمة دون أن يسمع له صوت، وكان عليه أن ينذر المستوطنين البيض بأن الهنود عزموا على مهاجمة أكواخهم المبعثرة عند الفجر. وخبأ "چوني" فأسه وغراراته في تجويف إحدى الأشجار، وانطلق يعدو في الغابة، وقد بدت "حلته" كالخوذة على شعره الذي عقدته الرياح. وعلى الرغم من أن الذئاب والدببة والقطط البرية كانت تروح وتغدو في الغابة، فلم يكن "چوني" يحمل سلاحا، إذ كان يعتقد أنها جميعها مخلوقات خلقها الله، ولها من الحق في الحياة مثل ما له تماما.

وطفق "چوني" يعدو دون كلل بقميصه الممزق وسرواله المهلهل حتى جاوز الغابات إلى الأرض المكشوفة التي يقوم فيها كوخ "وليام هنتر"، وأخذ يطرق بابه الخشبي في عنف وهو يصيح: "بيل.. بيل.. هنتر.. استيقظ".

وسمع صوت المزلاج الخشبي يرفع من الداخل، وانفرج الباب قليلا، وأجابه صوت يقول: "من هناك؟.. أوه چوني.. ماذا حدث؟". وقال چوني في سرعة: "سيكون المتوحشون هنا مع الفجر، وها أنا أزرع ليحصد الآخرون"

ولمح الخوف في عيني "بيل". وقال بيل: "شكرا لك يا چوني".. وهبت الريح فجأة فخفق لهب المصباح الذي كان يحمله، وبدا خلفه وجه زوجته الأبيض فقال لها: "إنهم الهنود.. يا كلارا" ولوح "چوني" بحلته محببا السيدة "هنتر" وهو يقول: "عليَّ أن أحذر الآخرين" وجرى إلى الغابات ثانية.

وبعد يومين من هذه الليلة، عاد إلى معسكر الهنود يعني بجراحهم، ويقدم لهم أقداح الشاي المخلوط بالنعناع البري. وتحدث إليه زعيم الهنود قائلا: "أيها الطبيب العظيم.. في بحر سبعة أيام سنشن هجوما على الحامية الصغيرة في "مانسفيلد"، وسيقابلنا البريطانيون بماء النار والقذائف والطلقات، وأرجو أن تزرع لنا مساحة أخرى من هذه الأعشاب الشافية".. وأجاب چوني: "سأزرعها بعد ظهر اليوم" وتملكته الحيرة :كيف

يقوى على الجري مسافة ستين ميلا في هذه القفار ليحلب إمدادات للحامية!! وكانت هذه الحرب في سنة ١٨١٢ ذات خطر لقلة عدد المستوطنين الأقوياء في "أوهيو" وجنود الحاميات المبعثرة هنا وهناك. ولو أبيدت حامية "مانسفيلد" لما وجد الكشافة في البقاع المجاورة جنودا تذود عنهم شنات المتوحشين المحاربين، وتنهد "چوني" وهو يقدم للزعيم قدحا من الشاي المخلوط بالنعناع البري.

وبعد ظهر ذلك اليوم زرع للهنود مساحة أخرى من الأعشاب حتى إذا أرخى الليل سدوله ونام الهنود، وشرع مرة ثانية يركض ويعدو خلال الغابات المظلمة التي لم يسبق أن ارتادها إنسان معتمدا على غريزته، وأخذت الريح المحملة بالأمطار تهب.

وقد ذكره الوثب فوق الأشجار المتداعية واجتياز المستنقعات بمزرعة والده في ضواحي مدينة "بوسطن"، فقد ولد هناك في سنة ٧٧٥ وكان البستان خلف منزل والده تكسوه زهور التفاح البيضاء، وقد قيل له – فيما بعد – إنه كان موضع عناية جدته التي كانت تعنى بنظافته وملابسه، كما كان مثار إعجاب والديه اللذين سمياه "جوناثان" وكانت له أرجوحة. وكبر وترعرع كما يكبر الأولاد ويترعرعون، وأخذ يطوي الأرض جريا في سراويل وقميص خشن كان دائما يمزقه في أثناء عدوه بين الأشجار أو فوق الصخور.

وضحك "چوني" عندما استعاد إلى ذاكرته، ما كان يفعله هو والصبية المجاورون، كانوا يتخذون لأنفسهم "بنادق" من الخشب، ويمثلون مشاهد الثورة الأمريكية فيصعدون ويهبطون على الطريق أو على سفح التل حيث بساتين الفاكهة، ويجرون خلال شجر "العليق" الشائك، ويعودون بسيقانهم المرضوضة على الصخور ولحاء الشجر وقمصانهم الممزقة.

وانتهت الحرب، عندما بلغ "چوني" الثامنة من عمره، وغدا مكسالا يجوب التلال والغابات، حيث يقضي أياما عاكفا على الإنجيل يتلو آية بصوت مرتفع ليسمع الثعالب الحمراء والظباء الخجولة الرقطاء، والسنجاب الغافل والأرانب التي كانت تهتز آذانها طربا. وشم "چوني" رائحة الرطوبة التي حملتها الرياح، ثم أسرع قدما رغم أن النجوم كانت قد اختفت وراء سحب ممطرة، كان عليه أن يبلغ الحصن في مدى ليلتين أخريين، سواء هبت العاصفة أم لم تهب، ليكون لدى الجنود الوقت الكافي لغوث الحامية في "مانسفيلد" وإلا أبيدت، وأبيد معها المستوطنون اليائسون.

وذكر وهو يعدو: كيف غدت الثلاث عشرة مستعمرة ثلاث عشرة ولاية، كانت عربات الكثافة بدأت تتجه إلى ناحية الغرب حيث تمتد الأراضي الجديدة وراء "اللجهينيز"، وبدأ "جوناثان تشابمان" في قميصه المصنوع من جلد الغزال متعبا هزيلا ضئيلا، وهو يصغي إلى صريف وفرقعة العربات التي تحمله إلى الحدود البعيدة. كان قد استبدل بالرائحة الحلوة التي تنبعث من الحساء الساخن الذي يقدم في "نيو إنجلند"، والخبز الأسمر

وكعكة الزنجبيل، رائحة الخشب المتصاعدة من كعكة الذرة التي يعدها المستوطنون على نيرانهم الموقدة في العراء.. كان يندفع بكيانه نحو هذه العربات المتهادية إلى الغرب، وقد حمل معه سواء في الزوارق أو على ظهور الجياد أو على ظهره الصلب، غرارات ملأى بالبذور السمراء المدببة، ليزرع التفاح في هذه القفار.

وقد بذر "چوني" بذوره في تسع ولايات صغيرة، في أثناء سيره على رأس العربات المتجه غربا، تاركا البساتين الصغيرة الناشئة، لأطفال المستقبل، مخلفا زهور التفاح الجميلة للأمهات ذوات القامة المعتدلة.. وكان يقدم ملء الجراب الجلدي من بذور التفاح لقاء مجرد وعد بالعناية بالبساتين، ومقابل قميص خشن وسراويل مستهلكة، وأطلق عليه المستوطنون اسم (چوني حب التفاح) وأحب هو هذا الاسم.

وقد لاحظ اهتزاز أعالي الأشجار، ثم خيم سكون، وتبين صوت المطر وهو يتساقط في الظلام، ثم إذا بالمطر يبلله؛ فرفع وجهه يستقبل القطرات الباردة واستمر يعدو، وقد أحكم وضع "حلته" على رأسه. وعندما أرسل النهار ضوءه وقف ليشرب من عين تجمعت فيها مياه الأمطار، ثم جمع حفنة من ثمار التوت المبللة، ولم يقف لينام، وإنما استأنف عدوه عبر الغابات التي غمرها الماء، متفاديا الحيات ذوات الأجراس والقنافذ ذات الأشواك.

وفي الليلة الثالثة، اخترق بوابة الحصن، وهو في حالة يرثى لها من الإعياء؛ فقد نفذ الماء إلى جلده، وفي أنفاس متقطعة أبلغ رسالته إلى قائد الحصن، وما إن سمع وقع حوافر الجياد المنطلقة إلى "مانسفيلد" حتى تهالك على الأرض الخشبية قرب مدفأة القائد وراح في النوم.

واستيقظ مبكرا في الصباح التالي فقد سبق له منذ شهر على هذه الأحداث، أن وعد مستوطنا جديدا يدعى "سروس جيمس" من جزيرة "رود" بأن يساعده في إقامة مسكنه في بقعة نائية شمال نهر "أوهيو"؛ فعاد إلى الغابات يحمل معه فأسه وغرارته إذ رغب "سيروس" في زراعة بستان تفاح. وأخذ يتغنى في طريقه بما زرع من أشجار التفاح على ضفاف أنهار "أوهيو" و"يو" و"أباش". وكان يرفع عقيرته بالغناء للصقور التي تحلق في الغابات وقد خرجت إليه الأرانب من الأدغال، تهز شواربها، ووقفت الغزلان النافرة تحرك آذانها وترمقه بعيونها السود في دهشة. وأخذ "چوني" يتغنى بكل ما وعته ذاكرته من أغنيات وهو يسرع بين أشجار "الصنوبر" والشوكران وعيون الظباء.

وكانت أطراف قميصه الخشن تتطاير وراءه، وهو يهتف في مرح مخاطبا نسمات أكتوبر الدافئة: "كم أنا في حاجة إلى سراويل جديدة قبل حلول الشتاء، ولست أدري من أين أحصل عليها، وقد زرعت أشجار التفاح الجميلة على طول الطريق أمام العربات الذاهبة إلى الغرب"

وكان الطائر "أبوزريق" يطير أمامه، وهو يصيح بصوته الخشن، وقد أمال "چوني" حلته في مرح على رأسه، ومضى يغني في سعادة. وفي طريقه أمضى ليلة لدى "مارك أوبرين" الذي أعطاه سروالين أحدهما أزرق والآخر أصفر.. وقدم "چوني" لأطفال "مارك" الأربعة بعض اللعب التي جلبها معه أثناء رحلته الأخيرة إلى مدينة "بتسبورج"، كما قام بزراعة حديقة من الأعشاب لزوجة "مارك"، وأنشأ لـ "مارك " مشتلا من شجيرات التفاح على شاطئ النهر، واستعار من زوجة "مارك" مقصا وخيطا، وجعل كلا من السروالين، يجمع اللونين الأزرق والأصفر، وأخذ الأطفال يضحكون في مرح لمنظر "چوني" وهو ينطلق إلى حيث يقيم "سيروس جيمس".

وعندما بلغ "چوني" المكان، وجد به عشرين رجلا، ومعهم زوجاتهم وأطفالهم، وقد تم حفر أساسات المنزل. وراحت النساء يعددن وجبة الغذاء، وانصرف الأطفال إلى لعبهم، على حين أخذ هو والرمال، يقطعون الأخشاب، ويقيمون المنزل.. قال جيمس: "ارفع هذه الكتلة يا چوني".. قال "چوني" وهو يرفع طرف الكتلة: "حسنا"، وصاح "إدكوبر": "احترس يا چوني، فهناك زنبار يزحف على ساقك". قال چوني: "دعه يزحف" ثم رفع الكتلة إلى مكانها، ولسعه الزنبار بشدة آلمته، ولم يؤذ الزنبار، وراح في لطف يبعده عن ساقه..

قال "چوني" في هدوء: "إليك عني أيها الزنبار.. واذهب إلى حيث ترعى صغارك؛ فإني مشغول اليوم".

وضج الرجال بالضحك، وقال "سيروس": "لقد بلغت أسمى ما يصل إليه الإنسان يا چوني"

وسأله "إدكوبر": "واذكر أنك لا تقتل الحية ذات الأجراس، ولست أدري لم تنشب نابها فيك!!" قال "چوني": "استمر.. إن لهذه الحية مثل حقي في الحياة ومع ذلك فابن آوي يقتلها".. وقال "إدكوبر"وقد تملكته رعدة: "إنه على حق، إن سيرك عاري القدمين فوق الحيات لتقشعر منه الأبدان".

وابتسم چوني وهو يقول: "إني لا أستطيع أن أوذي مخلوقات الله، أمثال الذباب والزنبار والطيور".

وحدث في ذات ليلة في شتاء العام التالي أن أدرك الظلام "چوني" وهو في الغابة بعيدا عن مساكن المستوطنين، فعزم على أن يبيت في تجويف إحدى الأشجار الكبيرة فأحكم "حلته" على رأسه واعتمد على ركبتيه في الثلج، وشرع يزحف، وكان داخل التجويف من الطرف الآخر "دبة" زمجرت بصوت خافت فرجع "چوني" على عقبيه.. ورفع "حلته" وانحنى وهو يقول: "عفوا يا سيدتي"، وانزوى حيث نام قرب جرف ثلجي تحت النجوم اللامعة.

وعندما مات "چوني حب التفاح" كان قد عاش في هذه القفار خمسين عاما، وكانت أشجار تفاحه، تميل فوق التلال مع الرياح قرب النهر، وتلامس أوراق زهورها قاعدة نوافذ المساكن.

خلق الإنسان

"إحدى أساطير الهنود الحمر"

بعد أن انتهى الذئب الأمريكي (The Cayote) من خلق العالم بما فيه من حيوانات دنيا، عقد مجلسا من الحيوانات للتداول في خلق الإنسان. واتخذت الحيوانات مجلسها في بقعة مكشوفة من الغابة، فجلست في شكل دائري يتوسطها الأسد وإلى يمينه جلس الدب السنجابي ثم الدب البني، وهكذا، بحسب مرتبة كل حيوان، وانتهت الدائرة بالجرذ الصغير الذي اتخذ مكانه إلى يسار الأسد.

وتحدث الأسد أولا فأعلن أنه يود لو رأى الإنسان وقد خلق وله صوت هائل كصوته هو، يستطيع به أن يخيف جميع الحيوانات. واستطرد الأسد فقال: "وأكثر من هذا، يجب أن يكسو الشعر جسم الإنسان، وأن تكون له أنياب قاطعة، وأن تزود أكفه بمخالب قوية حادة، ولا يعنيني أمر لونه، وإن كنت أعتقد أن اللون الأسمر النحاسي"

وقاطعه الدب السنجابي قائلا: "إن رأيك يثير الضحك، فما حاجة الإنسان إلى صوت كصوتك، فأنت دائم الزئير، نخيف الفريسة التي تريد قنصها، وأعتقد أنه يجب أن يكون للإنسان قوة عارمة يروح ويجئ في

صمت، ولا يعوزه السرعة عند الضرورة؛ فيمسك بفريسته دون أن يثير أي ضوضاء"

وقال الوعل: "إني أعتقد أن الإنسان ليبدو غريبا، إذ لم يكن له شعبتان من القرون تعينه على القتال، وأعتقد أيضا أنه من السخافة أن يكون له زئير مدو، فلا تعنيني حنجرة الإنسان بقدر ما تهمني أذناه وعيناه، وأرى أن تكون أذناه كنسيج العنكبوت، وعيناه كجذوتين متقدتين"

واحتج الكبش الجبلي قائلا: "إنه لا يرى لمثل هذه الشعب من القرون أي فائدة أو حكمة سوى أنها لكثرة فروعها لا تنفذ وسط الأدغال"، ثم قال: "وليكن للإنسان قرنان كقرني هذين ملتويين، كما لو كانا حجرين، على جانبي رأسه تكسبانه اتزانا، وتمكناه من النطح الشديد"

وجاء دور الذئب الأمريكي في الكلام؛ فأعلن أنه لم يسمع في حياته كلمات أكثر حماقة من تلك التي سمعها في هذه الجلسة، وأنه غالب النوم بصعوبة وهو يستمع إلى جماعة لا ذكاء لديها، فكل واحد من أفرادها يريد أن يصنع إنسانا على شاكلته، وكأنه بهم يودون لو أتوا بواحد من صغارهم، وأطلقوا عليه اسم "الإنسان"، وقال: "أما بالنسبة لي فإني أعرف أني لست بالأمثل في خلقي، ومع ذلك فأستطيع أن أصنع حيوانا بفضلي، كما يفضل الآخرون، وطبيعي أن يأتي الإنسان مثلي له أربع أرجل وخمسة أصابع، ورأس به عينان وأذنان وأنف".. وهنا كان الذئب قد تملكته نشوة

جعلته يخطو هنا وهناك، وهو يقول: "جميل أن يكون لإنسان صوت كصوت الأسد، ولكن الإنسان ليس في حاجة إلى الزئير المتصل"

وصاح به الأسد: "عد إلى مكانك من الدائرة فإنك تثيرني" وجلس الذئب الأمريكي وأتم حديثه قائلا: "وللدب السنجابي بعض المزايا فشكل أقدامه يمكنه من الوقوف معتدلا في سهولة، ولذلك فإني أميل إلى أن تكون أقدام الإنسان مثلها، وليس للدب ذيل، فما الذيل إلا موطن للبراغيث"

وهز الدب السنجابي رأسه في خيلاء. واستطرد الذئب الأمريكي قائلا: "وعينا الوعل وأذناهجميلة.. ربما كانت أفضل من أذني وعيني" .. ومال الوعل بقرنيه من جانب إلى آخر، وتنهد بارتياح، وفتح فمه ليقول شيئا ثم آثر الصمت.

وقال الذئب الأمريكي: "وهناك السمكة فجسمها العاري طوال العام لطالما غطينا به إذ ما أثقل الشعر على الجسم في أكثر أوقات السنة.. ولذلك فإني أميل إلى أن يكون الإنسان بلا شعر يكسو جسمه، أما مخالبه فيجب أن تكون طويلة كمخالب النسر حتى يستطيع أن يمسك بها الأشياء"

وهمهم الكبش الجبلي في غير دوره، فحدجه الذئب بنظرة واستمر يقول: "ولكن بوجه عام يجب أن تعرفوا أنه ليس حيوان آخر سواي له من الذكاء ما يستطيع أن يمد به الإنسان، ولذلك سأكون ممتنا لو وجدت

إنسانا يماثلني ذكاءً ودهاءً ومكرا " ورفع أنفه في الهواء مختالا، وبدا عظيم القدر.

ووقف السمور يقول إنه لم يستمع في حياته مثل هذا الهراء والهذيان: "بلا ذنب! حقا.. إنني لأود أن يكون للإنسان ذنب عريض مستو يسحب به الطين والرمل" ..

وقالت البومة متذمرة : "لقد فقدتم عقولكم جميعا معشر الحيوانات، فلم يفكر أحدكم في أن يكون للإنسان أجنحة، فإني لا أتصور مخلوقات على الأرض دون جناحين"

وقال "الخلد الأوربي": "حشو وهراء.. أبلغ بكم الغباء أن تذكروا الأجنحة، فإذا كان للإنسان أجنحة فمن المؤكد أن يرفع رأسه إلى السماء، فتحترق عيناه بحرارة الشمس، ولكن إذا لم يكن له عينان فإنه يستطيع أن يسعد بالإقامة في حفرة يحتفرها في التربة الرطبة الناعمة.. وهذا هو رأي"

وقال الفأر: "أفضل أن يكون للإنسان عينان يتبين بهما طعامه.. أما عن الحفر في الأرض فهذا قول سخيف"

وهكذا اختلفت جميع الحيوانات فيما بينهما، وانفرط عقد الاجتماع بمشادة عنيفة؛ فالذئب الأمريكي وثب على السمور وعضه انتزع بها لحم فخده.. وقفزت البومة على رأس الذئب الأمريكي وشرعت تنزع فروة

رأسه، وبدأ الأسد والدب السنجابي يتلاكمان، وساد المكان اضطراب شامل.

ولما تعبوا من القتال عمد كل حيوان إلى عمله محاولا أن يصنع إنسانا حسب ما تراءى له، وأخذ كل منهم قطعة من الطين، وحاول أن يعطيها شكله هو، إلا الذئب فقد شرع في صنع إنسان على الصورة التى صورها في حديثه بالمجلس، وكان الوقت قد تأخر عندما شرعوا في العمل، وأقبل المساء قبل أن يتم أحد منهم ما بدأ، فتمددوا جميعا يتثاءبون وراحوا في النوم عدا الذئب الأمريكي الماكر، فقد ظل ساهرا منكبا على النموذج الذى يصنعه طول الليل.. وبينما راحت الحيوانات الأخرى في سبات عميق صعب الماء على ما صنعت من نماذج فأتلفها جميعا، وفي الصباح الباكر كان قد أتم نموذجه ونفخ فيه الحياة..

قبل أن تستيقظ الحيوانات الأخرى لتعد نماذج جديدة، وعندما فتحت عيونها وتثاءبت وهي تنهض، كان الإنسان واقفا أمامها.. والذئب الأمريكى يضحك منها. وهكذا كان الإنسان من صنع الذئب الأمريكي.

الزنبار .. وخصره الدقيق

كان الزنبار قديما مختلفا عنه اليوم، كان ولوعا بالمجتمعات، مغرما بالحديث والفكاهة، وكان يميل إلى إثارة الضحك في المجالس التى يغشاها .وفيما هو سائر في أحد الأيام صادف بعوضة، وعلى الرغم مما كانت عليه البعوضة وأفراد أسرتها من صغر الحجم كانوا يتسمون بالجد ويتحدثون باهتمام عن محصولات أرضهم، وكانت البعوضة وأبوها أعلاهم طيننا، وكانوا يعتبرون رقعتهم الصغيرة مزروعة كبيرة، وكان الصقيع قد اشتد قبل ذلك بأسبوع ومضى الجميع ينبشون على البطاطس. وذهب الزنبار إلى حقل البعوضة، وسألها عن حالة المحصول فأجابت البعوض.. "على خير ما يرام يا أخي الزنبار فمحصولنا أكبر محصول في العام" .

وسأل الزنبار: "وهل البطاطس كبيرة الحجم؟"، وهتفت البعوضة: "لم يسبق لك في حياتك أن رأيت مثل البطاطس" ، وسأل الزنبار عن حجمها فنفخت البعوضة صدرها قبل أن تنحني وتجذب سروالها وتكشف عن ساقها قائلة: "إن أحسن جزء في محصولي ومحصول والدي أكبر من أكبر جزء في ساقي"

ونظر الزنبار إلى ساق البعوضة الدقيقة وأخذ يتصور ضخامة ثمار البطاطس، وحاول ضبط نفسه ولكنه لم يتمالك، فانفجر ضاحكا في وجه البعوضة، واستغرق في الضحك حتى أمسك جنبيه ودمعت عيناه من فرطة

الضحك. وكلما نظر إلى ساق البعوضة التى تشبه الخلال، أغرق في الضحك حتى صار يترنح ويتمايل في كل اتجاه.

وحملقت فيه البعوضة في دهشة وسألته عما دهاه. ولم يقو على الإجابة، وإنما قال بأنفاس متقطعة: "ما أضخم ثمار البطاطس إذن!!. إذا كانت على ما تصفين!" ومضى إلى بيته، وهو يضحك طول الطريق ممسكا بجنبيه من شدة الضحك. وأخيرا وصل إلى بيته.. وبدأ يضحك من جديد، وهو يحدث أسرته عن البعوضة، وكاد يمسك أنفاسه عندما نظرت إليه زوجته بإمعان وصاحت به "أخي الزنبار.. ماذا دهى معدتك"؟

ونظر الزنبار إلى أسفل ليرى ما تشير إليه زوجته، فتبين أنه فقد معدته وكاد يختفي خصره، بل كاد يكون بلا خصر، فتوقف عن الضحك في الحال، وعاد ينظر في ذهول ليرى ما سببه له تماديه في الضحك، وضغط جنبيه حتى بدأ كأنه شطر شطرين وكاد يخشى من أن يعطس.

وعندئذ بدأ الزنبار يفكر في أولئك الذين سخر منهم طول حياته، وعرف أنهم بدورهم سيسخرون منه، ولذا أصبح ضيق الصدر غير صبور، لأنه يتوقع منذ ذلك اليوم أن سيلقى سخرية غيره. ومما زاد الطين بلة أنه لم يقو على الضحك مرة أخرى، وإلا انفصل نصفاه أحدهما عن الآخر.

الأرض الواطئة

أسطورة الخوذة الذهبية

في سالف الزمان، عندما كانت "الأرض الواطئة" تكسوها الغابات التى كانت تعمرها الذئاب والدببة، كانت "فريزينا frisiaخلوا من الكنائس، لأن الناس كانوا يعبدون الأوثان، وكان من بينها وثن اسمه "فوسيت fosite" هو إله العدالة بينهم، كان يخصه الناس باحترامهم ويؤمنون بأن أوراق شجرته المقدسة تبرئ المرضي، ولذا كانوا يذهبون بمرضاهم وجرحاهم إلى حيث يضعونهم تحت ظلالها. وكان هؤلاء البربر يعيشون على ثمار البلوط والتلوث ويلبسون جلود الحيوان.

وذات يوم وفد إليهم من جهة الجنوب، من البلاد المسيحية، مغن يحمل قيثارته، ومضى يعزف في حضرة ملك "فريزيا" ألحانا جميلة، ويغني أغنيات عذبة استهوت ابنته، فأنصتت إليها وهي طروب، وسالت دموع الشجن من عينيها، ثم تبعتها دموع الفرح. وكانت الأميرة مثار فخر والدها الملك وسروره، لما امتازت من دماثة الأخلاق. وكان الجميع يفخرون بجمالها، ولما كان والدها من عبدة "فوسيت" إله العدالة، وعرفت هى بإنصاف أترابها فقد سماها "فوستدينا fostedina" أى حبيبة "فوسيت" أو "سيدة العدالة".

وكانت أغنيات ذلك المغني الذي وفد من الجنوب تختلف عما اعتاده العازفون والمطربون في بلاط الملك، فبدلا من التغني بالقتال والنضال، وقنص الذئاب والدببة، كانت أغانية تدور حول علاج المرضى ومساعدة الضعفاء. وبدلا من أن تذكر مقالته الدانمركيين وقتلهم، وتنوه بأعمال "وودان" إله الحرب، تغني رجل الجنوب بالخير والتقوى، وذكر رب السموات المحب لعباده الذى أرسل "السيد المسيح" لهدايتهم، وعلمهم الصفح عن أعدائه، وتغنى بالحب والأمل والرحمة بالفقراء والمعذبين، وعندما كانت أصابعه تجري على أوتار قيثارته، كان النغم ينبعث منها رقيقا خافتا ثم حزينا يحرك القلوب.

وغضب المحاربون لهذه الأغاني، ولم يرضوا بالصفح عن أعدائهم الدانمركيين، وصاحوا طالبين قتل هذا المغني المجنون. وأخذوا يضربون تروسهم بسيوفهم حتى علا صليلها يصم الآذان، وتجاوبت أرجاء القاعة الفسيحة بأصداء أصواتهم كما لو كانوا على أهبة القتال. وكان من ورائهم كهنتهم الوثنيون يحرضونهم على الفتك بهذا المغني. واندفعت "فوستدينا" إلى الأمام تحمي العازف، وغطته بشعرها الذهبي الطويل. ونهض الملك عن عرشه، وعليه أبهة الملك، وقال في صوت جمع بين الجلال والعظمة: "ليس لكم أن تقتلوه؛ فهو ضيفنا، وقد دعوته إلى هنا، ولذا وجب أن يكون في أمان".. وترك المحاربون والكهنة القاعدة مكتئبين، وقد امتلأت قلوبهم بالبغضاء المريرة، وأقسموا على الثأر من الدانمركيين. وكان قد حضر منهم جماعة مسالمة إلى "فريزيا" ليبشروا بالدين المسيحي. وكان الليل باردا في الغابة فقطعوا في غير تبصر، بعض الغصون الجافة من شجرة "فوسيت"

المقدسة، وأشعلوا بها نارا يصطلون بحرارتها. وأراهم أحد الجواسيس فقبضوا عليهم وسجنوهم في الغابة، وعزموا على عقابهم بإلقائهم إلى الذئاب والدببة الجائعة لتمزقهم إربا

وقد تأثرت "فوستدينا" تأثرا عميقا بأغاني رجل الجنوب، عن الإيمان بإله واحد، ومال قلبها لعبادته، وعزمت على إطلاق سراح الأسرى، وفي منتصف الليل دعت خادما وثقت به، وحملت مصباحا وقصدت سرا إلى السجن، حيث كان الدانمركيون ينتظرون ساعة عقابهم وإلقائهم في صحن مسرح به الذئاب الضارية، وفتحت بابه وتوسلت إليهم باسم ربهم أن يسرعوا بالعودة لبلادهم.

وبينما كانت الذئاب والدببة تصيح مزمجرة، وقد ملأت خياشمها رائحة اللحم البشري، تسلل الأسرى في الظلام ونجوا بحياتهم، إلا أن الحراس قبضوا على ابنة الملك في أثناء عودتها إلى القصر.

وفي الصباح اليوم التالي، عندما علم الناس بما كان من أمر الأسرى وفرارهم، وحرمانهم من التفرج برياضتهم المحببة إليهم، ثارت ثائرتهم، وتوجهوا إلى القصر وأحاطوا به وطالبوا الملك بأن ينزل القصاص بابنته، ولم يستطع الملك إلا أن يذعن لمشيئتهم، وقبل أن تمثل فتاته أمام مجلس الكهنة. وبينما كان الكاهن ذو اللحية البيضاء يتكلم والذئاب تزمجر، وقفت الفتاه الجميلة في شجاعة وثبات، وعبثا حاول الكهنة إخافتها،

وراحوا يستنزلون عليها لعنات آلهتهم. وقالت "فوستدينا" أنها تفضل أن تتحمل الآلام في سبيل دينها الذى اعتنقته، وأنها لن تنكر ربها الواحد.

وصاح كبير الكهنة: "غدا تقفين في سوق المدينة من شروق الشمس إلى غروبها وعلى جبينك تاج من الأشواك".. وذهبت توسلات أبيها سدى عندما طلب منها أن تسألهم الرحمة بها.

وفي الصباح التالي اشتملت برداء أبيض من جلد الظباء، وأرسلت شعرها الذهبي، وفي خطو ثابت غير متخاذل سارت إلى وسط السوق. وأمر الكاهن الأكبر بإحضار تاج الشوك لتلك التى كفرت بوثنهم، وأحضر التاج، وركعت لابنة الملك أمامه، ومضى العجوز الغاضب يضغط الأشواك الحادة في بطء ووحشية على جبهة الفتاة حتى انبثق الدم وسال على شعرها الذهبي ووجهها، ولكنها لم تبد ما يدل على ألمها. ووقفت "فوستدينا" تحملق في الحشد الصاخب الذى قضى اليوم يصرخ حولها تكريما لآلهتهم، وأخلدت هي إلى الصمت والصبر، وقلبها يتجه إلى الله يسأله الصفح والمغفرة لهم.

ومضت أعوام، وأثرت جراح "فوستدينا" في قلوب الناس فرقت، وأصغى الآلاف منهم إلى كلمات المبشرين، واتجهوا إلى الله. واعتلت "فوستدينا" العرش، وتحطمت الأصنام، وشيدت الكنائس، واجتثت الأشجار المقدسة، واستحالت الغابة إلى مروج خضراء ترعى فيها الأبقار، وتفتحت الأزهار حيث كانت الذئاب تجول.

وأحب أمير مسيحي من الجنوب "فوستدينا" وقصد إليها طالبا يدها، وفي صباح يوم الزفاف ذهب إلى القصر موكب من الفتيات الجميلات يرتدين الملابس البيضاء، وكانت إحداهن تحمل تاجا من الذهب على هيئة الخوذة، قصد به إخفاء ما في جبهة "فوستدينا" من آثار الجروح، وزفت ابنة الملك وعلى رأسها الخوذة الذهبية.

واليوم لو أنك ذهبت إلى "فريزيا" ذات البحيرة الجميلة، لرأيت الفتيات الصغيرات يلبسن خوذات ذهبية كخوذة "فوستدينا" وعلى كل أذن زهرة صغيرة ذهبية وقبعة جميلة فوق الذهب، إنه غطاء الرأس القومي في "فريزيا" الحرة. وإلى اليوم.. عندما تزور ملكة الأرض الواطئة "الفريزيين" في واديهم الذى كان فخر أسلافها، تضع على رأسها خوذة ذهبية.

عشب نضر فوق الجدار

كانت مدينة "كامين kampen" في مقاطعة أوڤرجيسيل overjessel" معروفة من قديم الزمن، بفكاهاتها الكثيرة، ونكاتها العملية. وكانت موطنا لكثرة من الأذكياء، وكان يحيط بها في ذلك الوقت سور يحميها من اعتداء الأعداء، إذا حدثتهم أنفسهم بذلك. وذات يوم من أيام الآحاد طاب أصيله ورق نسيمه، خرج رجل اسمه "وللم willem " وكان من الشخصيات البارزة في المدينة ومعه ولده الصغير، وقابل في الطريق اثنين من أصدقائه، فانضما إليه. وبعد قليل من الوقت بلغوا سور المدينة، وأجال "وللم" طرفه في السور فاكتشف في أعلاه عشبا أخضر قد نبت أخيرا بين أحجار السور العليا. وقال لصديقه متعجبا، وهو يشير إلى أعلى: "انظرا يا صديقيَّ.. أليس من الإثم عدم الانتفاع بهذا العشب الأخضر النضير"

وصاح أحد صديقيه: "إنك على حق.. يجب ألا يضيع هذا العشب سدى".. كان هذا الصديق معروفا في أنحاء المقاطعة بشدة بخله، وأنه يمكنه الحصول على المال من كل شئ، حتى ولو كان حجرا صلدا.

وسأل الصديق الآخر، وهو الآخر لا يطيق رؤية هذا العشب يضيع سدى: "وماذا نعمل به؟"

وتظاهر "وللم" بالتفكير مدة دقيقة قال بعدها، وقد اتخذت ملامحه طابع الجد: "يجب أن نأتي ببقرة ترعى هناك" وأمَّن صديقاه على قوله، ونادوا في سكان "كامين" وأسرع هؤلاء إلى هذا المكان من السور يتسابقون، واتفقت آراؤهم جميعا على أن "وللم" ذلك الذكي الفطن، على حق فيما قال.

وشرع الجميع عدا "وللم" يعملون في الحال، ورفعت كتلة من الخشب إلى أعلى السور، ثبتت في نهايتها "بكرة" وأسرع بعضهم وأحضر بقرة من أحد المراعي، وأدخلوا رأسها في عروة حبل متين، وأنفذوا طرف الحبل الآخر من البكرة. وأخذوا عدا "وللم" يجذبون الحبل، ورأوا البقرة ترتفع إلى منتصف السور، وقد تدلى لسانها من فمها.

وصاح سكان "كامين" الأذكياء فرحا، إذ حسبوا أن العشب الأخضر أثار شهية البقرة فأخرجت لسانها.

وفي النهاية، وبعد لأي، تمكنوا من رفع البقرة إلى قمة السور، وإذا بهم يكتشفون أنها قد ماتت. وهكذا حرم على البقرة المسكينة العشب وغيره من أنواع الغذاء.

المكسيك

تيبـوزتـون

للآلهة التى تعيش فوق السحاب، على قمة جبل مرتفع في جوفه حمم ملتهبة، أعمال وعليها واجبات؛ فعليها أن تسقط الأمطار في مواعيدها، لتنمو الأعشاب والغلال والأزهار والفاكهة، وهي تحمل مقراضها كما يحمله الرجال لجز شعر الأغنام تحمله فتهذب الرياح لتحول دون هبوبها بقوة عظيمة، وهي دائبة على إجراء التجارب المختلفة، حتى إذا انتهت منها إلى شئ نافع علمته للناس؛ فهي التى علمت شعب المكسيك نسج القماش وصنع الصحاف وبناء المنازل وحفر المناجم واستخلاص المطاط من الأشجار وصنع الكرات التى يلعبون بها.

وفي أوقات فراغها تركب الآلهة خلال السحاب، أو تتخذ هيئة حيوانات لتجرب ما يحسه كل منها، ولكنها تفضل لعب الكرة على كل شئ آخر، حتى إذا ما أتعبها اللعب، جلست لتدخن التبغ في غلايين خزفية طويلة.

وحدث في سالف الزمان، أن شعر إله شاب بالسأم والملل، فسئم منظر الكرة في وثباتها، وسئم ركوب الخيل خلال السحاب، وأفرط في التدخين حتى أصابه صداع، ومع ذلك لم يحس بشئ من المتعة، وسأله أقرب أصدقائه إلى نفسه، وقد نفذ صبره: "ترى.. ماذا أصابك! إننا جميعا نحصل على ما نريد من متعة لأنفسنا، وما من شك في أن ما يصلح لنا

يصلح لك أيضا.. ثم ماذا تبغي أكثر من أن تلعب الكرة، وتركب الخيل خلال السحاب وتدخن التبغ، وتنفث حلقات الدخان؟".

وقال الإله الشاب المتعب: "لقد فكرت، وخطر لي أن ما أبغيه أكثر من أى شئ في العالم، هو أن يكون لي طفل صغير".. وتملك الصديق العجب، وقال: "طفل صغير!! هل تخلل السحاب رأسك؟.. وإلا فمن سمع بإله اتخذ ولدا؟ وما الولد الصغير إلا مصدر قلق وشقاء، وهو ضرر دائم؛ فكل يوم يزيد نموا حتى تضيق به نعاله وملابسه؟".

وتنهد الإله الشقي وهو يقول: "أعلم ذلك، ولكني مازلت أرغب في أن يكون لي ولد صغير، وسأهبط إلى الأرض سعيا وراءه". قال صديقه: "يبدو أنك فقدت عقلك، وكم ستندم على ذلك؛ فتريث قليلا". وأجاب الإله قائلا: "كلا.. لن أندم". ثم هبط من الجبل وأخذ يضرب في الأرض، ولم يعرف أحد حقيقة، إذا لم تكن ملابسه لتميزه عن أي إنسان آخر، وظنه الناس مجرد شاب وسيم، وفي ذات يوم وقف إلى جانب عين يريد أن يشرب، وأقبلت فتاة جميلة تملأ جرتها فأحبها الإله، وبادلته الحب وذهبا معا، وبعد فترة رزقا ولدا صغيرا، وأحس الإله أنه سعيد جدا. ولكنه لم يلبث أن عاوده الحزن ثانية، لأنه لم يكن يستطيع أن يقيم على الأرض ليلعب مع طفله الصغير، وكان عليه أن يعود إلى الجبل ليشارك الآلهة في تنظيم الأمطار ورعاية المحاصيل، وإلا لم يجد الناس ما يكفيهم من طعام، وحتى زوجته وطفله يصيبهما الجوع، فقبل الفتاة وودعها واختفى عن ناظريها.. ورأت الفتاة في المكان الذي كان يقف فيه قطعة حجر صغيرة

مستديرة ملساء خضراء كأنها من نبات الأرض؛ فالتقطتها وثقبتها وعلقتها حول عنق الطفل، وحملت الطفل إلى أهلها فاستاءوا لمنظره، وأرادوا قتله.. وسألها والدها: "أين أبوه؟.. ما كان لطفل بلا أب أن يولد على الإطلاق، وحري به أن يموت". وقالت الفتاة: "إنه طفل جميل" وصاح أبوها: "إني لا أبالي بجماله، فيجب أن يموت"

وحملت الفتاة طفلها ومضت به إلى الحقول، ولم تكن تدري ما تفعل، ولا يمكنها أن ترى مكروها يصيبه. وعندما أدركها الظلام وضعته في برقة وسط أوراق نبات مفترس، وعادت إلى البيت باكية. وسر والدها لذلك، وقال بإرتياح بالغ: "وسيقتله الجوع والبرد"، ولكن الفتاة واصلت البكاء عليه.

وفي اليوم التابي تسللت خارج المنزل لترى ما حل بولدها فرأت أن النبات قد أزور عنه، ومالت عليه أوراق كبيرة عريضة لتدفئه، وراح في نوم عميق، وكان بإحدى الأوراق ثقب صغير يقطر منه في فم الطفل سائل أبيض، حلو دفئ. ومضت الفتاة تلاعبه وقتا طويلا حتى إذا تبينت أن الوقت تأخر بها وضعته وسط قرية نمل ورجعت إلى بيتها باكية. وعادت في اليوم التالى فرأته تغطيه وريقات الزهور الحمراء، وكان يرفس بقدمه الصغيرة وهو يبتسم، وكان بعض النمل يجلب إليه مزيدا من الوريقات الحمراء، ويجلب البعض الآخر عسلا يضعه في عناية بين شفتيه، وقد خشيت الفتاة أن يزيد غضب والديها من الطفل، فوضعته في صندق من الخشب

وأحكمت غلقه بالمسامير وقذفت به إلى النهر، وحمله التيار بعيدا عن نظرها.

وعلى مقربة من مصب النهر كان يقيم صياد وزجته تظللهما السعادة، وما من شئ ينقصها سوى الأطفال، وأبصر الصياد بالصندوق في الماء فأخذ يخوض في الماء وراءه وحمله إلى زوجته. ولما فتحت الصندوق ورأت الطفل بداخله تملكتها فرحة عظيمة وصاحت: "وأخيرا أصبح لنا طفل صغير"، وأعدت له في الحال بعض الملابس والنعال، وأخذت تسأل زوجها بما يسميانه. قال الصياد: "حول عنق الطفل حجر أخضر من أحجار الجبل فلنسمه "تيبوزتون tepoztonأي ابن الجبل". وشب الصغير قويا سعيدا بوالديه اللذين تبنياه، ولما بلغ السابعة من عمره صنع له الصياد قوسا صغيرا وبضعة سهام قصيرة. وقد فرح بها "تيبوزتون" وقال له: "لك أن تستريح منذ اليوم يا أبت من عناء الصيد في البر والبحر وسأتكفل أنا بكل ما تحتاج إليه".. وقال الصياد وهو يلاطفه: "وماذا تتوقع أن تحضر لنا بهذه القوس الصغيرة؟". قال "تيبوزتون": "في مقدوري أن أصيد أي شئ". وقال الصياد وهو يحاول عدم الضحك: "هاك سمانة هناك.. فأرني كيف تصيدها؟"

وثبت "تيبوزتون" سهما في قوسه الصغير، ثم أطلقه في الهواء، وإذا بالسمانة تسقط ميتة. قال الصياد: "مدهش، هاك ديك يرى على الشجرة هناك؛ فصده". ومرة أخرى ثبت سهما في القوس، وانطلق السهم في الهواء، وسقط الديك من فوق الشجرة ميتا، وذهل الصياد لذلك.

ومنذ ذلك الحين و"تيبوزتون" يمد الأسرة بكل ما تحتاجه بقوسه الصغيرة وسهامه، وكان يخرج من المنزل كل صباح في الساعة السادسة، ويعود في السادسة مساءً، وكان يمشي وقتا طويلا، ويقطع مسافات بعيدة فتمزق نعلاه بعد وقت قصير، وسألته زوجة الصياد ذات مرة عما يصنعه طول اليوم بالجبل. وأجاب الفتى بقوله: "لدي الكثير من الأعمال" ولم توجه إليه مزيدا من الأسئلة، ولكنها كانت تشك في أن هذا الصبي مجرد إنسان عادي، بل إنه ذو قوة سحرية، واستحالت شكوكها إلى يقين بعد وقت قصير بمناسبة مغامرته مع المارد آكل البشر.

كانت الجبال التى يرتادها للصيد تعج بالحيوانات المفترسة، ولكن "تيبوزتون" لم يكن يخشاها، وكثيرا ما كان يصادف عند المنحنيات التى يمر بها في الطريق ذئبا يلاقيه وجها لوجه؛ فيقف ثابتا يحدق في الذئب الذى يحملق فيه بدوره بعيون تقدح شررا، ولم يكن "تيبوزتون" عند ذلك يزيد على القول: "أهلا بأخى الصغير.. أرجوك أن تتنحى عن طريقي، فلدي مهام كثيرة". وكان الذئب يخطر في هدوء إلى قلب الغابات.

ولم يداخل "تيبوزتون" أي خوف عندما سمع بالمارد آكل البشر، وكان المارد في كل ربيع يطلب إنسانا حيا ليأكله كنوع من مقويات الربيع، وكان المارد في كل عام يختار بلدة مختلفة؛ فتتناوب أسرها في تقديم الضحية المطلوبة من بين أفرادها، وكان بين السكان والمارد اتفاق يقضي بأنهم ما داموا يرسلون له واحدا من بينهم ليأكله، يكف هو عن قتل الناس في

حدود أميال معينة، وكان هذا الاتفاق ملائما للمارد؛ فقد كان كسولا بقدر ما كان شريرا

وعندما بلغ "تيبوزتون" السابعة من عمره، كان دور الصياد في إطعام المارد بواحد من أفراد أسرته قد حل. ولم يكن لدى الصياد سوى زوجته و"تيبوزتون"؛ فقرر أن يذهب بنفسه. ولما أقبل عليه الجنود، تقدم إليهم "تيبوزتون" بقدمه الصغيرة قائلا: "وإنكم لا تستطيعون أن تأخذوا الصياد فخذوني بدلا منه فأنا صغير وألذ طعما"، وأفهم الصياد أنه إن ذهب بدلا منه فلن يصيبه أذى، وأخذ يلح عليه حتى أذن له بذلك.

وقبل أن يرحل "تيبوزتون" مع الجند أشعل نارا صغيرا بأحد أركان الفناء، وقال للصياد وزوجته "ارقبا هذه النار.. فإن ظل الدخان المتصاعد منها أبيض اللون كنت أنا آمنا.. وإن استحال إلى لون رمادي كنت في خطر، أما إذا انقلب إلى اللون الأسود فإني أكون قد مت"، ثم قبلهما ومضى مع الجنود.

وكان الصبي في أثناء الطريق يلتقط من على الأرض قطعا صغيرة من الزجاج الأسود ويضعها في جيبه، وكان هذا الزجاج مما يقذف به البركان الذي يثور في الجبل حيث تقيم الآلهة. وكان حادا أسود اللون لامعا جميلا، يصنع منه الناس رءوس سهامهم، وملأ "تيبوزتون" جيوبه منه. ولما بلغوا سراي المارد، اضطرام هذا غضبا وزمجر: "أتكفي قطعة اللحم هذه لأكلة

مناسبة.. إنني إذا لم أحصل على مقوي الربيع أصابني عسر هضم بقية العام".

وقال الجند المرتجفون: "هذا كل ما وجدناه هناك يا صاحب الجلالة". وانحنى "تيبوزتون" في أدب قائلا: "قد أكون صغيرا، ولكني لذيذ الطعم يا صاحب الجلالة".. وقال المارد: "حسنا اطهوه إذن. ولكن إذا لم يكن لحمه مستساغا فسأخرج وأقتل السكان الذين يعيشون على بعد ثلاثة أميال من هنا"

ووضع الجند "تيبوزتون" في وعاء كبير ملئ بالماء المغلي، وثبتوا عليه الغطاء، ولم يصدر عنه أي صوت، وتمدد المارد لينام إلى أن ينضج غذاؤه. واستيقظ المارد بعد قليل، ورفع الغطاء ليطمئن على طعامه، ولكنه رأى بدلا من الصبي الصغير نمرا كبيرا، وفتح النمر فاه، وزأر بصوت مدو جعل المارد يقفز من مكانه ويعيد الغطاء ثانية.. ورأى أن ينتظر بعض الوقت.

واستيقظ ثانية وكان أشد جوعا، وفي حرص رفع الغطاء فإذا في الوعاء حية ضخمة التفت على نفسها، وما إن رأته حتى فحت في وجهه؛ فأعاد الغطاء إلى مكانه بسرعة، ورأى أن ينتظر وقتا آخر.

واستيقظ المارد للمرة الثالثة، وكان قد بلغ به الجوع درجة تجعله يأكل أى شئ يجده، فطوح بالغطاء، وإذا بالصبي في الوعاء حيا كما هو، وكان يضحك من المارد فأمسك به وهو يعاني من الغضب والجوع، وأطبق

عليه فاه. وفي هذه اللحظة تحول الدخان المتصاعد من النار في ركن الفناء إلى لون رمادى داكن.

وقال الصياد في أنين: "كان يجب أن أذهب بنفسي" وشرعت زوجته تبكي.

وانزلق "تيبوزتون" في زرو المارد قبل أن يبدأ في المضغ، ولما بلغ معدته أخرج إحدى القطع الزجاجية من جيبه ومضى يقطع بها جدران المعدة حتى إذا استهلكت أخرج غيرها إلى أن خلف في جدار المعدة – بعد وقت قصير – ثقبا واسعا. ووضع المارد يده على معدته وهو يعوي: "ما أشد ما أحس من ألم في معدتي" واستمر "تيبوزتون" فيما شرع فيه وهو يضحك. وصاح المارد: "أوه.. أسرعوا إلي بطبيب، فقد سرى السم في كياني، وسبب لي هذا الصبي ألما مرا".. واستمر "تيبوزتون" يقطع حتى اتسع الثقب وبدأ ضوء النهار ينساب إلى جوف المارد، وفجأة أحدث "تيبوزتون" شقا كبيرا يؤدي إلى الخارج، وصدر عن المارد عواء مخيف، وهوى ميتا، وخرج "تيبوزتون" سالما ضاحكا فصافحه الجميع، وعاد الدخان المتصاعد من النار في فناء الصياد إلى بياض الثلج، وفاض الفرح بالصياد وزوجته.

وتوَّج القوم "تيبوزتون" ملكا عليهم، وأقام في سراي المارد، وأخذ يعلم الناس الأشياء النافعة، وكلما خلا من العمل كان يمارس لعبة الكرة أو يركب عبر السحاب أو يتخذ شكل حيوان من الحيوانات للتفكه بها،

ولكنه كان يؤثر أن يسير بين الناس في هيئة إنسان عادي يبذل لهم ما يحتاجونه من عون.

والآن.. يقول البعض إنه يقيم بالجبل مع والده الإله الشاب، ويقول آخرون إنه مازال يعيش على الأرض يرقب الأحداث ويساعد الناس، ولم يتمكن أحد من الإدلاء برأي قاطع في أمره، لأنه لا يمكن تمييزه عن سائر الناس.

البقـرة الباكية

كان لـ "فلورنسيو florencio " زوجة وولدان، وكان لفقره المدقع يقصد كل صباح إلى حيث تذبح الماشية فيشتري ما يتخلف عنها من أمعاء وغيرها من الأجزاء الداخلية بثمن زهيد، وتتولى زوجته "ماريبوزا" mariposa تنظيفها وسلقها، ثم يبيع بعضا منها، ويدع الباقي ليتطعم منه زوجته وصغيراه.

وكان لهم جارة اسمها "مارجاريتا" margarita أتت ذات يوم تطلب من "ماريبوزا" قليلا من الملح، فلما أبصرت "فلورنسيو" يأكل الأمعاء سألته: "أتشتريها من السوق القريبة من النهر؟" وأجاب فلورنسيو:

– نعم وهي لذيذة وزهيدة الثمن.. ولا بد أن أجد ما أطعم به الأطفال

– إن هذه السوق قريبة من الجبانات.

– أعرف ذلك، وماذا بهم؟.

– إن هذه الأمعاء لا تتخلف عن الحيوانات نفسها وإنما عن أشباح.

وضحك "فلورنسيو" قائلا: "أي هراء هذا الذى تتحدث به النساء"؟.

قالت مارجاريتا : "إنه الحق.. والقس هو الذي يدبر هذا.. إنه قس شرير".

قال "فلورنسيو" بلهجة شديدة: "لا تتحدثي عن القس على هذا النحو، ولا تعيدي قولك هذا على مسامعي مرة أخرى".

وبعد زمن يسير ماتت "مارجاريتا"، فقال فلورنسيو لزوجته: "إنها تستحق ذلك بما كانت تتحدث به من لغو".

ولم تشأ " ماريبوزا " أن تدخل معه في نقاش، وآثرت أن تحتفظ لنفسها برأيها، ومضت مدة لم تكن فيها تحس بالجوع الذي كانت تحسه من قبل.

وذات صباح، كان "فلورنسيو" يجلس منتظرا لدى بوابة السوق، عندما سيقت الماشية إلى داخلها، وسمع شيئا عجيبا، سمع ثورا يسأل آخر بقوله: "أهذا أول عهدك بالسوق؟"، وأجاب الثور الآخر: "كلا إنها المرة الثالثة لي، وكم مرة أتيت أنت إلى هنا؟".. قال الأول: "هذه أول مرة لي، وهل يكون الألم شديدا عندما يقطعون رأسك؟".. قال الثاني الذي ذبح ثلاث مرات: "كلا.. إنه ليس إلا نزف دم فحسب"، وعاد الأول يسأله: "وعندما يقطعون رقبتك؟" وقال الثور الثاني: "لا ألم على الإطلاق، وعليك فقط أن تتماسك جيدا واشدد نفسك ولن تحس شيئا، إن الأمر يسير"

وهز "فلورنسيو" رأسه، وحسب أن أذنيه تخدعانه، ثم أبصر ببقرة جميلة جدا تدخل، وكانت عيناها مغرورقتين بالدموع التي سالت على أنفها. ولم يسبق لـ "فورنسيو" أن رأى بقرة تبكي، فاهتم بأمرها وأسرع إليها يسألها عن سبب بكائها.. أهو المرض أم الألم أم أي شئ آخر. وأجابت البقرة بصوت مختنق: "كلا.. لست مريضة.. إنما أبكي لأني مت، وكنت وحيدة في الحياة ليس لي من يبكيني، فأنا أبكي نفسي بنفسي".. قال "فلورنسيو":

– لا تكوني حمقاء؛ فأنت لست ميتة على الإطلا

– بل أنا ميتة.. ألا تعرفني؟.

– لا، فمن أنت؟

– أنا "مارجاريتا"، وقد مت لما حدثتك به القس الشرير الذي يحيل الناس إلى ماشية.

– إنني آسف لموتك يا "مارجاريتا"، ولكن كيف يتأتى للقس أن يعمل هذا؟.

– إن الأمر من السهولة بمكان؛ فعند منتصف الليل يذهب هو وخادم الكنيسة إلى الجبانة، ويظل يردد أدعية، ويأتي أعمالا عجيبة تعرف بالسحر الأسود فتتفتح المقابر ويخرج منها الموتى ويدور بهم القس والخادم وفي أيديهما مسحوق أبيض اللون، ويخاطبان الأشخاص أو الأشباح في الحقيقة، بكلمة "وليك.. وليك" ومعناها "حلو! حلو!" ويتناول الأشباح بعض هذا المسحوق الأبيض فينقلبون في الحال إلى ماشية، وعندئذ يسوقها القس والقند لفت إلى السوق حيث يذبحانها ويبيعان لحومها.

وضحك "فلورنسيو" ثانية وهو يقول: "إن حديث النساء هراء، إني لا أصدق كلمة واحدة منه".

وشرعت البقرة تبكي ثانية، وسيقت بعيدا عنه. وجلس "فلورنسيو" تحت أشعة الشمس إلى أن ذبحت الماشية واشترى الأمعاء كعادته.. وتولت زوجته تنظيفها وسلقها، وكانت بين الفينة والأخرى تأتيه بملء ملعقة منها تسأله أن يذوقها. وقال " فلورنسيو " وكأنما يداخله إحساس غريب: "أظنني لا أبالي بشئ ما". وسألته زوجته: "ماذا حدث؟.. هل سمعت شيئا؟". قال "فلورنسيو": "مجرد هراء نساء". وقص عليها ما كان من حوار بين الثورين، وحدثها عن البقرة التي أدعت أنها "مارجاريتا" وختم حديثه بقوله: "لست أصدق هذا وسأذهب إلى القس أسأله عن مدى حقيقة هذا الأمر". وصاحت "ماريبوزا": "إياك أن تفعل.. أرجوك ألا تذهب". إلا أن "فلورنسيو" كان له عناد الرجال؛ فقال لها: "إني أعرف ما أفعل". واستبد القلق بها، فتبعته بطفليها إلى الكنيسة، وطلب إليهم "فلورنسيو" أن ينتظروه لدى الباب، ودخل وحيدا..

وقال القس: "حسنا يا فلورنسيو. ماذا أستطيع أن أعمل من أجلك؟".

قال "فلورنسيو": "صباح الخير يا سيدي.. هل لي أن أسألك سؤالا؟".

قال القس: "حسنا يا بني".

وسأله "فلورنسيو" في جفاء وغلظة: "أصحيح.. أنك تحيل الآدميين.. أعني الأشباح ماشية؟".

قال القس: "طبعا لا.. من أخبرك بهذا؟".

أجاب "فلورنسيو": "مارجاريتا".

قال القس وقد قطب جبينه: "أوه.. هي؟.. وهل أخبرت أحدا بذلك؟".

قال "فلورنسيو": "لا.. بل زوجتي فقط"، وغمغم القس قائلا: "إذن فالأمر كذلك؟"، كانت هذه هي نهاية "فلورنسيو" وظلت "ماريبوزا" وطفلاها يرتقبون لدى باب الكنيسة، وكل ما رأوه كان ثورا عظيما أسود ذا نقاط بيضاء على صدره وحلية بيضاء في ذيله سار إلى خارج الكنيسة لا يلوي على شئ، وعجبت "ماريبوزا" لوجود الثور في الكنيسة، وساورها القلق على "فلورنسيو"، وبعد أن طال بها الانتظار دلفت إلى داخل الكنيسة بحثا عنه، ولكنه لم يكن هناك، وأخبرها القس بأن أحدا لم يحضر إلى الكنيسة. وعادت "ماريبوزا" وطفلاها إلى البيت والحزن غالب عليهم، ولم يعد "فلورنسيو". ورجحت في النهاية أن يكون قد لقي حتفه، وكل من لقيها كان يظن ذلك ولقيها الناس بـ "ماريبوزا الأرملة". وكان عليها أن تعول طفليها، ولم يهدها تفكيرها إلى شئ تستطيع عمله سوى معاونة جيرانها في طحن الحنطة، وبهذه الوسيلة كفلت لهما الطعام، ولكن ملابسهم جميعا كانت رثة بالية.

وذات يوم كانت واقفة في حقل، وقد ملك اليأس قلبها فسمعت حفيفا على مقربة منها، وبدا أمامها شاب صغير لا يختلف في شئ عن نظرته من الشبان، ولكن لم يسبق لـ "ماريبوزا" أن رأت شخصا عاديا يظهر فجأة، وكأنما انشقت عنه الأرض. وقال لها الشاب في عطف: "دعي عنك الحزن لقد كنت فيها مضى تنسجين ضروبا جميلة من الأحزمة والزنابير، فلم لا تصنعين بعضا منها الآن وتبيعينه، وتشرين بثمنه لنفسك ولطفليك طعاما أفضل، وبعض الملابس؟" قالت "ماريبوزا": "ليس لدي صوف".. قال الشاب: "سأقدم لك ما تحتاجين من صوف"، ورفع يده إلى أعلى وأنزلها إلى أسفل، وفجأة امتلأت يدا "ماريبوزا" بلفافات من الصوف لها ألوان الطيف المختلفة. وأدركت في الحال شخصية محدثها فقالت له: "شكرا لك ألست أنت تيبوزتون tepozton "

قال: "نعم.. أنا هو. فاعتني بطفليك عناية تامة، ولا تعاودي البكاء يا "ماريبوزا". واختفى من أمامها، ورأت مكانه زهرة جميلة خضراء بدأت تتفتح، ومنذ ذلك اليوم صنعت الأحزمة والزنانير الرائعة، وأخذت تبيعها وتوفر لها ولطفليها الطعام والملابس الجميلة. ثم أقعدها المرض في أحد الأيام عن الاستمرار في النسيج وجاع الطفلان ثانية، وقصدت في النهاية إلى بيت جارها لتطحن قمحه، وأخذت القمح تطحنه بمنزلها حتى لا يرى الجار مبلغ مرضها.

وعملت طويلا إلى أن نال منها التعب فجلست وهي تقول: "لو كان "فلورنسيو" على قيد الحياة"، ولم تكد تتم قولها حتى اندفع ثور أسود

كبير داخل المنزل. وخار الثور قائلا: "اغلقي الباب سريعا"، وأغلقت "مايبوزا" الباب. قال الثور: "خذى هذا الحبل عن عنقي، وخبئيه سريعا". وما كادت تفعل حتى اختفى الثور، وحل محله "فلورنسيو" الذي قال لها: "هربت لتوي من حظيرة الثيران، وسيبحثون عني فأخبريهم أنني لست هنا، وأعتقد أنه من السهل عليك إخفائي وأنا على هذه الصورة". ولفته "ماريبوزا" في "حصيرة" وضعتها بأحد الأركان. وبعد بضع دقائق اجتمع لدى بابها حشد كبير، سألوها عن ثور كبير أسود؛ فأجابت بأنها لم تره. ولكنهم رأوا آثار حوافره داخل الباب فلم يصدقوها، ودخلوا المنزل يبحثون عنه، وبحثوا في كل ركن وخلف الباب وتحت الفراش، ودنوا من "الحصيرة"، فقالت لهم: "هل سمع إنسان بثور كبير يختفي في "حصيرة"؟.." وضحكت ساخرة منهم فانصرفوا عنها ساخطين.

وخرج "فلورنسيو" من "الحصيرة"، وقبَل زوجته وضم صغيريه إلى صدره، وقضى وقتا طويلا يلعب معهما ويتحدث إلى "ماريبوزا " وبدأت أجراس الكنيسة ترسل دقاتها، وبدأ هو يتحول ثانية إلى هيئة ثور، وبكت "ماريبوزا" بكاءً مريرا.

وقال الثور: "لا تبكي يا زوجتي العزيزة، فلا أستطيع البقاء معك لأني تحت تأثير سحر القس، سحره الأسود، ولكنني أستطيع معاونتك على أي حال فكفي عن البكاء وانصتي إلي جيدا"، وقالت "ماريبوزا" وهي تغالب البكاء: "أنا لا أبكي".. قال الثور: "تقام في الغد حفلة كبيرة لمصارعة الثيران، وسأكون ثالث ثور في الحلقة، فلا تنسي أنني ثور أسود لي

نقاط بيضاء على صدري وحلية بيضاء في ذيلي، وسأتظاهر بشراسة وضراوة شديدتين حتى لا تستطيع أحد أن يدنو مني، وسيفرون جميعا من أمامي، وعندئذ اعلني على الملأ أنك ستنزلين إلى الحلبة لمصارعة الثور، ثم أمسكي "بالحرملة" وارقصي حولي متظاهرة أمام الناس بأن الأمر شاق، وفي النهاية تحصلين على الجائزة التي رصدت لأفضل مصارع ثيران، وقدرها ألف جنيه، وبذلك لا تكابدين أنت وأطفالنا الجوع ثانية".. قالت: "ولكني مريضة". قال: "كلا.. لست مريضة، ولا تنسي أني الثور الثالث، لوني أسود ولي نقاط بيضاء على صدرى وحلية بيضاء في ذيلي، وإلى اللقاء". وجرى الثور عائدا إلى حلقة الثيران.

وفي اليوم التالي أحست "ماريبوزا" أنها حقا أحسن حالا، فاشتملت بأفضل "شال" أزرق لديها، ولبست إزارا أحمر اللون وذهبت إلى حلبة النيران حيث وقفت إلى مقعد في المقدمة قريبا من الحلبة يمكنها منه رؤية كل شئ. وكان أول ثور خرج إلى الحلبة أسود اللون ذا نقاط بيضاء على ظهره، وفي عينيه نظرة حزينة، وكان يخور في وحشية، وألقى أحد الرجال الأنشوطة حول أقدامه وجذبها فوقع الثور وعرفت "ماريبوزا" أنه لم يكن "فلورنسيو".

وبعد ذلك خرج ثورا أكبر من الأول وأشد منه سوادا، وكانت له نقاط بيضاء على رأسه، وراح يحفر الأرض بحوافره ويميل برأسه من جانب إلى آخر، وأخرج لسانه وأخذ يخور خوارا مرتفعا، وعجبت "ماريبوزا" لاحتمال أن يكون هذا الثور "فلورنسيو"، وتمكن ثلاثة رجال من التغلب

عليه فأيقنت أنه ليس هو. واندفع الثور التالي خارجا من البوابة دون أن ينتظر فتحها وجرى بسرعة لم تتبين معها "ماريبوزا" لونه وعبر الحلبة إلى حيث وقف أمامها، وأرسل خوارا وحشيا يبعث الرعب في قلوب الناس، وجعلهم يتراجعون عن الحلقة. وتبينت النقاط البيضاء على صدره والحلية البيضاء في ذيلة، ولمحته يغمز لها بعين ضاحكة؛ فعرفت أنه "فلورنسيو". وخرج أول رجل إلى الثور، وكان يثب خفيفا، وهو يصيح.. ولم يمهله الثور فرفعه على طرفي قرنيه وقذف به إلى ناحية "ماريبوزا"، وثبت لديها أنه "فلورنسيو". وخرج إليه الرجل الثاني، والتفت إليه الثور بشكل أفزعه وجعله يفر من أمامه، ولم يعاود الظهور ثانية.

وازداد يقين "ماريبوزا" بأن الثور هو "فلورنسيو" وقصدت إلى أحد مصارعي الثيران ترجوه أن يعيرها "حرملته" الحمراء لتنازل الثور، وانفجر الرجل ضاحكا وهو يقول: "ما سمعنا بامرأة تصارع الثيران، ولم لا تستعينين بمئزرك الأحمر في ذلك؟".. قالت "ماريبوزا": "حسنا.. سأفعل"، وذهبت إلى كبير المصارعين تستأذنه في النزول إلى الحلبة لمصارعة الثور.

وضحك هذا بدوره وسألها: وأين "حرملتك" الحمراء؟. قالت: "سأستعمل مئزري الأحمر هذا"، قال: "حسنا، ولكن اذكري أن الناس سيضحكون منك ولا مسئولية علينا لو قتلك الثور".. قالت: "لو قتلني الثور انتهى الامر بموتي، وهذا كل شئ"، ووثبت "ماريبوزا" إلى الحلبة وهي تحرك مئزرها الأحمر، وهجم عليها الثور، ولم تكن خائفة لأنها تعلم أنه "فلورنسيو".. وضجّ القوم بالضحك، ولكنهم كفوا عن الضحك بعد

دقائق إذ رأوها تتفادى هجمات الثور الوحشية بحركات رشيقة، وخار الثور وهو يندفع إليها، ولكنها راغت منه، وخار ثانية، وأخذت تصيح صيحة مصارعي الثيران وهو يندفع إليها.. ثم تناولت رمحين قصيرين يزينهما الورق الملون ولوحت بهما للثور، وارتفع خواره وأسرع إليها، ووقفت هي على أطراف أصابعها ووثبت إلى ظهره وطافت به أرجاء الحلقة، ومضى النظارة يصفقون ويهتفون لها.. وصدحت الموسيقى، وفازت "ماريبوزا" بجائزة مقدارها ألف جنيه بوصفها أفضل مصارعي الثيران، ومنذ ذلك اليوم صارت تلقب بـ "الأرملة مصارعة الثيران" وتوفر لها ولأولادها الطعام والملابس الجميلة.

وحدث في أعقاب حفلة المصارعة هذه ما أبطل تأثير سحر القس الشرير على "فلورنسيو"، وكان ذلك بفعل صبي صغير اسمه "شوشو chucho " وكان "شوشو" يقيم مع أبويه في كهف واسع مريح ينامون فيه على الحصير، وتنضج أمه الطعام على نار توقدها وسط الكهف، على حين يزرع أبوه القمح في أرض خارج الكهف وإلى جانب فتحة الكهف قامت شجرة مثقلة بثمار جوز الهند؛ فكانوا يشربون لبن جوز الهند ويأكلون الثمار الحلوة ويجلبون حاجتهم من الماء من نهر قريب كانوا ستحمون فيه. وعلى الرغم من فقرهم وعدم وجود منزل لهم فقد كانوا سعداء في هذا الكهف المريح. ومات والد "شوشو" وأخذت الأم توزع عنايتها بين "شوشو" وبين زراعة القمح. وحدث في إحدى الليالى وهما نائمان أن دفع قرد خبيث بصخرة كبيرة إلى مدخل الكهف فسدته..

وفي الصباح أخذت الأم تحاول دفع هذه الصخرة بعيدا عن المدخل ولكن دون جدوى؛ فقد كانت أضعف من أن تقوى على ذلك، وكان "شوشو" أصغر من أن يستطيع معاونتها.. وجلس القرد الملعون بأعلى الشجرة يهز ذيله وهو يضحك من فعلته، وشرعت الأم تبكي، وحذا "شوشو" حذوها.

واتفق في هذا الوقت أن مر بالمكان سائق بغال، أوقف بغاله لدى النهر، وتناهى إلى سمعه صوت استغاثة الأم فخف إلى ناحيتها، ولكنه لم ير منها سوى رأسها، وأخذ يدفع الصخرة ويجذبها، والقرد يقذفه بثمار جوز الهند من أعلى الشجرة فأصابته واحدة في رأسه وأخرى في أنفه، ولكنه استمر في محاولته إلى أن وفق أخيرا إلى زحزحة الصخرة وخرج "شوشو" وأمه وركبا بغلا وسارا في رفقة سائق البغال الذى تزوجها وأخذ يعنى بها وبشوشو. وقد أحبه "شوشو" كثيرا، وكان كثيرا ما يرافقه عندما ينتقل من بلد إلى آخر لبيع ما تحمله البغال من سلع كثمار جوز الهند والأناناس والقمح والقدور والببغاوات. وعندما بلغ "شوشو" سبع سنوات كان يستطيع أن يتولى وحده إعداد البغال، وكان يتحدث إليها، وكان صبيا قويا لا يهاب شيئا، ولا يعرف الخوف مطلقا. وفي يوم ما كان ذاهبا إلى السوق ليشتري لأمه بعض السكر والصوف فالتقى بـ "إجناشيو"، وهو ولد كبير بلغ الرابعة عشرة من عمره، وكان عمله مقصورا على دق أجراس الكنيسة كل صباح ومساء. وسأله "شوشو" عن حاله؛ فأجابه بأن الأمور ليست على ما يرام، وأنه تجري في الكنيسة أمور عجيبة.. ثم قال: "في الليلة الماضية عندما صعدت الدرجات لأدق الأجراس سمعت صوت نحيب

أعقبه صراخ؛ فنزلت مسرعا إلا أن شيئا جذبني من شعري فملأني الرعب، ولست أقصد أن أخبرك بذلك، ولكني سأذهب إلى القس لأخبره بأني سأترك العمل"

– أؤكد لك أن شخصا ما كان يختبئ هناك.

– إنها الأشباح، ولست أريد عملا فيه أشباح، وإلا فيكون القس مصدر هذه الأصوات، ويتناقل الناس عنه أنه يحيل الآدميين حيوانات أو ما شابه ذلك، وعلى أي حال فأنا ذاهب لأستقيل من العمل.

– ولماذا لا تسأله؟

وارتجف "إجناشيو" ثانية وهو يقول:

– لست أريد أن أختفي إلى الأبد، إذ يشاع أن من يسأله يختفي فهو يحيلك ثورا أو عجلا أو أي شئ آخر يريده، إنه يقلب الموتى ماشية، لست أنا الذي أسأله عن أي شئ

وفكر "شوشو" لحظة قال بعدها: "سأخبرك بما تفعله.. قل للقس إنك مريض وإني ساحل محلك في دق الأجراس حتى تشفي، فإني أعتقد أن شخصا ما يختفي هناك، وسأكشف ذلك"

وحملق "إجناشيو" وهو يقول: "ألست خائفا يا "شوشو".. إنك في السابعة فقط، وأما أنا ففي الرابعة عشرة، ويكاد الخوف يقتلني".. قال شوشو: "كلا لست خائفا"

وفي المساء أخبر والدته بأن لديه ما يعمله بالخارج، وقصد إلى الكنيسة ولم يكن موعد دق الأجراس قد حان؛ فتسلل إليها في هدوء واختبأ وراء المذبح. وبعد قليل من الوقت سمع صوت النحيب والصراخ، وبدا كأن هناك من يتألم. ورجح أن يكون الصوت منبعثا عن قطعة، ثم سمع وقع أقدام خفيفة ورأى امرأة بصحبتها رجل يحمل سكينا كبيرا، ونظرا حولهما بشكل مريب وشرعا يسرقان محتويات الكنيسة، فاختطفا اللآلئ التي تزين القديسين، والكؤوس الذهبية وحاملات الشموع الفضية من على المذبح، ودسا هذه الأشياء كلها في غرارة كبيرة، كما سرقا صندوق التبرعات والأطباق التى تجمع فيها النقود. وصاحت المرأة: "أسرع.. فإني أسمع وقع خطوات القس قادما"، وأجاب الرجل في صوت خشن: "لا تخشي شيئا؛ فقد سويت الأمر".. ودخل القس وناوله الرجل كيسا وهو يقو : "هاك نصيبك نقودا ذهبية"، وقال القس: "أسرع فقد حان موعد دق الأجراس وحضور الناس للصلاة، وعليّ أن أرتب الأشياء هنا حتى لا يرتاب أحد، فقد يراك الصبي الذي يدق الأجراس.. أسرع"

وتجهم الرجل ذو السكين وقال: "سنختبئ نحن هنا، وتصعد أنت إلى برج الأجراس، وعندما يحضر الصبي لدقها تفزعه فلا يقرعها، وبذلك يتأخر حضور الناس إلى الكنيسة ونتمكن نحن من الفرار "

قال القس: "حسنا، ولكن أسرعا فإن لدي بعض الأعمال الخاصة أحب أن أنجزها، أعني بعض الأبقار وأشياء أخرى"، ومضى القس الشرير صاعدا على الدرجات إلى برج الأجراس وخرج "شوشو" من مكمنه، وفتح

باب الكنيسة على مصراعيه ودخل إليها وهو يرسل صفيرا، وكان الظلام سائدا ولكنه مضى صاعدا على الدرجات الضيقة، وبينما هو صاعد على الدرج سمع نحيبا وصراخا؛ وعرف أنه القس يقلد الأشباح فأجاب بنحيب وصراخ مماثلين. وقال القس بصوت مرتفع: "هذا مدهش!!" ثم راح يرسل نحيبا وعواءً، فعوى "شوشو" أيضا فقال القس في صوت يشبه القلق: "لا بد أن يكون صدى الصوت".

وبلغ "شوشو" قمة البرج وأمسك بحبل الأجراس، وانبعث من ورائه في الظلام عواء مستطيل، فتظاهر بأنه لم يسمع شيئا، ومد يده الممسكة بحبل الأجراس إلى أعلى، وعوى القس بصوت مرتفع، وبدأت الأجراس تدق، ومع دوي الأجراس عرف "شوشو" أن الناس سيقبلون للصلاة بعد قليل.

جذب القس شعر "شوشو"، ولكن هذا تظاهر بأنه لم يشعر بشئ، واستمر يدق الأجراس، وكلما جذب القس شعره جذب هو الحبل بشدة فتدوي الأجراس دويا هائلا.

وأحكم القس قبضته على شعر "شوشو" وجذبه بشدة وأخذ يصرخ في أذنيه، وجذب "شوشو" أكبر الأجراس إلى أعلى، وتركه يهبط ثانية وقد استدار ولم يستطيع القس أن يتنحى عن طريق الجرس في الوقت المناسب، فدفعه من البرح إلى حيث سقط بالفناء مهشما، وتناثرت أشلاء القس، ثم تصاعدت جميعها في هيئة دخان.

وعندما أقبل الناس وشاهدوا القس يستحيل دخانا يتصاعد صاحوا: "إذن كان هكذا.. يالسوء الحظ!!" ودخلوا إلى الكنيسة للصلاة، وكان هناك الرجل ومعه السكين والمرأة يحاولان الفرار بالغرارة الملأى بذخائر الكنيسة المسروقة.. ولكن الغرارة كانت من الثقل بحيث تمكن الناس من القبض عليهما وإيداعهما السجن، وهبط "شوشو" من برج الأجراس؛ فصفق له الناس ودعوه بالبطل ولكنه قال: "وكيف أكون بطلا، وقد سقط القس من تلقاء نفسه، إنني أحس بتعب يسير وسأذهب إلى منزلي الآن". وعاد جميع الأفراد الذين سحرهم القس حيوانات، عادوا إلى صورتهم الأصلية وارتدوا إلى ذويهم مسرورين سعداء.. كما ارتد الأموات الذين أحالهم ماشية إلى قبورهم ليرقدوا في سلام.

وقال الناس: "ربما لم يكن "شوشو" هذا "شوشو" حقيقة بل "تيبوزتون"!.

ولكن ما قال أحد هذا القول لـ "شوشو" إلا أجاب ضاحكا "أوه.. كلا.. وإلا فكيف أكون "تيبوزتون" وأنا "شوشو"؟".

فرنسا

التابع الصغير الوفي

كان للفارس "جود فروي" تابع شاب اسمه "روبرا أفڤلاندرز"، وكان "روبرت" جميلا مقداما متواضعا فقيرا، ومع ذلك فقد كان أثيرا لدى الفارس لما عهد فيه من وفاء وشجاعة. وكان لـ "جود فروي" ابنة اسمها "بلانش" جميلة كالصباح المشرق. وكانت زوجة الفارس قلقة، لما يبديه زوجها من تراخ في تزويج ابنه. وفي ذات يوم طلبت إلى "روبرت" أن يخبر سيده بأنه أصبح هدفا للانتقاد المر لعدم اهتمامه بمستقبل ابنته، وأنه يجب أن يختار لها زوجا.

وعلقت وجه "روبرت" حمرة خجل مؤلم، فقد كان يطوي جوانحه على حب "بلانش"، وكان حبا يائسا بلا رجاء أو أمل. وأنى له أن يأمل أو يرجو وهو الفقير الذى لم ينصب بعد فارسا، ومع ذلك فقد أجابها بقوله: "سأثير هذا الموضوع معه مادامت هذه إرادتكم، ولكن ألا يظن بي سيدي الجرأة والقحة؟"

قالت في وحدة: "لا تهتم لذلك يا "روبرت" فليس من المعقول أن يظل مهملا واجباته إلى الأبد".

وتحدث "روبرت" إلى الفارس في هذا الشأن، ولكن في غير لياقة وعلى كره منه، وأصغى الفارس إلى الخطاب المتعثر الذى ألقاه تابعه

الصغير، وجهد ألا يبتسم، ثم أجاب بقوله: "سأتبع نصيحتك" يا "روبرت"، ولو سميت لي فارسا يماثلك شجاعة ووفاء ويمثلني ثراء زففت إليه ابنتي في الحال".

وراح "روبرت" يقدح فكرة، عله يقع على فارس له من الكمال ما يؤهله للزواج من "بلانش"، ولكن دون جدوى.. فقد كان في كل منهم نواح من النقص. وقال الفارس في وقار: "وماذا عن "جويبوم أوف كمبري؟"

واحتج "روبرت" قائلا: "إنه عجوز جدا"؟

ـ و"راؤول أوف هينوت"؟

ـ لم أقبل شجاعته.

ـ " وريموند أوف كوتري"؟

وقال "روبرت" في يأس : "إنه مفرط الغباء"

وضحك الفارس قائلا: "حسنا يا "روبرت" فأنت برغم تواضعك لم تجد فارسا يدانيك فضلا، ولذلك سأنزل لك عن ضيعة كبيرة تضع يدك عليها باسمي، وأزف إليك "بلانش" فأنا على ثقة من أنك ستكفل لها السعادة والعزة"

وتلعثم "روبرت" وهو يقول: "أرجوك ألا تسخر مني يا سيدي، فإني أعرف أنني كنت مسرفا في وقاحتي مقحما نفسي فيما لا يعنيني".. ولكن الفارس هز رأسه قائلا: "لم أكن مازحا فيما قلت يا "روبرت"، بل كنت جادا، وأقسم على ذلك: فلن يكون لـ "بلانش" زوج سواك".. قال روبرت: "ولكني لم أصبح فارسا بعد".. قال الفارس: "إذن سأجعلك فارسا، ويكون الزفاف بعد ذلك".

وهكذا: اغتسل "روبرت" إشارة إلى طهارة قلبه، وارتدى رداء أبيض اللون إشارة إلى براءته، وآخر أحمر قرمزيا في لون الدم النبيل الذي هو على استعداد لإراقته في سبيل الله وكنيسته وفقرائه، وأعطى نعلا بنيا رمزا للأرض التي سيعود إليها بعد موته، وترك وحيدا في المعبد غارقا في تأملاته طول الليل.

وعند الفجر أهدى إليه مهمازين من الذهب، رمزا للسرعة التي يلبي بها هو وحصانه أي دعوة تتطلب رحمته أو شجاعته، أو المشاركة في أي قضية عادلة، وأعطوه سيفه اللامع، وقد رسم الصليب على مقبضه حتى لا يطعن به أحدا ظلما. وركع "روبرت" على ركبته، وربت "جود فروي" على كتفيه بالسيف ثم عانقه قائلا: "باسم الله نصبتك فارسا"، وتزوج "روبرت" من "بلانش".

وفي اليوم التالي قال "روبرت" لزوجته الجميلة: "يا حبيبتي، لا بد أن أرحل عنك، فمنذ خمس سنوات مضت، نذرت أن أحج إلى قبر القديس

"جيمس" فور تنصيبي فارسا، وإنه ليقطع نياط قلبي أن أفارقك، ولكن لا مندوحة عن ذلك.. ولا شك أنك تقدرين بالأمر قدره.. أليس كذلك؟".

وأجابت "بلانش": "إنني مدركة الموقف، وإني لأكون زوجة شريرة حقا، لو حلت دون وفاء زوجي بنذره".

ولكن أمها أساءت إليه، وأخذ الفرسان الآخرون يتفكهون به حاطين من قدره. وكان "راؤول أوف هينوت" الذي كان يحسد "روبرت" على ما واتاه من حظ طيب، أشدهم تفكها وأعلاهم صوتا.

قال "راؤول": "إن الرجل العاقل لأحكم من أن يترك زوجته التي زفت إليه حديثا، وإني لأراهن بجميع ما أملك أن "روبرت" سيعود ليجد آخر قد احتل مكانه في قلبها". وثار "روبرت" قائلا: "إن الرجل العاقل لأحكم من أن يهين زوجته التي زفت إليه حديثا بعدم الثقة بها". وأجاب "راؤول" في سخرية: "إنك لشديد الثقة، ومع ذلك فأنت لا تقبل أن تضحي بأرضك الجديدة، على فضيلة حبك". قال "روبرت": "بل أقبل". قال "راوؤل": "كل أراضيك مقابل أرضي كلها". أجاب "روبرت": "نعم.. على الرغم من أني أكره مثل هذا الرهان".. قال "راؤول": "هل تنحيت عن الرهان إذن؟". قال "روبرت": "يا سيد "راؤول" إنني أثق في زوجتي الشريفة كل الثقة، وأقبل رهانك لو وعدتني بالاحتفاظ به في مكان السر، وسأخرج للوفاء بنذري غير خائف".

وامتدت غيبة "روبرت"، وفي النهاية وصل رسول إلى "بلانش" يخبرها بأن زوجها عائد بعد أسبوع، ولما أصبح "روبرت" على مسافة خمسين ميلا من بيته، رأى "راؤول" يركض بجواده مقبلا عليه. وقال "راؤول" وهو يبتسم: "لقد جئت لأوفر عليك خزيا لا ضرورة له، هل تذكر هذا؟"، وقدم إلى "روبرت" الخاتم الخاص بزوجته، وكان قد حصل عليه بواسطة خادم غير أمين، واستطرد قائلا: "أعطتنيه "بلانش" وكنت أضعه في إصبعي منذ شهرين، وقد اعترفت لي بأنها أحبتني قبل أن تتزوجك، ولكنها لم تجرؤ على عصيان مشيئة والدها، وهي ترغب أن تتثبت من أن عودتك ستكون عذابا له".

وكان "روبرت" يحملق في "راؤول" في صمت وأسى. وقال "راؤول": "لا تهتم لما بيننا من رهان، فسأترك لك نصف أرضك نظير ما فقدت من حب".

وأجاب "روبرت" في صوت خفيض: "بل احتفظ بأرضي كلها، فلست أحب أن أكون مدينا لك بأي شئ، وأخبر زوجتي بأني ذاهب إلى سحيق، بحيث لا تكون ثمة حاجة للتفكير في".. ولوي عنان جواده وسار منكس الرأس.

وقد فرح "راؤول" بما أصابت خطته من نجاح، وعاد مسرعا إلى "جود فروي" فحدثه بما كان من أمر الرهان ومقابلته "روبرت"، وأراه الخاتم،

وعرض أن يسعى لدى البابا لإبطال زواج "بلانش" من "روبرت" حتى يستطيع هو أن يتزوجها.

وصدق "جود فروي" قصة "راؤول" عن خيانة "بلانش" ، وأرسل إليها، وطلب منها أن تلقي بدفاعها.

أجابت "بلانش": "لك أبتي أن تصدق ما تعتقد أنه حق، لكني لن أتزوج من "راؤول"، بل إني لأوثر الموت على ذلك.. ودعه يحفظ أراضي "روبرت" إلى أن يعود "روبرت" بنفسه ليطالب بها". وغادرت القاعة، وبعد ذلك بساعات قلائل كانت قد اختفت تماما. وأمر "جود فروي" بالبحث عنها في أرجاء الريف وسؤال جميع المتسولين لعدة أميال، وأقيمت صلوات عامة، وارتحل الفرسان إلى مسافات طويلة بحثا عنها، ولكن دون جدوى، ولم يقف أحد منهم على أى أثر لها.

وفي نفس الوقت كان "روبرت" يسير بجواده، دون أن يخلع ملابس الحج الرمادية، وقد حمل بين جنبيه قلبا محطما، وران اليأس عليه، ولم يكن سوى مهمازيه الذهبيين دليلا على أنه من طبقة الفرسان، ودامت رحلته ثلاثة أيام. وفي النهاية بعد غروب الشمس قرب منزل صغير ابتدره فتى صغير جدا .يمتطي صهوة جواد بالكلام قائلا: "هل لي أن أسأل عن وجهتك يا سيدي، فقد رأيت مهمازيك وبدا لي أنك قد تقبلني تابعا لك".

وإبتسم "روبرت" لأول مرة بعد أن ترك "بلانش" منذ سنة، فقد كان الفتى بين الحداثة، له وجه ذهبي كبير وعينان رماديتان جميلتان، ويتحرك في

رشاقة وخفة، فقال روبرت: "لقد وقعت على فارس تعس، فليس لدي أرض أو نقود أو هدف في العالم.. ما اسمك؟". وأجاب الفتى في تواضع: "هنري"، وقد زودتني أمي ببعض القطع الذهبية عندما تركت المنزل بحثا عن فارس ألتحق بخدمته، وإن أذنت لي بالبقاء في خدمتك سبع سنوات فقد تواتيني الفرصة بدوري لأصبح فارسا، وسأتوفر على العناية بك فضلا عن العمل لكسب عيشنا".

ونظر "روبرت" إلى يدي الفتى الدقيقتين وابتسم مرة أخرى وهو يقول: "وأي نوع من العمل تستطيع أداءه؟". قال الفتى في رجاء: "جربني يا سيدي.. ترى". قال "روبرت" : "حسنا جدا، لنقض الليلة في هذا المنزل، فإذا كان الصباح مضينا معا". وقد أثبت "هنري" أنه تابع ممتاز فقد جعل "روبرت" يأكل دون أن يكون جوعانا، ويضحك برغم الحزن الذي يثقله، ويفرح بالحياة، رغم أنه لم يبق له ما يحيا من أجله. وكان في المساء ينام تحت أقدام سيده على الأرض العارية، وبرغم ذلك فقد كانت أساليبه لطيفة مهذبة، وكان حبه ووفاؤه لـ "روبرت" مثل إدراكه وذوقه، حتى استطاع "روبرت" أن يبتسم أكثر من ذي قبل، وكثيرا ما كان يربت على رأس هنري الصغير الكستنائية.

وأخذا طريقهما إلى "مرسيليا" ليبحرا منها إلى "فلسطين" للاشتراك في حربها، وعندما بلغا المدينة تبينا أن الحروب الصليبية وضعت أوزراها، وساد السلام، ولم تعد ثمة فرصة لقتال، وأن في مقدورهما أن يأتيا "فلسطين"

حاجين إذا شاءا، ولكن "روبرت" كان عائدا لتوه من الحج، وفضلا عن ذلك كان عليهما أن يدبرا أمور معاشهما.

وقال "هنري": "أرجو يا سيدي أن تأذن لي ببيع الكعك، فقد كنت أصنعه وأنا صغير للتسلية، ومازلت أذكر طريقة صنعه، وسأعد حانوتا صغيرا لهذا الغرض".

وفي التالي، كان أهالي البلدة يزدحمون في حانوت "هنري" الصغير يأكلون من كعكه اللذيذ. وبعد سنة رأى "هنري" أن لا بد من أن يشتريا منزلا كبيرا ، يحيلانه إلى نزل يتولى هو إدارته ، لينصرف "روبرت" لمزوالة ضروب ألعاب الفروسية. وقال لـ "روبرت": وعندئذ ستعرف بأنك فارس شجاع، وسيعرف الناس أين يلتمسون مساعدتك عندما يحتاجون إليها"

– ولكن ما الذي يدعوك لعمل طول اليوم في حين أني لا أعمل شيئا؟.

– لقد كنت أيضا تابعا مثلي يا سيدي، فهل ندمت على أي مشقة تحملتها من أجل سيدك؟.

– لا... بالتأكيد لا..

فقال "هنري" وهو يضحك في عذوبة: "اتفقنا إذن". وكان النزل ناجحا، واستطاع "هنري" أن يشتري لـ "روبرت" درعا وحصانا جديدين، وأخذ "روبرت" يقضي وقته في مزاولة تمرينات الفروسية كافة، وكانا سعيدين معا، ولم يعد "روبرت" يفكر في الماضي.

وفي أوائل السنة السابعة، قدم أحد الحجاج إلى المنزل.. لقد كان "راؤول"، ولم يعرفه "روبرت" لما كان عليه من هزال وشحوب، ولكن "هنري" اهتم به في الحال، فأخذ يسأله عن سبب مسارعته إلى "فلسطين" بالرغم من مرضه البادي، فأفضى إليه بأنه كان يعاني من المرض، وكان يائسا من الشفاء مشرفا على الموت، واعترف أمام القسيس بكذبه على "روبرت" وسرقته أراضيه، فأمره القسيس بالمسارعة إلى الحج من أجل محو آثامه بمجرد شفائه، وأن يروي القصة لكل من يسأله. وفي اليوم التالي رحل في سفينة من "مارسيليا".

وعندما انتهت السنوات السبع قال "هنري" لسيده: "إن لنا الآن ثروة يا سيدي، ولم تعد بنا حاجة للاحتفاظ بالمنزل..

وبي رغبة أرجو تحقيقها .. فإن كنت سأصير فارسا ، فلا بد أن أتعلم كيف أقاتل إلى جانبك، ولكن قبل أن نذهب إلى الحرب، أرجو أن تصطحبني إلى مواطنك الأول". ولم يكن "روبرت" قد ذكر لتابعه الصغير طوال هذه المدة شيئا عن "بلانش"، وكذلك لم يذكر "هنري" لسيده ما كان من اعتراف "راؤول"، وهكذا رحلا معا، إذ لم يكن "روبرت" ليرد طلبا لصديقه، وإن كانت تختلط في نفسه انفعالات أخرى يثيرها تفكيره في رؤية زوجته مرة أخرى.

ولما أصبحا على مسيرة ساعة من قلعة "جود فروي"، وافق "روبرت" على ما اقترحه "هنري" من أن يسبقه إلى القلعة ليعلن مقدمه، ولكنه

عندما بلغ القلعة تبين أن "هنري" لم يكن قد وصلها بعد، وكانت "بلانش" قد وصلت في نفس الوقت إلى القلعة، بعد أن غابت سبع سنوات في أحد الأديرة النائية، وبدت لـ "روبرت" أوفر جمالا مما كانت في أي وقت مضى.

واعترف "راؤول" ثانية، ولكن اعترافه هذه المرة كان على رؤوس الأشهاد، ورد إلى "روبرت" أراضيه، وأقام "جود فروي" مأدبة ترحيبا بـ "روبرت"، وكان يمكن أن يسعد هذا الأخير بذلك، ولكنه لم يكن سعيدا، إذ لم يستطع أن يفهم سببا لهروب "هنري" دون أن يودعه، وقدر احتمالا أن يكون التابع الصغير قد هاجمه قاطع طريق فقتله وألقاه خلف إحدى الصخور أو وراء دغل من الأدغال.

وفي كآبة كريرة نظر "روبرت" إلى "بلانش" وند عن صدره تنهد عميق. وكانت عيناها الرماديتان تلتمعان، فسألته: "لماذا أراك غير سعيد يا سيدى؟". وأجابها بمثل ما أجابها منذ سبع سنوات: "لأني يا حبيبتي لا بد أن أتركك".

- ولماذا ؟.

- لا بد أن أبحث عن تابعي الصغير، ولن يقر لي قرار حتى أعرف ما وقع له، أقتل أم ما زال على قيد الحياة؟

- وهل يعقل أن توليه من حبك أكثر مما توليني؟

- أنت حبيبتي، وهو صديقي، ومن الصعب أن أختار بينكما.

وابتسمت له بلانش وهي تقول: "وهل من الضرورى أن تختار يا "روبرت"؟..".

ونظر "روبرت" في عينيها، فإذا هما عينا "هنري" فطوقها بذراعيه وهو يدمدم قائلا: "يا حبيبتي وصديقي".

وقالت في صوت ناعم: "لو أنك بقيت على حزنك من أجل تابعك لعدت إلى صبغ وجهي ويدي مرة أخرى".

وضحك "روبرت" وهو يقول: "لن يتكرر ذلك ثانية يا تابعي الصغير الوفي".

البرازيل

حماية الشيطان

يحكى أن أحد الأمراء عندما بلغ الثانية عشرة من عمره، استشارت أمه إحدى العرافات في شأنه، فأنبأتها أنه مقدر عليه أن يموت ميتة شنيعة، وحزنت الملكة لذلك حزنا شديدا، وأمضت أيامها باكية لا يجف لها دمع، ولم يجد شئ في تسليتها أو تخفيف عنها. وكان الأمير شجاع القلب، فأظهر عدم الاكتراث بالأمر، وقال لأمه يهون عليها: "وما أهمية ذلك؟.. أليس لكل إنسان أجل لا يستقدم عنه ولا يتأخر؟.. وما الفرق بين أن يموت الإنسان من جراء المرض وبين أن يموت قتيلا؟.. وما جدوى البكاء؟" ولكنها ذلك لم يذهب عنها حزنها.

وعزم الأمير في النهاية على الرحيل عن بلاده، وذهب إلى والديه يستأذنها في ذلك، وقال لهما: "أنتما تعلمان ما كتب عليّ، فإن لقيت حتفي في بلد آخر، كان ألمكما أخف مما لو قتلت هنا، فباركاني وأذنا لي بالرحيل"

ووافق الملك والملكة والحزن غالب عليهما، وشرع الأمير في رحلته فطاف بممالك مختلفة، حتى انتهى إلى مدينة بها كنيسة صغيرة للقديس "ميجيل".. وكانت يد البلى قد امتدت إليها فخلفتها خرابة متداعية، فاستأجر الأمير عمالا لترميمها. وكان بين التماثيل التى تزين الكنيسة تمثال للشيطان، فرمم العمال جميع التماثيل وطلوها عدا هذا التمثال فتركوه

على حاله. وذهب الأمير يتفقد ما أنجز العمال من عمل، ودعا رئيس العمال يسأله عن سبب تركه التماثيل دون طلاء، وطلب إليه أن يصلح من شأنه كما فعل بالتماثيل الأخرى تماما.

ورحل الأمير بعد ذلك إلى بلدة أخرى، ونزل في بيت تملكه أمرأة عجوز ، فإذا كان الليل أوى إلى حجرته يحصي ما معه من نقود. ونظرت المرأة العجوز من ثقب الباب، وتملكها العجب، إذ لم يسبق لها أن رأت مالا بهذه الوفرة. وراحت وتفكر في وسيلة تمكنها من الاستيلاء عليه، وانتهى بها التفكير إلى تقديم بلاغ إلى المسؤولين في المدينة تتهم الأمير الذي قبلته في بيتها بسرقة مبلغ كبير من مالها، وقبض على الأمير وسيق إلى المحاكمة.

وفي هذه الليلة نفسها كان القديس "ميجيل" يتحدث إلى الشيطان، فقال له: "ترى أي شعور داخلك، وقد طلي تمثالك طلاء جديدا جميلا مثلنا جميعا؟" قال الشيطان: "إنه لشعور جميل لم أحسه منذ سنوات" قال القديس: "أتدري لمن يرجع الفضل في ذلك؟" قال الشيطان في لهجة الذاكر للجميل: "نعم.. لأمير مر بمدينتنا"

قال القديس: "حقيقة إنه أمير، بل هو أشجع وأجمل أمير مر بهذه الناحية، وإنه الآن في ضيق، إذ يساق في هذه اللحظة إلى حيث يقضى بإعدامه ظلما".

ولم يتردد الشيطان لحظة واحدة، بل وثب إلى ظهر جواده الناري، وانطلق يسابق الريح حتى بلغ منزل المرأة العجوز.. فحملها إلى المسئولين وأرغمها على الإقرار أمامهم بما دبرت، فقضي بإعدامها، وأطلق سراح الأمير، وأعيدت إليه أمواله، والتفت يشكر من أحسن إليه، ولكن لم يكن هناك أحد.

ومر بعض الوقت، وحدث أن مر الأمير ثانية بالمدينة التي بها كنيسة القديس "ميجيل"، وعندما اقترب من الكنيسة دنا منه راهب يركب جوادا، وطلب إليه أن يروي له تاريخ حياته، فأخبره الأمير بقصته كاملة. وسأله الراهب: "أو تدري من برأ ساحتك وخلصك من السجن؟" وأجاب الأمير: "كلا مع الأسف، فلست أعرف لمن أنا مدين بإنقاذ حياتي حتى أوفيه حقه من الشكر"، وأزاح الراهب قلنسوته إلى الخلف، وكشف عن وجهه وهو يقول: "إنه أنا.. الشيطان.. الذى أمرت بإصلاح تمثاله وطلائه كبقية التماثيل في كنيسة القديس "ميجيل". لقد تغير قدرك الآن، بعد أن قتلت المرأة العجوز بدلا منك. وتحررت من هذه اللعنة، فعد إلى مملكتك على الفور، وعش في سلام وسعادة تستحقهما لرحمة قلبك". ومن هذه القصة نعلم أنه حتى الشيطان قد يكون له قلب يعترف بالجميل .

الجياد الثلاثة

يحكى أن رجلا كان له ثلاثة أولاد، التحق أكبرهم بعمل لدى حداد، وثانيهم لدى نجار، وثالثهم لدى حلاق، ولم يلبث الولد الأصغر "يواقيم" أن ترك محل الحلاق، وتنطلق سعيا وراء حظه في الحياة، وبلغ في تجواله مملكة كانت حدائق الملك فيها هدفا لجياد متوحشة تأتيها كل ليلة فتفسد نظامها وتبعث فيها بسنابكها، وتملك بستاني الملك المشرف على هذه الحدائق اليأس والقنوط؛ فمساعدوه أبوا العمل معه، وكلما استأجر واحدا منهم امتلأ قلبه رعبا من تولي حراسة الحدائق ليلا، فضلا عن أن جهودهم في تنسيق الحدائق وتنظيم أحواض الأزهار كانت تذهب سدى إذا ما هبط الليل وأتت الجياد بحوافرها، وتقدم "يواقيم" إلى رئيس البستانيين يطلب العمل لديه، فعينه في الحال لما أنسه في نظراته من العزم والثبات. وأمضى "يواقيم" سحابة يومه في العمل بين أحواض الأزهار. وحدثه رئيس البستانيين عن الجياد تأتي ليلا فتعبث بما عمله بالنهار .

وقال "يواقيم" في لهجة صادقة: "سأقوم على حراسة الحدائق في أثناء الليل، فبستانيوك السابقون جبناء، والجياد لا تخضع لجبان، أما أنا فلا يعرف الخوف سبيلا إلى قلبي، وستدرك الجياد ذلك لأول وهلة "

وفرح رئس البستانيين لذلك فرحا عظيما، وسمح له بالحراسة في أثناء اليل، تلك المهمة التي لا يقبل أن يقوم بها هو نفسه.

وفي الليل أقبلت الجياد تركض إلى بوابة الحدائق، وأعرافها تتطاير في الهواء، وكان "يواقيم" يجري بأصابعه على أوتار قيثارته، فترسل نغما هادئا جميلا. ووقفت الجياد مصغية وهي تضرب الأرض بحوافرها التي لم تجاوزها إلى داخل الحديقة

وفي الصباح التالي.. كاد رئيس البستانيين يطير فرحا عندما شاهد الأزهار في الحديقة على حالها لم تمس، ومشى الملك بينهما يطري عمله.

وأقبل المساء فأقبلت معه الجياد الثلاثة مرة أخرى إلى بوابة الحدائق، حيث وقفت تصغي إلى أنغام "يواقيم"

وفي الليلة الثالثة عادت الجياد ثانية وسألته أن يقدم لها بعض أوراق الكرنب، فقد كان لكل منها ورقة.

وعندئذ قال الحصان الأسود ذو الغرة البيضاء في جبهته: "إن احتجت إليَّ فنادني بقولك: "إليَّ أيها الحصان الأسود ذو الغرة البيضاء، فآتيك في الحال" وشكر الحصان الأبيض ذو العرف الأسود للفتى ورقة الكرنب وقال له: "إذا صادفك خطر في أي وقت فنادني بقولك إلي أيها الحصان الأبيض ذو العرف الأسود فأخف لمساعدتك"

وقال الحصان الأشهب ذو الذيل الأبيض: "إذا رأيتني قادرا على مساعدتك في أى وقت فأسرع إليك حالما تدعوني بقولك : "أيها الحصان الأشهب ذو الذيل الأبيض"

ومضت الجياد الثلاثة، ولم تعد ثانية إلى الحدائق التى أخذت تستكمل بهاءها ورونقها يوما بعد يوم، وقد أحبت ابنة الملك الجميلة الأميرة "أنجيلينا" أن تتنزه فيها، وتقطف الورود منها بيدها الرقيقة.

ومر وقت على ذلك، وبدأ الخاطبون يتوافدون على القصر طالبين يد الأميرة، وكانوا من الكثرة والجمال بحيث لم تستطع الأميرة أن تختار من بينهم من تتزوجه، فأعلنت أنها ستتزوج من الفارس الذي يستطيع أن يركض بجواده صاعدا الدرجات إلى شرفتها حيث ينزع زهرة القرنفل التي تزين شعرها.

وكانت هذه الدرجات طويلة شديدة الانحدار ففزع الخاطبون لذلك، على حين سر "يواقيم" البستاني الصغير سرورا بالغا. وعقد السباق في اليوم التالى وساق كل خاطب حصانه إلى الدرجات المؤدية إلى شرفة الأميرة .ونادى "يواقيم" قائلا: " إليّ أيها الحصان الأسود ذو الغرة البيضاء"، وظهر الحصان على الفور، فاعتلاه الفتي واندفع به إلى منتصف الدرجات المؤدية إلى الشرفة، وهتف له الجميع، إذ كانت هذه المسافة أبعد مما وصل إليه أي فارس في ذلك اليوم.

وفي اليوم التالي نادى الفتى الحصان ذا العرف الأسود، وركبه واندفع به إلى ثلثي المسافة المؤدية إلى الشرفة، ومع ذلك لم تتبين الأميرة في راكبه شخصية البستاني الصغير.

وازدحم اليوم الثالث بكثير من المتنافسين الجدد، إذ كان الخبر قد ترامى إلى الجهات النائية، وتوافد الفرسان من كل حدب وصوب على القصر الملكي، وكان بينهم كثيرون ممن يجيدون الركوب، ولكن لم يستطع أحدهم مجاوزة نصف الطريق إلى الشرفة.

وقرب موعد الانتهاء نادى الفتى البستاني الصغير الحصان الأشهب ذا الذيل الأبيض الذي سرعان ما ظهر فامتطاه الفتى، ومضى به يطوي الدرجات إلى الشرفة حيث انتزع زهرة القرنفل من شعر الأميرة، وهللت الجموع هاتفة بحياته وراح الناس يتساءلون: من عساه يكون هذا الفارس. ولم يعرف أحد منهم اسمه أو من أين أتى.

وأخيرا قال شابان أحدهما حداد والآخر نجار: إن الفائز يشبه أخاهما الأصغر الذي ترك عمله في محل الحلاق وخرج سعيا وراء حظه.

وحالما وصل "يواقيم" إلى الشرفة، عرفت فيه الأميرة البستاني الصغير الذي طالما خفق قلبها بحبه سرا. وتم الزفاف بين معالم الفرح والسرور، وتناهى إلى سمع الفتى صهيل الجياد الثلاثة لدى بوابة القصر قبل أن تختفي.

بلچیکا

منشد وكنيسة "سانت جودول"

كان لطحان "ساند هلز" حمار تقدمت به السن حتى لم يعد يقوى على جر العربة إلى السوق، ولم يكن الطحان بالرجل القاسي القلب، وإنما كان يتسم بالميل إلى الاقتصاد والتدبير فعزم على أن يبيع حماره بما يساويه جلده. وقال يخاطبه: "لست أتوقع أن أبيعك بمبلغ كبير، وإني على الأقل سأوفر على نفسي ثمن ما أقدمه لك من شعير.

كان الحمار يقف في مربطه وقد تدلى عنقه ولم ينبس ببنت شفة، وإنما راح يفكر: نعم لقد أدركته الشيخوخة، ولكنه لم يعد عديم النفع، فما زال له صوت رائع، ولن تضيق الدنيا بمخلوق يستطيع الغناء بمثل صوته. وقرر أن يقصد إلى كنيسة القديس"جودول" saint gudule ليعمل منشدا مع منشديها.

وبعد أن تأكد من ذهاب سيده، لم يتردد لحظة في الذهاب هو الآخر، وانطلق في الطريق المؤدي إلى "بروكسل"، بأقصى ما استطاع من سرعة.

ولما بلغ منزل العمدة، أبصر كلبا عجوزا يجلس وحيدا حزينا على درج الباب، وصاح به في رفق: "ماذا يشغلك يا صديقي.. إنك لتبدو حزينا هذا الصباح" ، وأجاب الكلب: "ولم لا أيها الصديق، فما من شك في أنك تحس ما أحسه من حزن، لو قعدت بك الشيخوخة، وتصلبت عضلاتك، وأصبحت غير قادر على صيد الأرانب لسيدك.. ولذا فقد طردني دون أن يعطيني ما آكله. وما كان الجوع ليحزنني لو لم يعتبرني عديم الفائدة، فقد جرح شعوري حين سمعته يؤمن على زوجته أني أصبحت عديم الفائدة" .

فقال الحمار: "أوه.. هون عليك يا صديقي.. فإن حالي كحالك، ولكني سأذهب إلى كنيسة القديس "جودول" لأعرض خدماتي على رئيس منشديها، إذ أن لي صوتا رائعا على ما أعتقد".

قال الكلب: "إذا كان الأمر أمر صوت فإني أجيد الغناء، وفي الليلة الماضية كنت أغني أغنية جميلة للقمر، وفتح جميع من يقطنون في هذا الشارع نوافذهم ليستمتعوا بغنائي، وصدقني أني لا أقول ذلك مفاخرا، وقد ظللت أغني ساعة كاملة، وكان في مقدوري أن أستمر في الغناء لمدة أطول، لو لم يلق إنسان حسود حذاءه على رأسي .

قال الحمار: "جميل.. لم لا ترافقني إذن إلى "بروكسل"، فتؤدي أنت النغم من الطبقة العالية وأغني أنا "الدوكاه"، ونكون بذلك ثنائيا ممتازا . "قال الكلب: "سأرافقك" وسار معا إلى "بروكسل" وعند نهاية القرية،

لقيا قطة ذات وجه حزين جدا تجلس خارج أحد المنازل. ورق لها قلباهما، ووقفا عندها يسألانها في صوت واحد عن سبب ضيقها. وقالت القطة: "ضيق!!.. إنه لضيق شديد، فقد ألقي بي الآن خارج المنزل لأني أخذت من المخزن قطعة صغيرة من لحم الخنزير. وأقسم لكما بشرفي أنها لم تكن أكبر من قبضة طفل، ولكنهم أثاروا ضجة كما لو كنت قد أخذت خنزيرا بأكمله.. وراحوا يضربونني، وركلوني إلى الخارج لأموت جوعا. ولو كان في استطاعتي أن أصيد الجرذان، لما همني الأمر، ولكن لا يمكنني الآن اللحاق بها حتى لقد أصبحت تسخر مني، وكل ما يمكنني عمله هو أن أموت، وإني أدعو الله أن يسرع إليّ الموت " ...

قال الحمار: "جرذان!!.. عليك بمرافقتنا، وكفي عن هذا الهراء، فسننضم إلى فرقة المرتلين بكنيسة القديس "جودول".. وإني أرى صوتك رفيعا فتؤدين نغمة "السبرانو" في الثلاثي الذي نكونه.. فهل تنضمين إلينا؟ " .قالت القطة: "لقد جددتما الأمل في نفسي، وسأنضم إليكما بكل تأكيد" .

وسار الحمار والكلب والقطة في الطريق إلى "بروكسل". وقبيل المساء، بلغوا مزرعة رأوا على بوابة فنائها ديكا يصيح.. كما لو كان الوقت فجرا . وقال الحمار يخاطبه: "ترى.. ماذا يضايقك؟"

وأجاب الديك مكتئبا: "إني أغني آخر أغنية لي في الحياة؛ فليس من عادتي أن أرسل صيحاتي في الآصال، ولكن صادف أن غنيت أغنية منذ

ساعة، وما أن انتهيت منها حتى سمعت زوجة المزارع تقول له "اصغ إلى الديك.. يصيح لغده، وإني لأشك في أنه كان يرسل هذه الصيحات لو علم بأن وعاءنا سيضمه غدا لإعداد الحساء لضيوفنا، ثم ضحكت بطريقة لم ترقني" قال الحمار: "اسمع.. هل تعني أنك ستظل تنتظر إلى أن تلوى عنقك؟" فقال الديك: "لا مفر من ذلك".. وسأله الحمار متعجبا: "تقول هذا!! ولك مثل هذا الصوت، فلتزاملنا.. إننا جميعا مغنون رائعون.. وسنتقدم إلى كنيسة القديس "جودول" كمنشدين، وإذا انضممت إلينا صرنا رباعيا، وهو أفضل من الثلاثي.. فهل لك أن تنضم إلينا؟" وأجاب الديك: "بالطبع سأنضم إليكم"، وهرت القطة، وبصبص الكلب بذنبه، وهز الحمار أذنيه.. ومضوا جميعا في الطريق المؤدي إلى "بروكسل". وبزغت النجوم في اللحظة التي بلغوا فيها غابة كشفية فقرروا أن يقضوا ليلتهم بها.

واستلقى الحمار والكلب على الأرض تحت شجرة زان ضخمة، وتسلقت القطة فرعا كبيرا من فروعها، وحط الديك على قمتها، فأمكنه من هذا الارتفاع أن يشرف على الغابة جميعها، واكتشف لفوره نورا يلمع بين الأشجار على مسافة قريبة، فقال لرفاقه: "أظن أن هناك منزلا بالقرب منا فلنذهب لنرى عسانا نجد ما نأكله"

قال الحمار: "أو بعض القش ننام عليه فإن هذه الأرض الرطبة لتبعث "الروماتزم" إلى عظامي"

وقال الكلب: "وإن عظامي لتتأثر كذلك، وليس ثمة ضرر من البحث، فلنذهب"

وسار المغنون الأربعة يقودهم الديك، ووجدوا أنفسهم أمام منزل صغير ينبعث منه ضوء باهر، وكي يصلوا إلى النافذة اعتلى بعضهم بعضا، وكان الحمار في أسفلهم، والديك أعلاهم. وحدث أن كان المنزل الصغير مقرا لعصابة من اللصوص، وكانوا في هذه اللحظة يتناولون عشاء طيبا، وقد أثار الطعام شهية الديك.

وسأل الكلب، وقد نفد صبره إذ كانت مخالب القطة تعمل في كتفه، وهي تحافظ على توازن الديك الجائع: "هل من أحد بالمنزل؟" قال الديك: "نعم.. بعض الرجال حول عشاء رائع" وسأل الكلب: "وماذا يأكلون؟"

قال الديك: "كل ما يخطر ببالك.. "سجق" و"سمك"..." قال الكلب: "سجق؟". وقالت القطة: "سمك؟". وصاح الكلب: "أوه!!".. قالت القطة: "إني آسفة، فريش الديك يدغدغ أنفي". وقال الكلب في استسلام: "حسنا". وصاح الديك: "ما رأيكم يا رفاقي.. ألا يكون جميلا لو استطعنا أن نشاركهم العشاء فإني أكاد أموت جوعا؟"

وقال الكلب: "لم أحس في حياتي بمثل ما أحس الآن من جوع.. ولكن ما العمل؟" قال الحمار: "فلنغن لهم تحت النافذة، عساهم يجازوننا على هذا الغناء" وشرع الأربعة يغنون بقوة، فنهق الحمار، وعوى الكلب، وماءت القطة، وصاح الديك، وكانت لهم ضوضاء توقظ الموتى. وقد

أحدث هذا الرباعي تأثيرا سريعا مدهشا؛ فقد تملك اللصوص الذعر، ووثبوا من أماكنهم، وراحوا يجرون في الحجرة، وصيحات الخوف تنبعث منهم، وسقط بعضهم فوق بعض.. وأوقعوا مقاعدهم على الأرض.. وفي هذه اللحظة عطست القطة فسقط الديك على النافذة وهشم زجاجها قطعا صغيرة، واختل توازن الكلب، ودفع الحمار النافذة دفعة قوية.. وسقط الأربعة داخل الحجرة. ولم يستطع اللصوص أن يحتملوا أكثر من ذلك فاندفعوا إلى الباب، وعادوا إلى الغابة.

وضحك الأربعة لذلك وعمدوا إلى المائدة بما حملت من طعام لذيذ، وأخذوا يملأون بطونهم، وبعد أن فرغوا من الأكل أحسوا برغبة في النوم، فصنع الحمار لنفسه حشية من القش في فناء الدار استلقى عليها، كما تمدد الكلب على درج الباب، ونامت القطة على رماد المدفأة الساخن، وجثم الديك على السقف، وراحوا في سبات عميق.

واختبأ اللصوص في هذه الأثناء بالغابة ينتظرون أن تنطبق السماء عليهم، ولكن لم يحدث شئ، فزحفوا نحو المنزل فإذا كل شئ هادئ والنوافذ مظلمة. وأخيرا كلف زعيمهم نائبه أن يعود إلى المنزل ليتحرى ما هناك. وأخذ الرجل طريقه إلى المطبخ، وأراد أن يشعل الشمعة، ولم يكن ثمة ثقاب، ورأى جذوتين بالمدفأة فمال بالشمعة يشعلها بها.

ولم تكن الجذوتان سوى عيني القطة، وما كاد اللص يمسهما حتى وثبت عليه مزمجرة مزبدة، وأخذت تخدش وجهه. وندت عنه صرخة فزع

فسقطت الشمعة من يده وجرى إلى الباب، وفيما هو يندفع خارجها عقره الكلب في ساقه، وأيقظت الضوضاء الحمار فاستوى قائما في اللحظة التي مر به الرجل فيها وركله ركلة مروعة جعلته يتدحرج على الطريق، وقد سر الديك لهذا المنظر فنشر جناحيه وأخذ يصيح في مرح. ومضى الرجل يعدو كالأرنب البري خلال الغابة إلى أن سقط على رفاقه المنتظرين عودته. وصاح الزعيم يسأله "هل الطريق مأمون، ونستطيع العودة؟" فقال الرجل وهو يلهث: " كلا والسماء؛ ففي المطبخ ساحرة وثبت بي وأنشبت مخالبها في وجهي فمزقته، وما إن عدوت خلال الباب حتى أنفذ أحد مخلوقاتها به في ساقي، وفي الفناء ضربني وحش أسود بهراوة كادت تقصم ظهري، وكان يجثم على السقف عفريت صغير له عينان تقدحان شرارا أخذ يصيح: "أمسكوا به.. كلوه".. وقد نجوت بأعجوبة".

وأسرع اللصوص يبارحون الغابة هاربين إلى جهة أخرى من البلاد، وأصبح المنزل خالصا للحمار والكلب والقطة والديك؛ فهجروا فكرة الذهاب إلى كنيسة القديس "جودول" في "بروكسل"، وعاشوا سعداء في المنزل الصغير بقية أيامهم.

طبلة محشوة نحلا

كان العجوز "دوناتوس" ضارب طبل بإحدى الفرق العسكرية، وكان وغدا لا يصلح لشئ، على الرغم من براعته. وكان يبدو رائعا في أيام الاستعراض وهو يخطر بين أفراد الفرقة الموسيقية، يدق طبلته في نضارة يحسده عليها صغار الصبية في البلدة. وكان رفاقه في الفرقة يكرهونه لمقالبه المستمرة، فقد سخر من كل جنود الفرقة تقريبا، وكان مزاحه مؤذيا أكثر منه مسليا. وفي أحد الأيام، ضبط وهو يغش في لعب الورقة، وسيق إلى ضابط الفرقة الذي قرر فصله منها، ولم تجده دموعه التي سالت على وجهه وهو يرجو الضابط أن يصفح عنه. ولم يأسف أحد لفصله، وأبى الضابط الذي طالما عفا عنه أن يقبل اعتذاره هذه المرة.

وأخيرا قال للضابط: "إذا كان لابد من فصلي يا سيدي الضابط، فأرجوك أن تأذن لي بالاحتفاظ بطبلتي، فقد كنت أدقها منذ أن كنت حدثا في الرابعة عشرة، ولست أعرف عملا وأهلا، وكيف أعيش إذا جتني منها؟.. على حين أني لو احتفظت بها فقد أتمكن من كسب القليل من المال الحلال"

وقال الضابط: "حسنا جدا.. أيها العجوز الشرير.. لك أن تحتفظ بها، ولكن أسرع بترك الفرقة".

وسار "دوناتوس" بطبلته في أول طريق صادفه، وظل يمشي طول اليوم إلى أن كلت قدماه، فوضع الطبلة وسط الطريق وجلس عليها وهو يفكر: كيف يمكنه أن يحصل على طعام!! أو يجد مكانا يبيت فيه ليلته!! وقلب جيوبه، فلم يجد بها سوى قطعتين من النقود ومجموعة من أوراق اللعب الممزقة، فأعادها ثانية إلى جيوبه، وتنهد وهو يتطلع في حزن إلى الغابة التى تحف بالطريق. وقرر أن يتخذ له مأوى بين الأشجار، فحمل طبلته على كتفه ميمها شطر الغابة. ولم يكد يخطو فيها حتى تناهى إلى سمعه طنين مرتفع فاتجه إلى مصدره، وإذا بمجموعة من النحل قد تعلقت بفرع إحدى الأشجار. وقال وهو يضحك: "يالها من فاكهة جميلة!! سأجمعها.. علها تنفع يوما ما، ونزع جلد الطبلة، وأخذ يقذف بالنحل داخلها في مهارة، ثم أعاد الجلد إلى مكانه ومضى في طريقه.

ولم يلبث الظلام أن أرخى سدوله، وبلغ منزلا صغيرا بالغابة فطرق بابه يسأل عن مكان يبيت فيه ليلته، وفتحت الباب فلاحة ذات ملامح كريهة فحصته بنظرها وقالت في خشونة: "إليك عنا لا نريد جنودا هنا"، ثم صفقت الباب في وجهه. وقال "دوناتوس" يحدث نفسه: "والآن ما العمل؟. اللعنة على هذه الثعلبة!!". وأخذ يدير بصره فيما حوله عله يجد ركنا يستريح به. وفجأة وقعت عيناه على أكوام من الحطب إلى جانب جدار الكوخ، فصعد إلى قمتها، وتبين أنه يستطيع الدخول خلال نافذة مفتوحة بغرفة على سطح منزل. وزحف إلى الداخل وتمدد فوق الألواح الخشبية لينام.

وصادف أن كانت هذه الغرفة تقع فوق المطبخ تماما، وخلال شقوق أرضها راح ينظر إلى ما في الحجرة التى تحتها، وكانت بها الفلاحة تعد العشاء، وقد أسالت رائحة الأكل المتصاعدة خلال الشقوق لعابه.

وبعد قليل سمع طرفا على الباب، وأسرعت المرأة لتفتحه، وأدخلت رجلا يشتمل بعباءة طويلة. كان الرجل شماسا قرويا.. هو ابن شقيق زوجها، وكان الزوج يكره الشماسين حتى أنه لا يطيق أن يرى أحدهم، فلم يكن تبن أخيه ليجرؤ على دخول البيت في وجوده . وعلى كل فقد رحبت به المرأة وعاونته على خلع عباءته، وأجلسته إلى المائدة، ووضعت أمامه دجاجة مشوية وفخذ خنزير مقددة وزجاجة نبيذ. وفرك الشماس يديه قائلا: "إنك مضيفة رائعة يا عمتي.. وقد أثار المشي شهيتي للطعام ولا بد أن أستمتع بطعامك اللذيذ... في صحتك!!" وملأ كوبا من النبيذ أفرغه في جوفه.

ودمدم "دوناتوس" وهو يسترق النظر من بين الشقوق: "يا لك من نهم.. وددت لو تغص بما تأكل". ومضى في جوعه يرقب الشماس وهو ينقض على الفرخة المشوية. وفجأة علا الطرق على الباب. وصاحت المرأة مرتاعة: "إنه زوجي. لقد عاد على غير انتظار، ولو وجدك هنا؛ فالله وحده يعلم بما يحدث لأنك تعرف أنه لا يطيق رؤية شماس، فاقفز داخل هذا الصندوق ريثما أرفع الطعام عن المائدة". وأطاع الشماس الوجل فقفز داخل الصندوق وأغلقه، على حين قامت هي بتنظيف المائدة في عجلة. وكان الزوج طول الوقت يطرق الباب وقد نفد صبره، حتى إذا فتحت له

الباب في النهاية شرع يعنفها قائلا: "هل يجب أن أنتظر طول الليل حتى يسمح لي بدخول بيتي؟". قالت: "إني آسفة إذ لم أسمع طرقك الباب، فقد كنت مشغولة بالعمل في المخزن". وزمجر قائلا: "هيا أعدي لي شيئا آكله". قالت: "إنك تصاب دائما بعسر الهضم إذا تناولت طعامك في وقت متأخر كهذا.. أليس من الأفضل أن تذهب رأسا إلى فراشك؟". قال: "أنا جوعان ولست راغبا في النوم"، وجلس إلى المائدة، وفي الحال سمع دقا عنيفا على أرض الغرفة فوق رأسه؛ فنهض واقفا وهو يقول: "ما هذا.. هل من أحد هناك؟. قالت: "لست أدري؛ فأؤكد لك أنه لم يأتنا أحد طوال اليوم سوى جندي كان يستجدي فطردته بعيدا بأسرع ما يمكن". قال: "أظنه وجد وسيلة لدخول الغرفة العليا فقد نسيت أن أغلق النافذة"، وأسرع إلى أعلى ليتبين الأمر. ووجد هناك "دوناتوس" الذي سارع فأوضح له كيف دخل إلى هذه الغرفة وما ابتغاه من ذلك، وسأل الفلاح أن يسمح له بالمبيت حيث هو هذه الليلة.

وأجاب الرجل الطيب: "طبعا.. طبعا. اهبط معي إلى حيث تجد الدفء، وها هي زوجتي توشك أن تعد العشاء، وأعتقد أنه يكفي كلينا". وتبع "دوناتوس" مضيفه إلى المطبخ، ووضع الطبلة تحت المائدة، وجلس متجاهلا الحقد البادي في نظرة الزوجة وهي تضع على المائدة رغيفا من الخبز الأسود ووعاءً من اللبن الرائب.

وحدث "دوناتوس" نفسه: "الفرخة والنبيذ للشماس، أما للزوج الطيب وضيفه فالخبز الجاف واللبن الرائب!! سنرى".. ثم ركل طبلته

بشدة، ووثب الفلاح إثر الصوت قائلا: "ما هذا"؟ قال "دوناتوس": "لا شئ.. إنه هاتفي". قال الفلاح: "هاتفك؟ وهل يتحدث إليك؟" قال "دوناتوس": "ثلاث مرات في اليوم" قال الفلاح: "أود أن أسمعه"، قال "دوناتوس": "بكل سرور"، وشرع يدق على الطبلة نغمة عسكرية رائعة أيقظت جماعة النحل التي راحت تطن وتئز.

وفرح الفلاح لهذه الضجة وصاح: "هذا رائع.. وماذا يقول الهاتف؟".. أجاب "دوناتوس": "يقول إنه لا حاجة بنا لشرب اللبن الرائب.. فهناك زجاجة نبيذ إلى جانب الحائط وراء الصندوق".. قال الفلاح: "إنها مزحة طيبة، وحبذا لو كانت هذه الزجاجة حقيقية" قال "دوناتوس": "قل لزوجتك أن تنظر خلف الصندوق"، واتجهت المرأة على كره منها والغيظ يكاد يقتلها ناحية الصندوق، وعادت بزجابة النبيذ محاولة أن تظهر الدهشة لوجودها، ولكنها بدت أكثر تجهما من ذي قبل. قال الفلاح: "إلينا بالكوبات يا زوجتي لنشرب نخب هذا الهاتف المدهش". ثم إتجه إلى "دوناتوس" قائلا: "أتعتقد أنك تستطيع أن تحمله على الكلام ثانية؟".

قال "دوناتوس": "طبعا". ودق على الطبلة ثانية وطن النحل وتظاهر هو بالإصغاء. قال الفلاح: "حسنا" قال "دوناتوس": "يقول إن زوجتك لو ألقت نظرة داخل الخزانة لوجدت بها فرخة مشوية وفخذ خنزير مقددة نأكلهما بدلا من الخبز الأسود". فقال الفلاح: "ياله من هاتف رائع.. أسرعي يا زوجتي فانظري ما بداخل الخزانة". وعلى الرغم منها أحضرت

الطعام الطيب إلى المائدة، ولكن لو أن في مقدور النظرات أن تقتل أحدا لكان "دوناتوس" في عداد الأموات هذه الليلة. ولم يمض الوقت حتى كان "دوناتوس" والفلاح قد أتيا على الطعام كله، فلم يتخلف منه سوى العظام. قال الفلاح، وهو يفك أزرار صديريته: "إن هذا أشهى طعام تناولته منذ زمن بعيد. أما زال لدى هاتفك شئ من المفاجآت السارة؟" قال "دوناتوس": "طبعا، ولكن هذه هي المرة الأخيرة، فهو لا يتحدث سوى ثلاث مرات في اليوم"، وراح يلعب لحنا حربيا لنابليون بمصاحبة النحل. وأصغى الفلاح بشغف وارتجفت الزوجة خوفا.

وعبس "دوناتوس" ونظر إليهما في حزن قائلا: "أوه.. إنه لأمر خطير.. يقول هاتفي إن العفريت الأسود الكبير مختبئ في الصندوق هناك".. وصاح الفلاح وهو يقفز من مقعده: "ماذا.. عفريت؟".

وقال "دوناتوس": "تماما.. ولكن لا تنزعجا.. افتحا الباب والنوافذ، ثم قفا هنا بجانبي".. وأطاع الفلاح.. وخطا "دوناتوس" إلى ناحية الصندوق وكشف غطاءه، ووثب الشماس الخائف مشتملا بعباءته الطويلة السوداء، واندفع إلى الباب، وكان ظهوره مفاجأة واندفاعه سريعا فاصطدم بالفلاح وأوقعه على الأرض، واختلط به فسقط بدوره، ولكنه نهض وأخذ طريقه إلى الباب مندفعا عبر الفناء وهو يتعثر في عباءته فسقط في حفرة بها ماء وتطاير الرشاش وعلا الصراخ ثم ساد الصمت.

وصاح الفلاح وهو ينهض من على الأرض ويفرك ركبته: "أوه.. لقد نجوت بأعجوبة.. لقد كان أسود ذا عينين ترسلان شررا وذيل ذي شعب.. ولو لم يحذرنا هاتفك أيها الجندي لأتى علينا في نومنا"

وأمن "دوناتوس" على ذلك، وفي وجهه صرامة وجمود، وفي صدره ضحك مكتوم، ثم صعد إلى حيث نام بالغرفة نوما عميقا. وفي الصباح التالي سأله الفلاح في أثناء تناول طعام الإفطار أن يبيعه هاتفه. قال "دوناتوس": "لست أدري.. إنه يستحق مبلغا كبيرا من النقود". قال الفلاح: "سأعطيك مائة كروان.. هي كل ما أملك" قال "دوناتوس": "حسنا.. إنه يستحق أكثر من ذلك، ولكني لا أستطيع أن أرفض لأنك كنت كريما معي"، وتناول منه المائة كراون وسلمه الطبلة، وودع مضيفه، وما كاد يخطو إلى خارج الباب حتى صاح به الفلاح: "نسيت أن أسألك كيف أفهم لغة الهاتف".. قال "دوناتوس": "هذا من السهولة بمكان، ففي الساعة العاشرة تماما ضع زوجتك في حفرة تغطبها إلى إبطيها.. وغط وجهها وكتفيها بعسل نحل.. ثم أحمل الهاتف واصعد به إلى الغرفة العليا حيث وجدتني.. واعصب عينيك وانزع الجلد من أحد جانبيه، وانتظر مدة ربع ساعة ثم أعد الجلد إلى مكانه واحمل الطبلة إلى حيث تركت زوجتك.. وفي هذه اللحظة تماما تكون لغة الهاتف مفهومة لديك.. وستعرف منها بقدر ما أعرف أنا".

قال الفلاح فرحا: "شكرا لك أيها الجندي.. أتمنى لك يوما وحظا سعيدين". وقال "دوناتوس": "وطاب يومك وحظك أنت الآخر"، ومضى

لسبيله ضاحكا، وبعد أن قطع قرابة الميل رأى على الطريق عاملا زراعيا يعزق حقلا فاقترب منه قائلا: "دعني أعزق لك الأرض قليلا يا صديقي".. وناوله العامل المجرفة وهو يقول: "هذا كرم منك، وإنه لعمل شاق"

وقال "دوناتوس": "جميل.. ولكن لنتبادل أولا ثيابنا حتى لا تتسخ بزتي العسكرية.. وهاك كراون لك فاذهب إلى حيث تشرب بالحانة نبيذا، وعندما تعود ستدهش إذ أكون قد أنجزت العمل"

وتبادلا ثيابهما، ومضي العامل إلى الحانة، وأخذ "دوناتوس" يعزق الأرض بعض الوقت.. وبعد نصف ساعة سمع وقع حوافز جواد على الطريق، ثم تبين مضيفه الفلاح يركض بحصانه نحوه كما لو الشيطان يطارده، وقد احمر وجهه كمدا وغضبا لقد نفذ تعليمات "دوناتوس" بدقة، وعرف ما يعنيه الطنين داخل الطلبة، وكذلك عرفت زوجته الشقية.. فما كاد يعود إلى مكانها بالحديقة حتى وجد النحل يكسو وجهها وكتفيها. ولوى عنان جواده إلى حيث يقف "دوناتوس" وسأله عما إذا كان قد رأى جنديا يمر بهذا الطريق. ودمدم "دوناتوس" قائلا: "أهو رجل أيها السيد؟"، وصاح الفلاح: "قلت جنديا أيها الغبي.. رجل يرتدي بزة حمراء وله وجه شرير.. إنه وغد.. هل رأيته؟"

وأجاب "دوناتوس": "بالتأكيد.. لقد مر من هنا منذ مدة تتراوح بين الثلاثة أرباع الساعة والساعة ومضى إلى الغابة.. وإنك لن تعثر عليه أيها

السيد"، وسأل الفلاح في غضب: "ولماذا لن أعثر به؟" وقال "دوناتوس": "لقد سلك طريقا سريا في الغابة.. ورأيت أنا الطريق الذي سلكه، وإني لأعرف وجهته، ولكني حتي لو وصفت لك الطريق فلن تلحق به لأنك ستضل في الغابة" قال الفلاح "سأعطيك كراون لو عاونتني في القبض على هذا الوغد".

قال "دوناتوس" متعجبا: "كراون.. إنه لمبلغ كبير.. ولا بد أنك في حاجة ملحة إليه". قال الفلاح: "هو كذلك.. وسأمزقه إربا إذا وضعت يدي عليه". قال "دوناتوس": "أعرني جوادك أيها السيد.. وسآتيك به بلا مقابل، فاحتفظ بنقودك.. إني لأود أن يسحق تماما، فقد سبني وهو يمر بي"، واصطنع "دوناتوس:" الحدة وهو يقول ذلك.. قال الفلاح: "ولكن.. هل تستطيع الركوب؟".

قال "دوناتوس": "بقدر ما يستطيع البط السباحة.. أسرع وإلا أفلت الشيطان.. وانتظرني هنا.. فسأعود في أقل من نصف ساعة". وترجل الفلاح عن الجواد الذي أسرع "دوناتوس" باعتلائه وإنطلق وهو يضحك إلى الغابة مخلفا الفلاح ينتظر على جانب الطريق. ومر الوقت: ربع ساعة.. ثم نصف.. ثم ساعة كاملة، ولم يعد العامل، وبدأ الفلاح يروح ويجئ على الطريق وقد نفد صبره، وكان يمشي على الحشائش ويجوس خلال الأشجار وعصاه في يده، واستبد به القلق. وفجأة سمع وقع أقدام على الطريق، ورأى رجلا يدنو في بزة حمراء فقد كان العامل الزراعي مرتديا بزة "دونانوس".. وكان قد شرب بضعة زجاجات من النبيذ، وأحس بالرضا

عن نفسه وعن العالم كله، فمشى يغني. وجأر الفلاح وهو يطبق على العامل المطمئن: "أيها اللص الدنيء... أين نقودي؟ لقد علمتني لغة النحل.. أليس كذلك؟ لقد لسع النحل زوجتي في كتفيها ووجهها حتى لا تكاد تتبين عينيها في وجهها.. أيها الوغد.. إليك هذا" . وكاد يشفع كل كلمة بعصا ثقيلة يهوي بها على كتفي العامل المسكين. وصاح العامل وهو يحاول الإفلات من الفلاح: "هون عليك.. أيها السيد.. ما معنى ذلك كله.. ماذا أعرف عن نقودك أو زوجتك!!".

وصاح الفلاح: "وهكذا تضيف الكذب إلى قائمة جرائمك.. أليس كذلك؟" وانهال عليه ضربا مبرحا، وهو يقول: "وستزعم بعد ذلك أنك لم تر الطبلة!!"، وبلطمة قوية أوقع العامل تحت أقدامه. وعندئذ رأى الرجل في وضوح، وتحقق من أنه ليس "دوناتوس" فاتجه إلى بيته متعبا مشيعا بتهديدات العامل ولعناته، وأخذ يندب حظه قائلا: "فقدت أولا نقودي ثم حب زوجتي التي لن تصفح عني لما ألحقت بها من أذى.. والآن فقدت حصاني أيضا.. فلتكن السماء في عون ضارب الطبل.. لو وقعت عليه عيني ثانية".

وأما "دوناتوس" فقد مضى على صهوة الجواد مرحا، وعاش معتمدا على ذكائه باقي حياته الضارة المؤذية.

روسيا

السفينة الطائرة

كان في روسيا.. زوجان لهما ثلاثة أولاد، اتسم اثنان منهم بالذكاء، فخصاهما بحبهما وبأطيب الأشياء، أما الثالث فكانت تبدو عليه مظاهر البلادة والغباء، ولم يكن يلقى من والديه سوى الاحتقار والضرب وفتات المائدة.. ولم يكن يشكو، وإنما شب خجولاً منطويا على نفسه، فاعتقد والداه أنه يزداد غباءً على مر الأيام.

وفي يوم ما أعلن القيصر أنه عزم على أن يزوج ابنته من أي رجل يستطيع أن يصنع له سفينة طائرة. وما أن سمع الأخوان الكبيران بذلك حتى عزما على الخروج ليجربا حظهما في العثور على سفينة طائرة، وأعدت لهما أمهما ما يلزمهما في رحلتهما من ملابس وزودتهما باللحم والنبيذ وباركتهما هي وأبوهما، وانطلق الولدان تملأهما الحماسة ويحدوهما الأمل.

ورغب الفتى الثالث في الخروج هو الآخر، فسخرت منه أمه وسألته: "إلى أين تود الذهاب؟ أخشى أن تأكلك الذئاب فيصيبها عسر هضم بسببك". وأصر الفتى على الرحيل، ولما عجزت أمه عن أن تثنيه عن عزمه، وزودته بكسرة من الخبز الجاف وماء وساقته إلى خارج المنزل. وسار الفتى حتى التقى بشيخ فحياه في أدب، ورد عليه الشيخ التحية، وسأله

عن وجهته، فقال الفتى: "ألم يبلغك ما وعد به القيصر من تزويج ابنته أي رجل يبني له سفينة طائرة؟".

وسأله الشيخ: "وهل تستطيع أن تبني سفينة طائرة؟" وقال الفتى: "كلا.. لا أستطيع ولكني أعتقد أني أصادف من يصنعها لي في مكان ما". وقال الشيخ: "وأين هذا المكان الذي تشير إليه؟". وأجاب الفتى: "الله يعلم.." وقال الشيخ: "لنجلس هنا عسى أن ترتاح قليلا.. وأخرج ما لديك من طعام نأكله" وقال الفتى: "ليس لدي سوى كسرة من خبز وقليل من الماء، وإني لأخجل من أن أقدم هذا إليك"

وقال الشيخ: "لا داعي للخجل؛ فليس أشهى مذاقا من رزق الله".. ثم جلس على الحشائش ينتظر ما يقدمه الشاب.. وفي تردد فتح الفتى مزوده ولكنه لم يصدق عينيه إذ وجد بدلا من الكسرة أرغفة من الخبز الأبيض وأنواعا من اللحم والنبيذ، ومضي يقدم كل شئ للشيخ، فأكلا وشربا معا، وأحس الفتى بفيض من السعادة يغمره.

وقال الشيخ: "توجه إلى الغابة، واضرب بفأسك أول شجرة تلقاها واستلق على الأرض ووجهك إلى أسفل، ثم لا تتحرك من مكانك حتى يأتيك من يوقظك، وعندئذ ستجد السفينة الطائرة معدة لك، فخذ مكانك فيها وطر بها إلى حيث تريد بشرط أن تأخذ فيها كل من تصادفه في طريقك" ودعا الفتى للشيخ واستودعه الله.. ومضى إلى الغابة وقصد أول شجرة وضربها بفأسه وتمدد ووجهه إلى الأرض وراح في النوم.

وأحس بيد لم يرها توقظه؛ فأبصر أمامه سفينة ذات أجنحة فركبها وطارت به في الفضاء حتى شاهد رجلا مستلقيا على الطريق ملصقا أذنه بالأرض، فحياه وسأله عما يفعل، وأجابه الرجل بأنه يصغي إلى ما يدور في العالم، ودعاه الفتى إلى الركوب معه بالسفينة الطائرة؛ فركب معه ثم طارت بهما السفينة حتى أتيا رجلا يحجل على قدم واحدة، وقد شد رجله الأخرى في إحكام إلى أذنه، فحياه الفتى وسأله عن سبب تصرفه على هذا النحو؛ فقال إنه إن لم يفعل ذلك لأمكنه أن يقطع نصف المسافة حول العالم في خطوة واحدة، ودعاه الفتى إلى الركوب معهما بالسفينة، فقبل وانضم إليهما.

وعادت السفينة تطير إلى أن أبصروا رجلا يحمل بندقية ويصوبها إلى هدف لم يتبينوه؛ فحياه الفتى وسأله عن هدفه، وأجاب الرجل إنه يصوب إلى هدف قريب، عصفور على بعد سبعة فراسخ، وأضاف أنه يستطيع إصابة طائر أو حيوان على مسافة مائة فرسخ. ودعاه الفتى إلى السفينة فصعد إليها، واستأنفت طيرانها، ثم رأوا رجلا يحمل غرارة ملأى بالخبز، فحياه الفتى وسأله عن وجهته، وأجاب بأنه في طريقه ليحضر خبزا لغذائه، وبأن ما بالغرارة من خبز لا يعدو ملء فمه مرة واحدة. ودعاه الفتى إلى السفينة فصعد إليها وطارت بهم إلى أن رأوا رجلا يدور ببحيرة، وحياه الفتى وسأله عما يبحث؛ فأجاب بأنه عطشان، وأن ما في البحيرة من ماء لا يكفيه جرعة واحدة فدعاه إلى السفينة، وطارت بهم إلى أن صادفوا رجلا يحمل غرارة ملأى بالقش، قال إنه ليس قشا عاديا، وإنه إذا نشره في أشد أيام الصيف حرارة لاستحال الجو إلى برودة ثم إلى صقيع وجليد،

وانضم إليهم في السفينة وظلوا بها إلى أن شاهدوا رجلا يحمل حزمة من الحطب، قال إنه لو نثره لهب منه جيش كامل، وركب معهم هو الآخر، وظلت السفينة تطير بهم إلى أن بلغوا فناء قصر القيصر.

وكان القيصر جالسا إلى المائدة يتناول غذاءه، ونظر من النافذة فرأى سفينة طائرة وأخذته الدهشة لذلك وأرسل خادمه يستطلع أمر من فيها، وعاد الخادم يخبره بأن بها فلاحا شابا ساذجا، ومعه جمع من الرجال.. ولم يرتح القيصر إلى فكرة زواج ابنته من فلاح بائس، وراح يعمل فكره عله يصل إلى طريقة تخلصه من الشاب، وعزم على أن يكلفه أعمالا كثيرة مرهقة. وقال القيصر لخادمه: "اذهب إلى الفلاح.. وقل له أن يأتيني قبل أن ترفع هذه المائدة بالماء الحي المغرد".

وفي اللحظة التي كان فيها القيصر يتحدث إلى خادمه بذلك، كان أول رفيق قابله الفتى وأذنه على الأرض يلتقط الحديث وينقله إليه. وصاح الفتى: "أوه.. وماذا أنا فاعل.. فلو أنفقت حياتي كلها باحثا منقبا لما عثرت أبدا على مثل هذا الماء" فقال الرجل الذي كان يحجل على رجل واحدة: "لا يقلقك الأمر؛ فسأحضره لك".. وأتى الخادم لينهي إلى الفتى أمر القيصر، فأجابه يقول "سيكون له ذلك" وأنزل الرفيق ذو الخطو السريع رجله التي كانت مشدودة إلى أذنه.. وفي أقل من غمضة عين كان قد حصل من أقصى الأرض على بعض الماء الحي الغريد.. ورأى ألا ضرورة للتعجيل بالعودة، ولا ضير في أن يغفو بعض الوقت، وجلس إلى جانب طاحونة ماء وراح في النوم.. وقارب غذاء القيصر أن ينتهي..

واستولى القلق على الفتى ورفاقه؛ فوضع الرفيق الأول أذنه على الأرض وأخبر الآخرين أن ذا الخطوة السريع نائم في ظل طاحونة ماء. وعندئذ صوب حامل البندقية بندقيته في عناية إلى الطاحونة، وأطاق عبارة أيقظته، فقفز.. وفي لمح البصر كان قد عاد إلى السفينة ومعه الماء، فأرسله الفتى إلى القيصر قبل أن يبرح مكانه من المائدة.

وثار القيصر لذلك، وأوفد خادمه إلى الفتى يأمره بأن يأكل ورفاقه في وجبة واحدة عشرين ثورا مشويا، وملء عشرين معيارا كبيرا من الخبز. وقال الرفيق الجائع: "لا تقلق.. فيكاد هذا القدر يفي بحاجتي" وفعلا أتى عليه جميعه وهو يسأل هل من مزيد؟.. وأمر القيصر الفتى أن يشرب أربعين برميلا من النبيذ يحوي كل منهما أربعين جرة. وانزعج الفتى لذلك فطمأنه الرفيق العطشان الذي شربها جميعا دفعة واحدة وراح يشكو من شح القيصر وضنه بخمره.

وأخيرا أمر القيصر الفتى بأن يستعد للزفاف، فيمضي إلى الحمام ليغتسل، وكان الحمام مصنوعا من الحديد، وأمر به القيصر أن يحمي حتى يختنق الفتى فيه بعد مدة يسيرة من دخوله، فأحماه الخادم لدرجة الاحمرار، ولكن عندما ذهب الفتى إلى الحمام، ذهب في أثره الرفيق صاحب القش، وما إن أغلق عليهما الباب حتى مضى ينشر قشه فاستحال الحمام باردا لدرجة لم تمكن معها الفتى من الاستخدام كما يجب، ولم يلبث أن تجمد الماء به فتسلق إلى حيث نام فوق الموقد. ولما فتح الخدم الحمام في الصباح

وجدوا الفتى مازال حيا ممددا معتمدا على ذراعه فوق الموقد، وهو ينشد رفيقه بعض الأغاني.

وثارت ثائر القيصر إذ أخفق في كل محاولة للتخلص منه، وأخيرا طلب إليه أن يستحضر جيشا كاملا في الحال. وتململ الفتى البائس، فقال له الرفيق صاحب الحطب: "إنك لعجيب.. إذ تنساني" وأقبل الخادم ينقل إلى الفتى أمر القيصر. وقال الفتى: "سيكون لي هذا الجيش في الصباح، ولكن أخبر القيصر بأنه إذا استمر بعد ذلك يرفضي زوجا لابنته فسأغزو مملكته كلها وآخذ الأميرة قسرا".

وفي المساء خرج الرفيق صاحب الحطب إلى الحقول، وسار ينشر أعواد الحطب في كل اتجاه فنهض منها في الحال جيش كامل بخيله، وقاد الجيش إلى الفتى الذي أمر الجند أن يصطفوا بفناء القصر، ولكنهم كانوا من الكثرة بحيث امتدت صفوفهم إلى مسافات بعيدة في الخلاء إلى أبعد ما تدركه عين إنسان.. وعندما أبصر القيصر هذا الجيش القوي مصطفا أمامه تملكه الارتياع، وبادر فأرسل إلى الفتى اللآلئ الثمينة والملابس الفاخرة، وطلب إلى خدمه أن يقودوه إلى البلاط حيث يتم زواجه بالأميرة.

ولبس الفتى الملابس الثمينة، فبدا رائع الجمال، وذهب عنه خجله، واجتمع فيه عقل وذكاء، واقتيد إلى بلاط القيصر حيث رأى الأميرة، فأحبها وتزوجها، وعلا هتاف رفاقه بتحيته مودعين، ثم انصرفوا.

أما الفتى والأميرة فقد أحب كل منهما الآخر وعاشا في رغد من العيش.

القيثارة العازفة

بعيدا فيما وراء البحر الأزرق، وبعيدا وراء الشمس المتقدة في الفضاء، كانت تقوم وسط المروج الخضراء مدينة عالية يحكمها "القيصر الحكيم" وزوجته القيصرة. وكم كان سرورهما عظيما، وفرحتهما شديدة، عندما رزقا بنتا جميلة، أسمياها " neotsyenaya" "نيوتسيينايا" أي التي لا تقدر بمال، كما ولدت لهما في السنة التالية بنت أخرى، لا تقل جمالا عن الأولى، أسمياها beztsyenaya "بزتسبينايا" أي التي تعلو على الثمن.

وفي عيد ميلاد كل منهما كان يغمره الفرح، فيولم لقواده وكبار موظفيه وليمة عظيمة، ويقدم لهم ثلاثمائة وثلاثة من دلاء الخمر ليشربوا نخبه، وكان يأمر بالأفراح تقام في جميع أنحاء المملكة لمدة ثلاثة أيام، تقدم فيها الخمر للجميع بغير حساب، ما داموا يشربون نخب القيصر والقيصرة والأميرة الجديدة. وكان جميع أفراد الشعب يحبون قيصرهم فشاركوهما الفرح والسرور.

وما إن انتهت الاحتفالات، حتى شرع القيصر يهتم بوسائل تربية صغيرتيه والعناية بهما، فكانتا تأكلان بملاعق من الذهب، وتنامان على حشايا من الريش، وتنشر عليهما أغطية من فراء السمور. وكانت تلازمها

دواما ثلاث مربيات ممن تخصصن في التربية لملاحظتهما والعناية بهما، فلم تكن تمسهما الشمس أو تتساقط عليهما قطرات الندى، وحتى نسمات الرياح العابرة ما كانت لتجرؤ على الدنو منهما.

وإمعانا في حمايتهما، خصص القيصر سبعا وسبعين مربية أخرى لملازمتهما والتوفر على شئونهما، وعين لحراستهما سبعة وسبعين حارسا. وكانت الطفلتان تتمتعان بصحة جيدة وتوردت وجنتاهما، وكانتا تزدادان جمالا على مر الأيام.

وبلغت الأميرتان مبلغ الشباب، وازدحم البلاط بالراغبين في الزواج منهما، ولم يكن القيصر ليتعجل تزويج ابنتيه بعيدا عنه، فكان يعتقد أن لكل أميرة زوجا مقدرا لها ولا مفر منه. وذات يوم، فيما هو يفكر في أمر طفلتيه، سمع جلبة وعويلا ينبعثان من الفناء، وكانت المربيات جميعا تبكين وتعولن.. وكان الحراس يصرخون. واندفع القيصر إلى الفناء يستجلي الخبر. وخر الجميع أمامه على ركبهم صائحين مقرين بمسؤوليتهم وذنبهم: "لقد ذهب الإعصار بالأميرتين". وطلب إليهم القيصر أن يمسكوا عن الصراخ، وأن يروي له أحدهم تفاصيل ما حدث.

وشرعت أولى المربيات، وقد استحال شعرها أبيض، تتحدث في هدوء، وبدا من حديثها أن الأميرتين كانتا قد خرجتا إلى الحديقة الخاصة بالقيصر تتنزهان وتقطفان أزهار البازلاء، وتقتلعان ثمار الخشخاش للتفرج بقلبها الأسود، وتأكلان بعض ثمار التفاح الناضجة.. وفجأة ارتفعت فوقها

سحابة سوداء لا يدري أحد من أين أنت وامتلأت عيون المربيات والحراس بذرات التراب التي ما كادوا يتحلصون منها وينظفون عيونهم، حتى كانت الأميرتان قد اختفيتا تماما.

وكاد الغضب والقلق يذهبان بعقل القيصر فتوعد المربيات والحراس بالعقاب الرهيب، ولكن بلغ به الخبل أن نسي وعيده، أما هم فكانوا يحبون الأميرتين حبا شديدا، وأدركوا الموقف تماما، ولم يغضبوا لما وجهه إليهم القيصر من لوم وتعنيف لاختفاء ابنتيه.

ولم يعد في مقدور القيصر أن يأكل أو يشرب أو ينام، وأقفر القصر من المآدب والموسيقى وضروب اللهو المختلفة. أما القيصرة فقد أحزنها حزن القيصر.. ولكن حبها له جعلها تركن إلى الصمت محتفظه بأحزانها لنفسها، وكان القيصر يحس بالحزن وكأنه غراب لازمه يؤذن نعيقه بالشر، ومضت على هذه الحال سنتان. وولد للقيصر مولود آخر، كان هذه المرة غلاما. ففرح القيصر فرحا شديدا ، وسمي ابنه "إيڤان" **Ivan** ، وأحاطه بالمربين الشيوخ من الرجال، والمعلمين الحكماء والنبلاء البواسل. وكبر "إيڤان" وترعرع وصار يجمع بين الجلال والجمال والعقل والخيال، ولكن القيصر قلق لفقد الشجاعة لدى ابنه؛ فليست له شجاعة الأبطال ومهارة الفرسان. وليست له القدرة على قتل أعدائه وتحطيم أذرعهم وأرجلهم، ولم يكن به ميل إلى اللعب بالسيوف المصقولة على اختلاف أنواعها، وكان يحادث الجنود ويضحك معهم وكأنهم من النبلاء، ويحادث النبلاء كما لو

كانوا أفرادا عاديين. ولم تكن فرق المحاربين تعني شيئا لديه، وكانت تسليته الوحيدة، أن يلعب بقيثارته التي تعزف بغير عازف.

وبلغ من مهارة "إيڤان" في اللعب بقيثارته أن الرجال الأقوياء كانوا يصغون إلى أنغامه فتنسيهم كل شئ إلاها، ولم تكن أصابعة تمس الأوتار حتى يصدر عنها نغم رائع يجعل الرجال يبكون طربا، ولكن على الرغم من جمال أغانيه فلم تكن لتعمر خزائن القيصر أو تحمي ذمار المملكة، أو تصد العدو المتربص.

وذات يوم، دعا القيصر ابنه، وانحنى "إيڤان"، وقبل يد والده، وسأله عن سبب دعوته؛ فقال القيصر: "يا بني العزيز.. إنك تجمع بين جمال الخُلق، وجمال الخَلق، وإني لسعيد بك، ولكن ثمة شئ واحد يحزنني، فليست لك جرأة المحارب أو مهارة البطل.. ولست تأبه لصليل السيوف أو تعبأ للنصال المصقولة، وإني لتتقدم بي السن، ولنا أعداء أقوياء، سيشنون الحرب علينا ويسبون أمك ويأسرونني، دون أن تستطيع دفعهم أو الذود عنا".

وأجاب "إيڤان" بقوله: "أبي العزيز.. أيها "القيصر الحكيم" لا تؤتى المدن اغتصابا، وإنما بالعقل، وبعقلي سأتغلب على أعدائنا، ولك يا والدي أن تبلو شجاعتي، وتجرب قوتي. لقد خبرت أنه كان لي أختان صغيرتان جميلتان ذهبت بهما العاصفة، فادع بأبطالك ومحاربيك وبنبلائك وفلاحيك وأمرائك، وأطلب إليهم أن يأتوك بأختي الأميرتين.. ودعهم يذهبون

بنصالهم الدمشقة، وحرابهم ونبالهم. وأيهم يأتيك بها أمنحه مملكتك، ومر بي أن أخدمه كمساعد طاه عنده أو نديم له. أما إذا هم لم يستطيعوا أداء هذه الخدمة لك فسأؤديها أنا، وستجد ذكائي أمضى من حديدهم المصقول، وحكمتي أقوى من حرابهم مجتمعة"

وفرح القيصر بكلمات "إيڤان" ودعا برماته ومحاربيه وأبطاله وقال لهم: "إذا كان بينكم يا محاربي وقوادي، من تحمله شجاعته على البحث عن ابنتي، والإتيان بهما، فسأزوجه من يختارها منهما، وأنزل له عن نصف مملكتي" ولكن القواد والمحاربين انزوى كل منهم وراء الآخر، ولم ينبسوا ببنت شفة.

وعندئذ تقدم "إيڤان" وانحنى أمام أبيه قائلا: "يا أبت.. إذا لم يجرؤ أحد منهم على أداء هذه الخدمة اليسيرة لك.. فلتزودني ببركاتك في رحلتي، وسأخرج بحثا عن أختي"

قال القيصر: "رافقتك بركتي يا بني.. ولتأخذ معك ما شئت من الفضة والذهب والأحجار الكريمة، وإذا كنت في حاجة إلى جند فإليك مائة ألف راكب، ومائة ألف راجل"

وأجاب "إيڤان" وهو يبتسم: "شكرا لك يا أبت، فما بي حاجة إلى الفضة أو الذهب، ولا إلى راكب أو راجل، ولا إلى سيف أو حربة، وسأحمل معي قيثارتي التي تعزف بغير عازف ولا شئ غيرها، أما أنت يا

قيصري فانتظرني ثلاث سنوات وإذا لم أعد في السنة الرابعة فاختر من يخلفني" وباركه أبوه، وتوكل على الله، وخرج إلى حيث تقوده عيناه.

وكان في أثناء رحلته يعزف بعض الأغاني على قيثارته، ومضى في رحلته يصعد الجبال، ويهبط إلى الوديان، فإذا جن الليل افترش الحشائش والتحف بالنجوم، ثم ينهض مع الفجر فيستأنف ما انقطع من الرحلة. وانتهى به المسيرة إلى غابة فسيحة ووصل إلى سمعه من بين الأشجار صوت ارتطام ورعد، كأنما هناك من يقوم بتحطيمها جميعا، وقرر "إيڤان" أن يمضي إلى مصدره الصوت غير خائف أو وجل، مقدرا أن الآجال مقدورة لا تستقدم ولا تستأخر، وسار في اتجاه الصوت إلى أن وصل إلى مكان رأى فيه ماردين من مردة الغابة يتقاتلان.

كان أحدهما يضرب الآخر بشجرة سنديان اقتلعها من جذورها فيهجم عليه المارد الآخر بشجرة صنوبر ضخمة، وكان يفوران من الغضب. ودنا منها "إيڤان" وشرع يعزف لحنا راقصا على قيثارته، فتوقف الماردان عن القتال في الحال، وبدأا يرقصان في وحشية حتى تعبت أرجلهما فأخذا يتدحرجان على الأرض.

وضحك الأمير "إيڤان"، وهو يقول لهما: "فيم هذه المشادة.. أنتما ماردان محترمان من مردة الغابة ولا يليق بكما أن تجعلا من نفسيكما هزأة كما يفعل العامة. ما سبب اختلافكما؟"

قال أحد الماردين: "ولم لا نتقاتل.. كنا نسير معا فعثرنا على شئ ادعيته لنفسي، وادعاه هو الآخر لنفسه وحاولنا قسمته بيننا فلم نوفق فاقتتلنا".. وسأل "إيڤان": "وما هذا الذي عثرتما عليه؟" قال المارد الثاني: "غطاء مائدة صغيرة" وقال المارد الأول: "وحذاء يمشي وحده".. وقال المارد الثاني "وطاقية صغيرة" ، فإذا أردت أن تأكل أو تشرب، نشرت غطاء المائدة، فيظهر لك إثنا عشر غلاما إثنتا عشر فتاة يأتونك بالطعام والشراب والحلوى. وما عليك إلا أن تلبس الحذاء الذي يمشي وحده، فإذا بك تقطع خمسة فراسخ في خطوة واحدة، بل وأربعة عشر فرسخا في خطوة واحدة، وما من طير يستطيع أن يجاريك أو ريح تدركك. وإذا ما أحاط بك خطر ووضعت الطاقية على رأسك، فإنك تختفي تماما.. ولا تستطيع عين أن تراك"

وقال المارد الأول: "وهذا هو سبب المشادة بيننا".. قال "إيڤان": "أي هراء هذا!!. أتقبلان ما أشير به عليكما لقسمة هذه الأشياء بينكما؟".. وقبل الماردان أن ينزلا عند رأيه.

وطلب "إيڤان" أن يسلماه هذه الأشياء، ثم أشار عليهما بأن يستبقا إلى ممر صغير بالغابة، فمن بلغه منهما أولا كانت هذه الأشياء له جميعها خالصة. وانطلق الماردان يعدوان، واختفيا في الغابة، وأسرع "إيڤان" فدس قدميه في الحذاء الذي يمشي وحده. ولبس "الطاقة " وتأبط غطاء المائدة الصغير وأوسع الخطو وعاد الماردان يستبقان ولكنهما لم يقفا له على أثر. والتفت "إيڤان" خلفه، وهو يوسع من خطوه، ولم يتمالك نفسه من

الضحك عندما رأى الماردين يبحثان عنه في أنحاء الغابة، ويقرعان أكفهما ندما.

وتتابعت خطوات "إيڤان" حتى بلغ منطقة السهول، فامتدت أمامه ثلاثة طرق، قام عند مفترقها كوخ صغير، يدور حول نفسه على أرجل دجاج، فصاح به "إيڤان" أن يكف عن الدوران معطيا ظهره للغابة ووجهه له.

وأطاع الكوخ ودخله "إيڤان" فإذا بكبيرة الساحرات "بابا _ ياجا" تجلس فيه، وأخذت "بابا _ ياجا" تفح قائلة: "أرى أمامي نفسا روسية، فإني أين أيها الشباب؟".

وقال "إيڤان": "يا جدتي. هلا قدمت لي الطهام قبل توجهي لي أسئلة؟".

ووثبت "بابا ياجا" إلى موقدها فأشعلته وقدمت له طعام، ثم سألته عن وجهته وبغيته. وأخبرها "إيڤان" بأنه خرج بحثا عن أختيه، وطلب إليها أن ترشده إلى مكانهما.

وأجابته الساحرة: "إني أعرف أن "نيوتسبينايا" تقيم مع زوجها العجوز "وحش الغابة forest monster" في قصره المشيد من الحجر الأبيض، وعليك أن تسلك إليه الطريق الأوسط ولا يخفى عليك أنه طريق

شاق طويل، وحتى لو بلغت مكانها فلن يجد ذلك لأن وحش الغابة سيلتهمك لا محالة"

وابتسم "إيڤان" قائلا: "حسنا يا جدتي. إن فعل ذلك فسأقف في حلقة فيختنق، فلحم الروسي عظيم جاف، وإلى اللقاء. شكرا لما قدمت لي من خبز وملح". ثم أوسع خطاه متخذا الطريق الأوسط.

وبعد قليل أبصر بالقصر يلمع وسط السهول؛ فيمم شطره، ووجد هناك على البوابة "شيطانا" صغيرا أخذ يصيح: "ممنوع الدخول". وقال "إيڤان": "افتح الباب يا صديقي، وسأقدم لك بعض شراب الفودكا".

وتناول الشيطان الصغير الشراب وتجرعه ورفض أن يفتح الباب، وعزم "إيڤان" على تسلق السور حتى إذا وصل إلى قمته وجدها وقد شدت بها الأسلاك، ومست قدمه سلكا منها فأخذت مائة جرس ترسل ترسل دقاتها، ولكنه وثب إلى الداخل، وخرجت "نيوتسبينايا" مندفعة إلى المشرفة وهي تصيح: "أهذا أنت يا أخي العزيز "إيڤان"؟.. وأجابها وهو يقبلها: "نعم.. هذا أنا يا أختاه". قالت: "يجب أن أخبئك من وحش الغابة، فقد قرب موعد وصوله".

ومازالا يتحدثان حتى سمعا زئير عاصفة اهتز لها القصر وبدا الوحش فأسرع "إيڤان" إلى طاقيته فلبسها مختفيا عن الأنظار. وأرعد وحش الغابة قائلا: "أين ضيفك الذي تسلق السور؟".. وأجابت "نيوتسبينايا": "ليس عندي ضيوف". فزمجر الوحش قائلا: "لقد سمعت الأجراس". قالت

الأميرة: "كانت العصافير تطير فوق السور ولا بد أن تكون لمست الأجراس بأجنحتها".. قال الوحش: "العصافير!! إنما أشم رائحة نفس روسية هنا. إني جوعان وسآكله"

وخلع "إيڤان" طاقيته، وظهر أمام الوحش وانحنى له وهو يسأله: "ولماذا يريد أن تأكلني؟.. إني هزيل جدا، وسأقدم لك إفطارا لم تذق مثله من قبل".. ونشر "إيڤان" غطاء المائدة فظهر الإثنى عشر غلاما والإثنتى عشرة فتاة، وأخذوا يقدمون للوحش ما ملأ معدته من طعام وشراب، فأكل وأكل وشرب وشرب وشرب ثم أكل ثانية حتى لم يعد يقوى على الحراك، وراح في النوم حيث كان يجلس. وقال "إيڤان" لأخته: "لا بد أن أتركك الآن يا أختاه.. ولكن خبريني أولا.. أين تقيم أختنا "برتسبينايا"؟.. وتنهدت الأخت قائلة: "يجب أن تبحث عنها في جميع أنحاء المحيط العظيم فهى تقيم في دوامة المحيط مع زوجها "وحش البحر seamonster ولكن الطريق شاق وأخشى أن يلتهمك إذا رآك"

وضحك "إيڤان" قائلا: "قد يمضي، ولكنه سيجدني صعب الازدراد.. أستودعك الله يا أختاه"، وأخذ يوسع الخطى صوب المحيط العظيم حتى بلغه، وكان على الشاطئ قارب صيد روسي، صنعت حباله وعدته من ألياف الزيزفون، وأما أشرعته فمن حصير من الوبر الناعم، وكان البحارة على وشك الإبحار إلى جزيرة "صخرة الملح"، وسألهم "إيڤان" أن يرافقهم. وقال: "ليس في مقدوري أن أدفع لكم أجر الرحلة ولكني بدلا من ذلك سأقص عليكم من القصص ما ينسيكم الوقت أثناء السفر"،

ورضي البحار بذلك، وخطا "إيڤان" إلى داخل المركب الذي أبحر فوق المحيط العظيم، وأخذ يقص عليهم قصصه، فجاوزوا جزيرة "صخرة الملح"، وظلوا يوغلون في البحر، وفجأة ثارت عاصفة واهتز القارب بشدة، ودخل الخوف قلوب البحارة، وتصايحوا بأنهم لا بد أن يؤدوا لوحش البحر إتاوته، وسحبوا القرعة، فإذا هي من نصيب الأمير "إيڤان".. وجمع "إيڤان" أشياءه: غطاء المائدة الصغير والحذاء الذي يمشي وحده والطاقية والقيثارة، ورفعه الملاحون. وألقوا به إلى دوامة المحيك العظيم، وهدأ البحر ثانية وأبحر القارب، ومضى "إيڤان" كالصخرة إلى قاع البحر، حيث القاعات الرائعة المزهرية التي يقيم فيها وحش البحر الذي كان يجلس على عرشه وإلى جانبه الأميرة "نيوتسيينايا".

وصاحت الأميرة عندما رأته: "أهذا.. أنت يا أخي العزيز؟". وأجاب: "نعم.. أنا".

وصاح الوحش قائلا: "لقد مضى وقت طويل على آخر وجبة تناولتها فأهلا بك أيها الشاب. ادن مني حتى آكلك".

قال "إيڤان": "إن لحمي لا يكاد يكسو عظامي، وفضلا عن ذلك فأنا شقيق الأميرة، وليس من اللياقة في تقاليد أسرتنا أن نأكل بعضنا بعضا". وعوى الوحش قائلا: "أتحاول أن تفرض قواعدك على الآخرين!!. ثم تتحدث عن عدم اللياقة؟.. إن هذا لكثير"

وأدرك "إيڤان" أن لا بد من عمل سريع، فشرع يعزف على قيثارته، عزف أغنيات حزينة بدا أثرها في سمات الحزن التي كست وجه الوحش، وأخذ الوحش يتنهد ثم يئن ثم يبكي في النهاية. ثم عزف أغنية مرحة جعلت الوحش يقفز قفزات متعددة ويضرب الأرض بقدمه ويفرك أصابعه ويدير عينيه ويرسم بوجهه من الأشكال ما أضحك الأسماك جميعها.

وأمضى وحش البحر وقتا طيبا، حدا به إلى أن يقرر ألا يأكل "إيڤان" رغم كل شئ وقال له: "أقم معنا.. ألا تريد أن تكون ضيفنا؟.. تعال فاجلس معنا حول المائدة"

وتناولوا طعامهم وشرابهم، وأخذوا يمرحون بعض الوقت، فرقص الحوت أمامهم رقص "الڤالس".. وغنت أسماك "الرنجة" أغنيات مرحة، وراحت أسماك أخرى تلعب على الآلات الموسيقية.. وبعد ذلك استغرق وحش البحر في النوم.

وقالت الأميرة: "يا أخي الحبيب، إنني سعيدة برؤيتك، ولكن إذا استيقظ الوحش وكان مزاجه سيئا فلا بد أن يأكلك"

قال"إيڤان": "أخبريني أختي العزيزة.. كيف أستطيع أن أنقذكما من وحشي الغابة والبحر؟"

وأجابت الأميرة: "إن الأمر صعب جدل .. فوراء المحيط العظيم مملكة كبيرة تحكمها فتاة قيصرة، وإذا أمكنك الدخول إلى حديقة القصر قبلتك زوجا لها، وهي الوحيدة التي تستطيع فك إسارنا.. ولكن لديها

حراسا أشداء على الساحل، مزودين بالبنادق والحراب.. وفي كل حربة رأس شاب جاء يخطبها.

وهؤلاء الشبان جميعا كانوا من المحاربين الأقوياء أو الملوك، أو أبناء الملوك، ولكنهم لم يتمكنوا من التغلب على الحراس.

قال "إيفان": "ولكن كيف أصل إلى هذه المملكة؟" قالت الأميرة: "سأعطيك الترس the sturgeon " هذه.. تحملك إلى المملكة.. وسأرسل معك هذه السمكة السريعة لترشدك إلى الطريق"

وودع أخته واعتدل على ظهر "سمكة الترس" التي تبعت السمكة السريعة الأخرى، وسار الركب في طريقه، وقد ازدحمت حولهم الأسماك تحييهم وتقرع الطبول، حتى إذا بلغ الركب شاطئ "الفتاة القيصرة"، لبس "إيفان" طاقيته ونزل إلى الشاطئ. ومر بالحراس المسلحين دون أن يروه، وجاوزهم إلى الحديقة. وحلقت فوق رأسه عشرون حمامة بيضاءلم تلبث أن حطت على حافة بركة، ثم استحالت العشرون عشرين فتاة جميلة مشت في وسطهن "الفتاة القيصرة"، وكانت أوفر ملاحة وجمالا منهن مجتمعات.

وقالت القيصرة: "إن الحرارة شديدة، فلنستحم في هذه البركة، ونحن في مأمن من العيون؛ فالحراس على الشاطئ لا يسمحون لذبابة أن تفلت منهم"

قال "إيفان": "انظري أي ذبابة كبيرة أفلتت منهم؟" وخلع طاقيته وانحنى أمامها، وصرخت هي وزميلاتها..

وقال "إيڤان": "يا آنستي القيصرة، وآنساتي الجميلات.. لا تخفن شيئا، فلست دبا، ولكن إذا كانت هنا العروس المقدورة لي فأنا عريسها المقدور" واحمر وجه الآنسة القيصرة، ومدت يدها إليه، قالت: "مرحبا بك أيها الشاب الطيب فقد حللت هنا ضيفا كريما وصديقا عزيزا وما أنت بالخاطب الخشن.. فتعال إلى غرفتي البللورية"

وفي اليوم التالي أقيمت وليمة الزفاف، وساد الفرح جميع سكان المملكة، إذ وفقت "فتاتهم القيصرة" إلى زوج يرضاه قلبها، وبعد أن انتهت الوليمة تحدث "إيڤان" إلى زوجته في أمر تحرير أختيه من الوحشين"؛ فقالت له: "يا زوجي الحبيب.. ترى أي شئ لا أعمله من أجلك؟.. سآمر الوحشين بأن يطلقا سراح أختيك في الحال". وكتب "إيڤان" إلى القيصر يقول: "وهكذا أيها القيصر النبيل.. ترى أن الذكاء والحكمة يؤديان إلى ما تؤدي إليه الجرأة والقوة من غلب ونصر.. وإن القيثارة العازفة بغير عازف تؤدي من الخدمات ما تؤدية النصل.. وحبذا لو نزلتما _ أنت ووالدتي _ في ضيافتي.. وستكون زوجتي وأختاي معنا"

وأمضى "إيڤان" حياة مديدة سعيدة، وكان السرور يفيض بزوجته إذ تصغي وهو يعزف على قيثارته.

يوغوسلافيا

الضفدعة الصغيرة الشادية

يُحكى أنه كان في سالف الزمان، عامل فقير يعيش وزوجته في حزن دائم، إذ كانت امرأته عاقرا. وكانت الزوجة كل يوم ترسل زفرات الحزن متمنية أن ترزق غلاما، فيقابلها زوجها بزفرة أخرى يتمنى معها تحقيق هذا الأمل. وذهبا يحجان إلى مكان مقدس عسى الله أن يستجيب دعاءهما فيرزقهما طفلا.

وقالت المرأة مبتهلة: "يارب.. هب لي طفلا من أى نوع حتى أشكر نعمتك، ولو كان ذلك الطفل ضفدعة" واستجاب الله لهما؛ فوهبهما ابنة، ولكنها لم تكن من البشر، بل كانت ضفدعة، فأحباها كثيرا، وكانا يقضيان الوقت في اللعب معها، ويستخفهما المرح فيضحكان ويصفقان لها إذ يرقبانها وهي تقفز وتثب في أرجاء البيت، وما كان يقلق بالهما إلا همسات الناس وغمزاتهم بأنهما قد رزقا ضفدعة، فكانا يخفيانها في مخدع إذا ما وفد عليهما زائر خشية أن يجرح شعورها.

وشبت الضفدعة وحيدة دون أن يكون لها رفيقات يشاركنها لعبها، فلم تكن ترى إلا أبويها. وكان والدها صانع نبيذ، فاعتادت أن ترتاد مزرعته الكبيرة ترتع وتلعب فوجدت في لهوها بين الكروم متعة، وإن لم تغنها عن اللعب مع الأطفال. وكانت أمها تحمل الطعام كل يوم إلى أبيها

بالمزرعة، إلا أنها على مر الأيام أصبحت تلك المهمة شاقة عليها حتى لقد عجزت عن حمل سلة الطعام، ولاحظت الضفدعة ذلك من أمها؛ فأصرت على أن تتولى هي هذا الأمر كل يوم حتى تبقى أمها بالمنزل وتجنبها هذا العناء.

وفي أثناء تناول أبيها وجبته كانت تقفز إلى فروع شجرة قريبة، وترسل أغانيها في صوت عذب منَّ الله عليها به.كان أبوها يطرب لها حتى دعاها بالضفدعة الشادية الصغيرة، وحدث في أحد الأيام أن استرسلت في الغناء، فسمع شدوها أصغر أبناء القيصر، وهو مار على صهوة جواده مصادفة، فتوغل في المزرعة عساه يرى صاحبة الصوت، ولكنه لم يستطع أن يراها. وسأل الأمير الرجل عن صاحبة هذا الصوت. وخجل الرجل من أن يظهر ابنته الضفدعة أمام شخص غريب فأنكر سماع أي صوت. وفي نفس الوقت من اليوم التالي مر الأمير ثانية على صهوة جواده، وسمع نفس الصوت الجميل.

ووقف في مكانه وكله آذان، ثم صاح بالرجل: "اصغ إليّ يا رجل.. إني أعرف أن هذا الصوت لفتاة جميلة، وأقسم أني لو عثرت بها لتزوجتها في الحال، وصحبتها إلى والدي القيصر" وقال العامل: "لا تتعجل يا سيدي" وأخذ الأمير يدور ببصره فيما حوله ثم قال: "إني أعني ما أقوله، وسأتزوجها في الحال".. وسأل الرجل: "هل أنت متأكد مما تقول؟" وأجاب الأمير: "نعم".. وتطلع الرجل إلى أعلى الشجرة قائلا: "اهبطي يا ضفدعتي الصغيرة الشادية؛ فهنا أمير يرغب الزواج منك".. وقفزت الضفدعة من

بين الغصون إلى حيث وقفت أمام الأمير، وقال العامل يوضح الأمر: "إنها ابنتي، ولو أن لها هيئة الضفدعة".. وقال الأمير في إصرار: "لست أبالي بذلك؛ فقد راقني صوتها وأحببتها.. وسأتزوجها لو رضيت بي زوجا.. وقد أمرنا والدي القيصر أن نقدم له – أنا وأخواي – عرائسنا في الغد على أن تحضر له كل واحدة منهن زهرة، ووعد بأن يخلفه على العرش الأمير الذي تقدم عروسه أجمل زهرة.. فهل لك يا ضفدعتي الصغيرة أن تكوني عروسي وترافقيني غدا إلى البلاط الملكي؟".

وأجابت: "قبلت يا أميري، حتى لا يعلوني الغبار فأخجل وقت مثولي في البلاط يحسن أن أركب شيئا ما.. وأرى أن ترسل لي من مزرعة والدك ديكا ناصع البياض أمتطيه". فوعدها الأمير بذلك، وقبل أن يهبط الظلام جاءها رسول من قبل الأمير يحمل ديكا أبيض كالثلج.

وفي فجر اليوم التالي، أخذت الفتاة الضفدعة تبتهل إلى الشمس: "أيتها الشمس الذهبية.. امنحيني عونك.. وهبيني ثيابا جميلة نسيجها من أشعتك الذهبية حتى لا أخجل أميري عندما أذهب إلى بلاط القيصر". وابتسمت لها الشمس وزودتها بعباءة ذهبية. وبدلا من أن تحمل معها زهرة، حملت ساقا من سيقان القمح، واعتلت الديك وتوجهت إلى السراي. وعندما بلغت بابها منعها الحراس من الدخول قائلين: "ليس ثمة مكان للضفادع، وأولى بك أن تبحثي عن بركة". لكنها صاحت فيهم: "إني عروس الأمير الصغير".

وخشي الحراس أن يطردوها، وسمحوا لها بأن تمر من البوابة على ديكها الأبيض، وكم كانت دهشتهم بالغة عندما نظروا في إثرها ورأوها تنقلب فتاة ذات جمال رائع، وعلى رأسها عباءة ذهبية كما تحول ديكها إلى جواد أبلج.

ودخلت الفتاة الضفدعة السراي مع عروسي الأخوين الكبيرين، وكانتا فتاتين ضؤل جمالهما عندما وقفت عروس الأمير الصغير إلى جانبيهما.وتقدمت الفتاة الأولى من القيصر وقدمت له زهرة، وأخذ القيصر ينقل بصره بين الزهرة وبينهما ثم شمها، وأشاح عنها بوجهه.. وتقدمت الفتاة الثانية تحمل زهرة قرنفل؛ فتأملها القيصر برهة، ودمدم قائلا: "ياللعجب إنها لا تفي ولا تصلح".

وقدمت له عروس ابنه الأصغر في تأدب وانحناء، ساقا من القمح، فأطال القيصر النظر إليها وقال: "هذا ما أتمنى".. ورفع يده بساق القمح، ومد إليها يده الأخرى، وأجلسها بجانبه على العرش.

ثم تحدث القيصر إلى أبنائه ورجال البلاط فقال: "إن هذه الفتاة عروس الأميرة الصغيرة هي التي وقع عليها اختياري لجمالها وحكمتها، فقد أدركت النفع والجمال معا، لأنها أتتني بساق من القمح، فليخلفني الأمير الصغير على العرش ولتكن عروسة القيصرة"

وهكذا تزوجت الضفدعة الصغيرة الشادية التي كانت مبعث الخجل لوالديها من الأمير الصغير، وفي الوقت المناسب لبست التاج، ولكن زوجها الصغير ظل فرحا بغنائها، كانت تغني بين الغصون الخضراء بمزرعة الكروم..

الآثار الفضية

كانوا ثلاثة إخوة كادحون، أثرى أولهم ثراء عريضا، إذ كانت زوجته تكدح مثله، ولم يكن لهما أولاد ينفقان عليهم مالها. ولم يكن الثاني في ثراء الأول، ولكنه كان ميسور الحال، وكان له ولد واحد، ولم يكن له من هم سوى أن يجمع ما استطاع من مال وعقار حتى يخلف ابنه في سعة ورخاء.. ومن أجل هذه الغاية توسل بكافة الوسائل المشروعة وغير المشروعة وجعل زوجته تحذو حذوه.

أما الأخ الثالث، فقد كان هو الآخر كادحا في حياته، ولكنه برغم ذلك كان فقيرا جدا؛ إذ كان يعول زوجته وعشرة أولاد، ولم يكن يستطيع أن يشتري طعاما لهذا العدد الكبير إلا بالعمل المتواصل طوال ساعات اليوم، ومعظم ساعات الليل. ولم يحدث أن حصل على أجازة، بل كان عمله متصلا، وكان رجلا ساذجا طيبا، علَّم أولاده أن أهم ما في الحياة هو محبة الله والبر بالناس.

وحدث ذات مرة، عندما كان السيد المسيح على الأرض يبلو قلوب الرجال، أن اتخذ هيئة سائل وأتى القرية التي يقيم فيها الإخوة الثلاثة، وكان الجو باردا مطيرا، والظلام آخذا في الانتشار، وكان يركب عربة قديمة

لها عجلتان يجرها حصان محطم. وطرق باب الأخ الأول الغني قائلا: "سألتك بالله أن تأويني وحصاني المسكين هذه الليلة". وصاح فيه الأخ الغني: "اغرب عني.. أتظنني آوي شريرا عجوزا مثلك.. إليك عني قبل أن أدعو الرجال وآمرهم بأن ينهالوا عليك بما تستحق من ضرب". ولم ينبس ببنت شفة، ومضى إلى منزل الأخ الثاني الذي تظاهر بالأسف لعجزه عن قبول تحت سقفه. وعلى الرغم من أنه لم يكن يقيم معه سوى زوجته وولد راح يشكو قائلا: "وددت لو أستطيع أن أستضيفك، ولكن بيتي ليس كما يبدو من الاتساع ولدي كثيرون أعولهم، ولو أنك مشيت قليلا فستجد من يستضيفك". ولم يقل السائل شيئا، ولكن لوى عنان جواده إلى البيت الحقير حيث يقيم الأخ الفقير مع زوجته وأطفاله العشرة السعداء، وطرق الباب يسألهم مأوى. وقال الأخ الفقير: "بكل تأكيد.. ادخل يا أخي. إن المنزل ليضيق بنا، ومع ذلك فما زال يتسع لك، ستضع حصانك مع حماري بالحظيرة حتى لا يظل بالخارج معرضا للبرد والمطر، ادخل وادن من النار حتى تجف ملابسك، وسأدبر أمر الحصان".

ودخل السائل كوخ الرجل الفقير، وذهب مضيفه ليخرج عربته الخاصة من الحظيرة إلى حيث يتساقط المطر.. ليفسح مكانا لعربة السائل، ثم قاد الحصان الهزيل إلى حيث يشارك حماره لعربة السائل، ثم قاد الحصان الهزيل إلى حيث يشارك حماره الصغير مكانه، وقدم له بعض الشعير والبرسيم من مخزنه الصغير. وطلب إلى السائل أن يشاركه وأسرته عشاءهم، وأعد له فراشا من القش على مقربة من النار، فنام في راحة ودفء.

وفي الصباح التالي قال السائل وهو يودع الأخ الفقير، وقد سره ما لقيه من نقاء قلبه وقلب زوجته: "لا بد أن تأتي لزيارتي فتتيح لي الفرصة كي أرد بعض ما لقيت من كرمك". وسأله الأخ الفقير "وأين تقيم؟". وأجاب السائل: "تستطيع دائما أن تجدني، إذا اتبعت آثار عجلات عربتي، وستميزها بسهولة، إذ هي أعرض من آثار أي عربة أخرى". وقال الرجل الفقير: "إذن.. سأزورك لو أتيح لي الوقت". وودع كل منهما صاحبه ومضى السائل بعربته، في بطء يناسبك حصانه العجوز..

وقصد الرجل الفقير إلى حظيرته ليشد حماره إلى عربته، فكان أول شئ وقع عليه بصره مسمارين كبيرين من الفضة ملقيين على الأرض، وظن لأول وهلة أنهما سقطا من عربة السائل، وهرع إلى الطريق عله يلحق به، ولكنه كان قد اختفى بعربته. وقال الرجل وهو يحادث زوجته: "اللهم جنبه شر الحوادث نتيجة فقدانه هذين المسمارين من عربته". وقالت الزوجة: "فليحفظه الله سالما". وعندما عاد إلى الحظيرة، ذهب إلى مربط حماره، فوجد على الأرض حيث كان يقف حصان السائل، أربع حدوات من الذهب!! ينبغي أن أعيدها إليه في الحال هي والمسمارين الفضيين، ولكني لا أستطيع اليوم ذلك، فأنا مشغول جدا طيلة اليوم، ولديَّ عمل كثير كيما أحصل على طعام أولادي، فلأضعها إذن في مكان مأمون إلى أن تتاح لي بضع ساعات بعد ظهر أحد الأيام أتبع فيها آثار العجلات إلى بيت السائل"

وصادف أن لقي أخويه، بعد ظهر ذلك اليوم؛ فقص عليهما ما كان من أمر السائل. وصاح الأخ الأكبر: "مسامير من فضة!!"، وصاح الأخ الثاني: "حدوات من الذهب!!.. فلنذهب معك لنراها"، ورافقهما الأخ الأصغر إلى بيته، حيث أراهما المسمارين والحدوات، وعرض عليهما أن يتولى أحدهما إعادتها لصاحبها؛ إذ لا بد أن يكون في حاجة إليها، ولكنهما اعتذرا بأنهما لا يستطيعان إضاعة الوقت سدى.. وراحا يسألانه عن محل إقامة السائل، فحدثهما عن آثار العجلات التي تؤدي إلى منزله وأراهما هذه الآثار التي تبدأ من الحظيرة حيث كانت العربة، وتبعوها إلى الطريق إذ كانت عريضة ولها بريق الفضة، رغم أن اليوم كان معتما كثير الغيام.

وراح يسألهما ثانية أن ينوبا عنه في إعادة هذه الأشياء إلى صاحبها، ولكنهما كررا اعتذاراهما، وعقد كل منهما عزمه على أن يذهب بنفسه ليرى أي سائل هذا الذي يتخذ لعربته مسامير من فضة، ولحصانه حدوات من الذهب. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي خرج الأخ الأكبر في عربة جديدة يقودها حصان جميل، وقادته آثار العجلات عبر الغابات والحقول، وصعدت به في تلال خضراء وأخرى صخرية، إلى أن بلغت به في النهاية نهرا أقيمت عليه قنطرة من الخشب المصقول صقلا جميلا، لم يسبق له أن رأى خشبا مثله يستعمل في إقامة القناطر. وإلى جانب الطريق وراء القنطرة رأى حظيرة خنازير بها حوضان ملئ الأول بالقمح والآخر بالماء، وكان بالحظيرة خنزيران غير مهتمين بالطعام الجيد، انصرف كل منهما إلى مقاتلة الآخر وتمزيقة شر ممزق، وقد علا صراخهما.

واستمر الغني في طريقه إلى أن صادف نهرا آخر عليه قنطرة رائعة من الحجر، وامتدت وراءها مروج في وسطها كدس برسيم يدور به ثوران غاضبان يطارد كل منهما الآخر ويتناطحان وقد أثخن جسداهما بالجراح، وقد عجب الرجل الغني، لم لا يخرج إليهما أحد يفصل بينهما. ثم أتى نهرا آخر امتدت فوقه قنطرة حديدية، أجمل مما يمكن أن يصل إليه خياله، ويمتد وراءها حقل به أبكة يدور حولها كبشان يطارد كل منهما الآخر ويقتتلان، وكان يسمع لقرونهما قرقعة كلما تلاقت، وكان جلداهما ممزقين داميين نتيجة لذلك.

وكان على النهر التالي قنطرة تتألق تحت أشعة الشمس كانت من النحاس الأحمر اللامع، وكانت جميع أجزائها من مسامير وصفائح ودعائم من النحاس الأحمر الذي يبهر جماله الأبصار، ويقول على جانب الطريق وراءها صليب مرتفع تتدلى منه كتلة ثقيلة من اللحم، لحم حمل، وخنزير، وعجل، وكان هناك كلبان كبيران يثبان على اللحم، وكل منهما ينبح وينهش ويعض الآخر. وكانت القنطرة التالية أجمل من جميع القناطرة السابقة، إذ كانت مصنوعة من الفضة البيضاء اللامعة، فهبط الرجل الغني من العربة، وقد أذهله ما رأى، وأخذ يعالج المسامير ويهز القضبان حتى عثر في النهاية على أربعة مسامير غير ثابتة تمكن من خلعها؛ كانت من الثقل بحيث استطاع بعد لأي أن يرفعها، وبعد أن تأكد من عدم وجود من يراقبه، وضعها الواحد بعد الآخر في قاع العربة، وغطاها بقليل من القش حتى يخفيها، ولوى عنان جواده، وكر عائدا بأسرع ما استطاع، ولما بلغ البيت في منتصف الليل خبأها تحت البرسيم الجاف، وما كان أشد غضبه

عندما ذهب في فجر اليوم التالي لينظر كنزه؛ فوجد قطعا من الخشب بدلا من المسامير الفضة الثقيلة، ولكنه لم يدر لمن يوجه غضبه.

وبعد ذلك بأيام، خرج الأخ الثاني يتتبع الآثار الفضية المؤدية إلى السائل صاحب العربة ذات المسامير الفضية والحصان ذي الحدوات الذهبية، دون ان يخبر أحدا بنيته. وكان في عزمه أن يعود ببعض الحدوات الذهبية لابنه، إذ قليل من الأبناء من يرثون عن آبائهم حدوات ذهبية. وسار في نفس الطريق الذي سار فيه أخوه الأكبر من قبل، وصادف قنطرة من الخشب وقناطر أخرى من الحجارة والحديد والنحاس والفضة على التعاقب، وشاهد جميع الحيوانات الغاضبة التي تحاول تمزيق بعضها بعضا.. ولم يقف عند القنطرة الفضية، بل توقع أن تكون القنطرة التالية من الدهب، وعلل نفسه بأن يعود بأجزاء يقتلعها منها.

وكان يمتد وراء القنطرة واد فسيح، وفي وسط حقل فسيح وقف رجل يحاول أن يذود عن نفسه سربا من الغربان السوداء كانت دائمة الانقضاض على عينة تنقرها، وعلى مقربة منه وقف رجل عجوز أبيض الشعر يستصرخ السماء أن تخلصه من ثورين كانا يلوكان شعره الأبيض وكأنه بعض البرسيم، وقد أكلا جزءا كبيرا منه، وكلما أكلا من شعره نما له شعر. وعلى مسافة يسير من هذا المشهد كانت تقوم شجرة تفاح تثقلها الثمار الناضجة، وأمامها ربل جائع يقطف الثمار، وكلما رفع تفاحة إلى فمه استحالت رمادا. وفي مكان آخر شاهد رجلا يغترف الماء من بئر

بوعاء في يده، وكان كلما رفع الوعاء ببعض الماء إلى فمه، تسرب الماء من الوعاء..

وقد عجب الأخ الثاني لهذه الأشياء، ولكنه استمر في مسيرة حتى بلغ في النهاية القنطرة التالية، وكانت من الذهب الخالص، وقد أخذ بمظهرها فهبط من العربة. وأخذ يعالج أجزاءها إلى أن تمكن في النهاية من خلع أربعة مسامير طويلة.. نقلها بصعوبة إلى حيث وضعها بالعربة وغطاها بطبقة من القش بعد أن أيقن أن ليس هناك من يرقبه، ولوى عنان جواده، وكر عائدا إلى منزله بأسرع ما استطاع. وما إن خبأها في مخزن محصولاته حتى ضحك وهو يقول لنفسه: "والآن أصبح ابني أوفى ثراء من أخي الأكبر". ومع أول شعاع أرسلته الشمس في الصباح التالي قصد إلى المخزن فوجد أربعة مسامير من الخشب بدلا من المسامير الذهبية، فاستشاط غضبا، ولكنه لم يدر لمن يوجه غضبه.

ومرت الأعوام، والأخ الفقير يعمل يوما بعد يوم، وكثيرا ما كان يمتد عمله إلى ساعة متأخرة من الليل، ومات بعض أطفاله العشرة، أما الباقون فقد نشأوا على قوة وصلاح، ونزلوا إلى ميدان الحياة، وتزوجوا وأنشأوا لأنفسهم بكدهم بيوتا خاصة بهم، ثم توفيت زوجته الحبيبة في النهاية، وبقي وقد تقدمت به السن وحيدا في الحياة، وذات ليلة جلس أمام داره، وراح يفكر في زوجته وفي أولاده عندما كانوا صغارا، وكيف كان يعمل ليوفر لهم الغذاء والكساء.. وفجأة ذكر السائل ووعد إياه بزيارته..

وراح يفكر فيما عساه أن يظن به لاحتفاظه بمسامير الفضة وحدواته الذهبية طوال هذه الأعوام. ورجح أنه لا بد أن يسامحه ويقدر أنه كان مشغولا بعمله عن متابعة آثار العربة، وعجب من أن تكون هذه الآثار باقية على الأرض، وخطا إلى الطريق وأخذ يحدق في الأرض بعينيه الكليلتين فإذا الآثار الفضية على حالها من الوضوح والظهور.

وخرج في فجر اليوم التالي بعربته البالية يجرها حماره العجوز، وقد وضع بها غرارة بها المسامير الفضية والحدوات الذهبية، ومضى يتبع الآثار الفضية إلى منزل السائل، وشاهد نفس الأشياء التي رآها أخوه من قبل: الحيوانات التي تتفاعل في قسوة، والرجال التعساء، والقناطر الخشبية والحجرية والحديدية والنحاسية والفضية والذهبية.

وجاوز القنطرة الذهبية حتى بلغ حديقة أحاط بها سور مرتفع من الماس والياقوت الأزرق والزمرد، وجميع أنواع الأحجار الكريمة التي تتلألأ كالشمس ذاتها، وانتهت آثار العجلات الفضية إلى داخل الحديقة، ولكن البوابة كانت مغلقة. وتحامل الأخ الأصغر على نفسه حتى هبط من العربة، وأطلق حماره المتعب يرعى في الحشائش الرقية النامية على جانب الطريق، ومضى إلى العربة فحمل الغرارة بما فيها من مسامير فضية وحدوات ذهبية إلى بوابة الحديقة.. وكانت بوابة رائعة من الذهب الخالص المرصع بالأحجار الكريمة، وتردد لحظة في أن يقرعها، ولكنه تذكر أن صديقه السائل يقيم هناك وأنه سيرحب به.

وفتح السائل نفسه الباب، وعندما أبصر بالرجل الفقير ابتسم ومد إليه يده قائلا: "أهلا بك يا صديقي العزيز.. لقد انتظرتك طوال هذه السنين أدخل لأريك حديقتي". ودخل الرجل الفقير، وأعطى السائل مساميره وحدواته وهو يقول: "أرجو أن تسامحني لاحتفاظي بها هذه المدة الطويلة، ولكني إلى اليوم لم يتح لي الوقت لإعادتها".

وابتسم السائل قائلا: "كنت أعرف يا صديقي أنها في يد أمينة، وأنك ستحضرها يوما ما"، ووضع ذراعه على كتف الرجل الفقير، وسار به في الحديقة حيث أراه فاكهة ذهبية رائعة وأزهارا جميلة، وجلسا إلى جانب نافورة ترسل مياها بيضاء صافية، وأصغيا إلى تغريد الطيور.. وسأله الرجل الفقير عما شاهده في الطريق من أشياء عجيبة.

وبدا الحزن على محيا السائل قال: "كل هذه الحيوانات كانت يوما ما من البشر، وبدلا من أن تقضي حياتها في خشية الله والعطف على عباده كانت تنفق الوقت في التناحر والغش واستنزال اللعنة، فالخنزيران كانا امرأتين، إحداهما زوجة شقيق الأخرى، وكانت كل منهما تكره الأخرى كراهية مريرة.. أما الثوران والكبشان، فكانت جيرانا قضوا سنوات طوال يتنازعون حول حدود مزراعهم، وعليهم الآن أن يستمروا في قتالهم إلى الأبد، وكان الكلبان أختين قضينا حياتهما في حرب من أجل ما خلف لهما أبوهما من ميراث، وكان الرجل الذي تلتهم الثيران شعره مزارعا دأب على ترك ماشيته ترعى في حقول جاره، والرجل الذي تنقر الغربان عينه كان عاقا أساء معاملة والديه، والرجل العطشان الذي لا يروى كان سكيرا،

والذي تستحيل النفخات رمادا على شفتيه كان في حياته رجلا نهما لا يشبع.

فقال الأخ الأصغر: "حسنا.. إني أرثي لحالهم". وابتسم السائل قائلا: "إنك لذو قلب رقيق!".. ثم مضي في الحديث، وظل السائل والرجل الفقير في جلستيهما بجوار النافورة يتحدثان إلى وقت متأخر من بعد الظهر.. وقال السائل: "والآن يا صديقي العزيز ستتناول العشاء معي، كما تناولته معك من قبل". وقال الرجل الفقير: "شكرا لك.. سأفعل، ولكن بعد أن أذهب فأطمئن على حماري". وقال السائل: "حسنا.. ولكن على أن تعود ثانية، فسأظل في انتظارك". وخرج الرجل الفقير من البوابة وبحث عن حماره، ولكنه لم يكن هناك، فرجح أن يكون قد عاد أدراجه إلى البيت ورأى أن يسرع لعله يمسك به. وكر عائدا على قدميه، ولكنه لم ير الحمار، وسار عبر القناطر ولكنه لم يقع على أثر له، وغلب على ظنه أن يكون قد عاد إلى المنزل في ذلك الوقت.

ولكن ما إن عاد الرجل الفقير إلى قريته، حتى كان كل شئ فيها قد تغير، القرية كلها قد تغيرت فالمنازل التي يذكرها اختفت وحل محلها غيرها، ولم يوفق للعثور على منزله الصغير، ولم يكن الناس الذين سألهم يدرون شيئا عن منزله أو عن نفسه أو عن أولاده.. وأخيرا صادف رجلا عجوزا كان يذكر اسم الأسرة؛ فأخبره أنه منذ سنوات طويلة انتقل آخر أبنائه إلى قرية أخرى ليقيم فيها.

وأدرك الرجل ألا مكان له في هذه القرية، وأن أفضل شئ يعمله هو أن يعود إلى حديقة السائل ليقيم معه، فلم يكن ثمة شخص آخر يريده. ومرة أخرى عاد يتبع آثار العجلات عبر القناطر، وعندما ما بلغ بوابة الحديقة كان التعب قد أخذ منه كل مأخذ، وأصبح عجوزا ضعيفا.. وسمع السائل طرقه الخافت على البوابة؛ فأسرع إليه يدعوه للدخول. وعندما شاهد ما بلغ من كبر وضعف طوقة بذراعيه، وعاونه على المسير في الحديقة، وهو يقول: "ستمكث معي دائما.. وسيسعد كل منا بصحبة الآخر".

وتفرس الرجل الفقير في وجه السائل، وهو يهم بشكره، فأدرك أنه لم يكن سائلا، وإنما كان المسيح المبارك، كما أدرك الأخ الأصغر ذو القلب الطيب أنه كان في الجنة.

الفهرس

اليونان

تشيكوسلوفاكيا

الهند

الولايات المتحدة الأمريكية

الأرض الواطئة

المكسيك

فرنسا

البرازيل

بلچيكا

روسيا

يوغوسلافيا